رواية

ليوبوف كوسمودميانسكايا

زويا وشورا

بطولة فتاة وثأر فتى

ترجمة

سهيل أيوب

زويا وشورا بطولة فتاة وثأر فتى

قصة

ليوبوف كوسمودميانسكايا

ترجمة:

سهيل أيوب

www.daralrafidain.com

زويا وشورا

بطولة فتاة وثأر فتى

Zoya and Shura

ليوبوف كوسمودميانسكايا

ترجمة: سهيل أيوب

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2019

2019 Lebanon, ـ First Edition: Beirut

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain_دار الرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 607 - 50 - 4

مقدّمة الطبعة العربية

كتب المترجم إلى السيدة ليوبوف كوسمودميانسكايا، أمّ زويا وشورا ومؤلفة هذا الكتاب، يُعلمها بما عقد عليه العزم من ترجمة حياة ولديها البطلين إلى لغة الضاد، ويسألها ما إذا كانت تريد أن تقول شيئاً خاصاً للقرّاء العرب، فكتبت إليه هذه الرسالة:

إنّ في العالم لبلداناً كثيرة، ولكلّ بلدٍ منها لغته، وعاداته، وقوانينه الخاصّة. ولكن العذاب نفسه يعتصر، في كلّ مكانٍ، قلبَ الأمّ الذاهب ولدها في الحرب، كما أنّ دموع تلك التي تبكي موت أبنائها مريرة قاسية في كلّ مكان أيضاً.

إنّ آلاف الأميال تفصل الاتحاد السوفييتي عن سورية، بيد أنّ السوفييتيّين يعرفون الشعب السوري، المتعلّق بالحرية، وبلاده المشمسة ويحترمونها.

عندما انفجرت الحرب الدامية ضد الفاشية، هذه الحرب التي بذل فيها شعبنا لا الذهب فحسب، بل دماء أبنائه أيضاً، أدرك شعب سورية أنّ الاتحاد السوفييتي يقاتل لا في سبيل حريّته الخاصة واستقلاله الخاصّ فحسب، بل في سبيل حرية الشعوب الأخرى واستقلالها من بَعدُ. كانت مصائر العالم بأسره، لا مصير روسيا وحدها، تتقرّر في تلك الحرب.

وإنّ الأبطال الذين ماتوا في سبيل الحريّة يصبحون أعزّاء على الإنسانيّة بأسرها، دونما اعتبار للجنس أو القوميّة، واللغة أو لون الجلد.

حينما ظهر هذا الكتاب، رحتُ أتلقى رسائل من سائر أنحاء العالم. كان فتيان وفتيات من كوريا، وجنود من الصين، يكتبون إليّ. وكانت هذه الرسائل تتنفّس عبير الصدق والإخلاص، والتعلّق بالحقيقة، وتبرهن على أنّ أصدقاء بعيدين يقاسمونني ألمي، وأنّ القدوة المشعّة لولدَيْ الشهيدَين تدفعهم إلى انتصاراتٍ جديدة في النضال من أجل حريّة بلادهم واستقلالها.

وثمّة رسائل من سورية بين الرسائل التي تلقيتها خلال هذه السنوات الأخيرة من إنكلترا، وفرنسا، والهند، والبلدان الأخرى. إنّ اسمَيْ زويا وشورا معروفان من الشباب والشابات العرب. وإنّه لأمرٌ عزيزٌ عليّ حتّى درجةٍ لا متناهية أن أعرف أنّ كتابي يُترجَم، في هذا الحين، إلى اللغة العربية.

لأحبّ أن تعرف الشبيبة السورية كيف نشأ ولداي وكيف تثقّفا منذ نعومة أظفارهما. إنّ مسقط رأسيهما، والمدرسة، والعائلة، والكتاب، هذه الأشياء جميعاً علَّمتهُما أنّ يحبّا الوطن الأم. لقد كانا يعرفان، وهما صغيران بعد، أن واجبهما الأوّل هو الدفاع عن شرف شعبهما وحريّته، واحترام الشعوب الأخرى في الوقت عينه. ودلّلا على ذلك بحياتهما القصيرة الشريفة. لقد قضيا في المعركة ضد الفاشية، مثلهما مثل آلاف الفتيان والفتيات الآخرين، لكن اسمَيْهما، والصنيع الرفيع الذي حقّقاه، لم تُنسَ: إنها تحيا!

إذا عرف قارئنا السوري البعيد، بعد مطالعة هذا الكتاب، بلادَنا وشعبنا بصورة أفضل من قبل، فسوف أكون فائقة السعادة إذن. إنّ الشعب السوري الذي فاز باستقلاله وهو يدافع عنه بحزمٍ، هذا الشعب الذي يتمتّع بإحساسٍ رفيع بالكرامة، هذا الشعب الموهوب، المتعلِّق بالحرية، يعرف أنّ الحرية والشرف غنيّان عن السمات، جاهلان بالحدود، يطيران من بلدٍ إلى بلدٍ ويوحِّدان البشر بروابط الصداقة، والوحدة، والهدف المشترك الذي هو السهر على السلام في العالم بأسره.

إنّ زويا وشورا قضيا باسم السلام والحريّة. وباسم السلام والحرية يحيا الناس الشرفاء في سائر البلدان، يحيون ويعملون.

ألا فليكن هذا الكتاب مشاركة جديدة في القضية النبيلة، قضية الصداقة بين شعبَيْنا.

ل. كوسمودميانسكايا

المقدّمة

نيسان 1949. قاعة بلييل الفسيحة في باريس. مؤتمر المدافعين عن السلم. والمنبر مزخرف بأعلام الدول جميعاً. وخلف كلّ علم شعوب وبلاد، آمال بشريّة ومصائر إنسانيّة.

وكان العلم القرمزي لبلادنا، البلاد السائرة نحو الشيوعيّة. إنه يحمل المطرقة والمنجل، رمز العمل السلمي والوحدة الوثيقة بين أولئك الذين يعملون، ويشيدون، ويخلقون. كم من عيون، كم من قلوب تلتفت بثقة صوب الاتحاد السوفييتي ـ رجاء العالَم العامل ودعامته!

وكنّا، نحن أعضاء الوفد السوفييتي، نحسّ باستمرارٍ ذلك الحب الملتهب في قلوب أعضاء المؤتمر الآخرين. فقد استقبلونا بحرارة فائضة، ورحّبوا بنا بغبطةٍ ودود! وكانت كلّ نظرةٍ، وكل هزّة يدٍ، يلوح أنها تقول: «نحن نثق بكم، نحن نعتمد عليكم. وأبداً لن ننسى ما صنعتم».

ما أوسع العالم! لأنت تشعر بذلك بقوة جارفة، في هذه القاعة الفسيحة الشاهقة، إذ ترنو إلى تلك الوجوه البيض، والصفر، والغامضة اللون، وجوهٌ من مختلف الظلال والألوان ـ المراوحة بين الأبيض الحليبي والأسود الفاحم. ألف رجل وامرأة من كلّ زاوية من زوايا الكرة الأرضيّة تآزفوا هاهُنا ليتحدثوا دفاعاً عن السلم، دفاعاً عن الديمقراطيّة والسعادة.

تطلّعت في أرجاء القاعة. ثمّة كثرة من النساء. وجوههن تنبض بانتباهٍ لهوفٍ. ولا عجب، فنداء السلم يدفُّ من جميع بقاع الكرة الأرضيّة، وفيه ينطوي رجاء كلّ زوجة وكل أمّ.

ما أكثر ما سمعت هاهُنا من أقاصيص عن أناس ضحّوا بحياتهم لكي يهزموا الفاشيّة، لكي تنتهي الحرب الأخيرة بانتصار النور على الظلمة، بانتصار ما هو نبيل سامٍ على ما هو خسيسٌ وضيع، بانتصار الإنساني على اللاإنساني!

ولمن المؤكد أنّ دماء أولادنا لم تُرَقْ عبثاً. ولمن المؤكد أنّ السلم الذي ربحنا بثمن حياة أولادنا ودموعنا ـ دموع الأمّهات والأرامل واليتامى ـ لن تفنيه مرة ثانية قوى الشر الكريهة.

وخطا عضو وفدنا ألكسي ماريسييف(1) بطل الاتحاد السوفييتي صوب المنبر، فحيّته عاصفة من التصفيق. إنّ ألكسي ماريسييف هو، بالنسبة إلى سائر الحاضرين، التجسّد الحي للناس الروسيِّين، لبأسهم وعزمهم، لشجاعتهم المتفانية وجَلَدهم واحتمالهم. وشعر الجميع أنّ مصيره البطوليّ كان تعبيراً عن سجايا الشعب الروسي النبيلة، هذا الشعب الذي أنقذ العالم والمدنيّة من البربريّة الفاشيّة.

ورنّت كلمات ألكسي ماريسييف عبر القاعة:

«يتحتّم على كلّ واحد منّا أن يتوجَّه بالسؤال إلى نفسه قائلاً: «تُرى، ماذا أفعل اليوم دفاعاً عن السلم؟». ليس ثمّة اليوم عمل أشرف، وأنبل، أو أعظم من الدفاع عن السِّلم. إنه واجب الجميع».

أصغيتُ إليه، وساءلتُ نفسي: ماذا أستطيع أن أفعل اليوم في سبيل قضية السلام؟ وأجبتُ نفسي: أجل، أستطيع، بدوري، أن أقوم بنصيبي. لسوف أروي قصة ولديَّ. أجل، هذا الولدان اللذان خُلقا للسعادة، والفرح، والعمل السلمي، واللذان سقطا في النضال ضد الفاشيّة، دفاعاً عن حرية شعبهما، وعن الاستقلال والسعادة. أجل، لسوف أُخبِر عنهما...

(1) بطل رواية «قصة رجل حقيقي» لبوريس بوليفوي ـ (المترجم).

غابات الرّجاج(2)

إلى الشمال من منطقة طامبوف تقوم قرية تدعى «أوسينوفيي جاي»، وهذا الاسم معناه غابات الرجّاج... وقد درج الشيوخُ على القول إنّ غابات كثيفة كانت تنمو في تلك المنطقة قبل زمن بعيدٍ بعيد. لكنه لم تكن، حين كنتُ طفلة بعد، أيّة إشارة تنبّئ عن وجود أية غابة حتّى مسافة تترامى إلى أميال وأميال فيما حولنا، بل إنّ حقول الجاودار والشوفان والذرة تنتشر على فسيح البصر بدلاً من ذلك... وكانت الأرض القريبة من القرية نفسها مثلَّمة بالأخاديد والحفر. وكانت هذه الأخاديد والحُفر تزداد في كلّ عامٍ عرضاً وعدداً، فيؤتى للجميع أن الأكواخ المبعثرة المتناثرة على حافة القرية ستتدحرج سريعاً وتهوي حتّى قدميّ المنحدرات الوعرة الوافرة... وفي فصل الشتاء، كانت ذئاب السُّهْب الساغبة تتربَّصُ في تلك الأخاديد... وكنت أفرّقُ كثيراً من بُراح البيت في ليالي الشتاء الأرِزَة، فكل شيء جامد، والثلج، الثلج في كلّ عطْفة، وصيحات الذئاب تدقّ من المنتأى، أحقيقةً كانت أم وهمية...

لكن، ما أجمل وأبدع التبدّل الطارئ على البلاد إبّان الربيع!

المروج المتفتِّقة تويجات براعمها تتدثر بخضرةٍ نيِّرة حنون، وفي كلّ بقعة ومرتفع تتضوأ رياض الورود وتبرق، قرمزيّة، زرقاء، ذهبية... فتستطيع، يومذاك، أن تحمل معك إلى البيت طاقات وأضاميم من الأقحوان، والعنبر، ونبات الأجراس الزرق.

كانت قريتنا على شيء من الاتساع، يقطنها حوالي خمسة آلاف حيّ... إنّ حفنةً من الأرض لا تقوى على إطعام عائلة فلّاحين فقيرة، ولذا نزح عن كلّ كوخٍ في القرية تقريباً إنسانٌ يسعى إلى الحصول على لقمة العيش إمّا في طامبوف، أو بنزا، أو حتّى في العاصمة موسكو...

ونشأتُ وترعرتُ في أحضان أسرة كبيرة ودودٍ مُحِبَّة... وكان والدي، تيموفي سيميونوفيتش شوريكوف، كاهناً ريفياً، ورجلاً غير ذي ثقافة رسمية يمكن أن يتحدث عنها أو يفاخر بها، بيد أنّه يستطيع الكتابة، ويحبّ أن يقرأ كثيراً. كان يحب الكتب ويعشقها، وهو يستشهد دائماً بما قرأ في مناقشاته...

كان يقول:

ـ ومع ذلك، فثمة كتاب قرأته يبحث في الأجرام السماوية بطريقة تختلف كلّ الاختلاف...

ظللتُ أغدو إلى مدرستنا المحلية طيلة ثلاث سنوات، وفي عام 1910 صحبني والدي إلى مدرسة البنات التكميليّة في مدينة كيرسانوف الصغيرة... ولئن انقضى قرابة أربعين عاماً على ذلك، فما برحتُ أذكر كلّ شيء هنالك حتّى أدقّ تفاصيله، وكأنّه لما يحدث سوى البارحة، والبارحة فقط!

كان بناء المدرسة ذو الطابقين يثير إعجابي ودهشتي ـ ليس في غابات الرجّاج ما يُقارن بهذا البناء! دلفتُ إلى بهو المدخل وأنا أشدُّ على يد والدي، ثمّ توقّفت حائرةً مضطربة... كان كلّ شيء غريباً عليَّ، غير متوقّع البتة: هذا المدخل الفسيح الرحب، والأرض الحجريّة، والدرج العريض بدرابزونه الحديدي... وكان ثمّة عدد غير قليل من الفتيات اللواتي قَدِمْنَ برفقة آبائهنَّ وأمهاتهنَّ... وكنَّ اللائي بعثن فيَّ الاضطراب أكثر من أي شيء آخر، حتّى أكثر من هذه الأشياء المحدقة بي من كلّ ناحية وصوب، والتي تلوح لي كثيرة الأبّهة عظيمة الروعة.

كانت كيرسانوف سوقاً إقليمية للتجار، فلا تكاد تجد بنات فلّاحات على الإطلاق بين الفتيات اللائي أتين، مثلي، ليجتزن الامتحانات... وإنني لأتذكر فتاة كانت تبدو ابنة تاجر حقيقي، سمينة، متورّدة، ذات أربطة بيض وزرق تشتبك في جدائل شعرها الطويل... تطلَّعتْ إليَّ باحتقار، ثمّ دلدلتْ شفتيها واستدارت عني... التصقت بوالدي بقوة، فمسح على رأسي، وكأنّه يريد أن يخاطبني:

ـ لا تخجلي، يا عزيزتي، سيسير كلّ شيء على خير ما يُرام!

ومن ثمّ رقينا الدرج، وشرعوا ينادوننا إلى غرفة مترامية الجنبات، حيث ثلاث فاحصات جالسات خلف طاولة... ولتؤاتيني الذاكرة بأنني أجبتُ على جميع الأسئلة الموجهة إليَّ، ومن ثمّ تناسيت خوفي وجزعي، فجعلت أتلو بعض مقاطع من قصيدة بوشكين «الفارس البرونزي»...

* * *

كان والدي ينتظر أوبتي في الطابق السفلي... ركضتُ إليه، مجنونةً فرحاً وسروراً... وإذ وثب لملاقاتي، فقد أضاء وجهه بالسعادة والغبطة.

وهكذا بدأتُ أيامي في المدرسة التكميلية... ولأتذكر اليوم تلك الأيام المواضي، يراودني شعور عميق من الامتنان وعرفان الجميل.

كنا ندرس الرياضيات على يد الأستاذ أركادي أنيسيموفيتش بيلوزوف، الذي جعل موضوعه نابضاً بالحياة باعثاً على الاهتمام. وكانت زوجه، إيليزافيتا آفاناسييفنا، تعلِّمنا اللغة الروسية والأدب.

كانت، أبداً، تدخل غرفة الدرس بشوشة الوجه طلقة المُحيَّا ـ ولم يكُ سبيلٌ إلى مقاومة تلك الابتسامة ـ فهي فائرة الحياة، كثيرة الفتوة، فائقة الجاذبيّة! وتجلس إيليزافيتا آفاناسييفنا إلى طاولتها، وتختطف نظرة واحدة تغمرنا بها جميعاً، ثمّ تشرع تقول من دون أيّة مقدّمات:

«لقد أراقت الغابة ثوبها الأرجواني...»

كان يمكن أن نهب لها آذاننا أبد الدهر... فهي تقصُّ حكاياتها بأسلوبٍ رائع، فتنسى نفسها، وتروح تُشرِقُ في جمال كلماتها المنسابة الحلوة. كانت تعرف كيف تحسر اللثام أمام عيوننا عن تلك القوة المحرّكة الفيّاضة في الأدب الروسي، وعن إنسانيّته العميقة، وعن الأفكار والإحساسات النافخة فيه الحياة والإلهام.

وإذ كنت أسمع إلى إيليزافيتا آفاناسييفنا. فقد تحقَّقتُ أنّ عمل المعلِّم فنٌّ عظيم لا يُضاهى... فلكي يُضحّي الإنسان معلّماً حقيقيّاً طيّباً ينبغي أن يضمَّ بين جنبيه قلباً حاراً، وفكراً صافياً، وأن يكون للأطفال محبّاً من دون ريب. كانت إيليزافيتا آفاناسييفنا تضمر لنا أعظم المحبة... لم تكن تُصرّح بهذا الحب، غير أنّنا نعرفه دونما حاجة إلى الحديث عنه ـ نحسُّه في كلّ لفتةٍ ترمينا بها. وفي تحفُّظها العميق حين تضع يدها أحياناً على كتف إحدى التلميذات. وفي الأسف الذي يتحايل على سيماها لمّا يكون نصيب إحدانا الفشل... وطفقنا نهوى كلّ شيء فيها: شبابها، وجمالها، ووجهها المتأمِّل، ولطفها، وخلقها المستقيم، وحبها لعملها... وبعد ذلك بزمنٍ طويل، حين كنت أربِّي ولديَّ، كنت أستعيد على الدوام صورة معلمتنا المفضَّلة، وأحاول أن أخمِّن ما كانت ستقول لي، وكيف ستمحضني النصح في برهةٍ عسيرة تعترضني.

وما زلت أتذكر مدرسة كيرسانوف التكميليّة لسببٍ آخر. فقد اكتشف فيَّ معلم الفنون موهبةً للرسم. كنت أعبد الرسم وأحبّه حباً جمّاً، ولكنني أخاف أن أعترف، حتّى لنفسي، بأنني أحبُّ أن أ غدو فنانة... وقد عالنني سيرجي سيميونوفيتش بومازوف ذات مرة:

ـ ينبغي أن تدرسي... ينبغي بالضرورة أن تدرسي... فلديك موهبة تستحقُّ الاعتبار.

كان، مثله مثل إيليزافيتا آفاناسييفنا، مولعاً أشدّ الولع باختصاصه، ولم نكن نتعلَّم في دروسه قضايا الألوان والخطوط والنسب فحسب، بل كنا نتعلّم أيضاً ما يصنع روح الفن. وكيف ينبغي للإنسان أن يعشق الحياة ويتعلّق بها. وكيف ينبغي للمرء أن يتعلم رؤيتها في كلّ زاوية ومنحدر، في سائر تظاهراتها. وكان سيرجي سيميونوفيتش أوّل من عرّفنا إلى الآثار الرائعة للفنانين الواقعيّين: ريبين، سوريكوف، لوفيتان... كان يملك مجموعة ضخمة

تحوي صوراً منقولة عن آثارهم. ومنذ تلك الفترة وُلِدَ هوىً جديد في قلبي وهبَّ يعصف به: أن أسافر إلى موسكو وأزور معرض تريتياكوف للرسم.

ورغم حنيني إلى المثابرة على الدراسة بعد المدرسة التكميليّة، فقد تحقّقتُ من استحالة ذلك. كانت العائلة لا تقوى على القيام بأودها إلّا بصعوبة، فكان يتوجَّب عليَّ أن أمدّ يد المعونة إلى والديَّ. وهكذا، رجعت أدراجي بُعيدَ تخرُّجي من المدرسة التكميلية إلى غابات الرجّاج...

(2) نوع من شجر الحور.

حياة جديدة

بلغتني أخبار ثورة تشرين الأوّل ولمَّا أبرحْ في كيرسانوف. ويتوجب عليَّ الاعتراف أنّه لم يكن لديَّ، في ذلك الوقت، أيّ تفهُّمٍ واضح جليّ لما حدث... لكنني أتذكر فقط أنّ شعوراً عاماً من الفرح طغى على الجميع: إنّه عيد للشعب عظيم. كانت البلدة تضجُّ بالغبطة وتصخب، وأعلامٌ حمرٌ تخفق بها الريح وتلهو. وهؤلاء الناس البسطاء، والجنود، والعمال، يتحدثون في الاجتماعات. وكلمات جديدة مفعمة بالصدق والعزيمة ترنّ هنا وهناك: «حزب البلاشفة»، «السوفييتات»... «الشيوعية».

وحينما عدت إلى قريتي الأُم، توجّه إليَّ شقيقي الأكبر سيرجي، رفيق طفولتي وصديقي، قائلاً:

ـ إنّ حياة جديدة تبدأ، يا ليوبا! حياة موسومة بالجدَّة! لسوف أتطوع في الجيش الأحمر، إذ لا أقدر أن أبقى عاطلاً في مثل هذا الوقت!

كان سيرجي يكبرني بعامين، سوى أنّي كنت أبدو طفلة صغيرة بجانبه... وكان يعرف أكثر مما أعرف، فهو على علم أفضل بالحوادث الجارية. وكان في وسعي أن أرى أنّ قراره جدِّيٌّ لا رجوع عنه.

سألتُ:

ـ لكن، ماذا سأفعل أنا يا سيرجي؟

فأجاب شقيقي، من دون أدنى تردُّد:

ـ تصبحين معلِّمة، بالطبع! فالمدارس ستنبت الآن مثلما ينبت نبات الفِطر. لا تحسبي أنّ غابات الرجّاج ستكتفي الآن بمدرستين لخمسة آلاف مواطن! كلّ إنسان يريد أن يتعلم!

والناس لن يعيشوا بعد اليوم من دون علم.

وبعد يومين من وصولي، غدا أخي للالتحاق بالجيش الأحمر، ولم أضيِّع وقتاً، فأهرعتُ إلى جمعية تثقيف الشعب، حيث تسلَّمت منصباً في قرية سولوفيانكا كمعلّمة مدرسة ابتدائية.

كانت قرية سولوفيانكا تنأى قرابة ثلاثة فراسخ عن غابات الرجاج، وهي عبارة عن موطنٍ قذر يتألف من مجموعة أكواخ بائسة مغطاة بسقوف من القش.

ووجدت شيئاً من السلوى بعثه فيَّ بناء المدرسة ذاته، وقد كان ذات يوم منزلاً للعمدة، ينتصب عميقاً بين الأشجار على حدود القرية. كانت الأوراق قد تلوَّنت بالصفرة، ولكنَّ أغصان شجرة توت عِلّيق، تنهض قريباً من نوافذ المدرسة، تومض بمرحٍ وترحاب عظيمين بحيث لم أستطع سوى الاغتباط لمرآها... وتبيَّن أنّ المنزل فسيح، وفي حالٍ حسنة، يضمُّ مَطهى، وبهواً، وغرفتين خُصِّصْتُ بصُغراهما ذات النافذة المشبَّكة بالحديد. وضعت على طاولتها دفتر الملاحظات، وكتب الأحرف الأبجدية، ودفاتر الوظائف، والأقلام، ومسكات الريش، والريش، التي جلبتها معي، ثمّ وضعت زجاجة الحبر، وخرجت لنزهة في أرجاء القرية أسجِّلُ أسماء الفتيان والفتيات الذين في سنّ المدرسة.

قرعت أبواب الأكواخ جميعاً، الواحد بعد الآخر... وكان القوم ودودين جداً عندما أخبرتهم الهدف الذي أسعى إليه.

قالت عجوز بيِّنة الشيخوخة، فارعة القامة نحيلتها، ذات حاجبين كثَّين لاحا معقودين في غضب:

ـ إذن، أنت معلّمة؟ حسناً، امضي وعلِّمي. لكن تسجيل أسماء الفتيات مضيعة للوقت! فلا فائدة تُرجى من تدريسهنَّ، افتحي عينيك وأغمضيهما فإذا هنّ قد تزوَّجن ـ فما حاجتهنَّ إلى العلم إذن؟

إلّا أنّي ثبتُّ في موقفي بعزم وقلث، مردّدة كلمات شقيقي سيرجي ذاتها:

ـ عفا اللّه عن الأيام الغابرة! إنّ حياة جديدة تبدأ اليوم. ليحتاج كلّ إنسان إلى العلم!

وفي بكور اليوم التالي غصَّت غرفة الدرس بالتلاميذ والتلميذات. إنّ الثلاثين طفلاً الذين سجَّلت أسماءهم في اليوم السابق قد قدموا جميعاً.

في آخر الصفّ، قرب النوافذ، جلس الصغار المبتدؤون. وفي الصف الأوسط تلاميذ الدرجة الثانية. وفي الجهة المقابلة، قرب الحائط، اتخذ الكبار أماكنهم، وهم يبلغون الرابعة عشرة من العمر. ولم يكن ثمّة غير أربعة منهم فقط... وجلس على الدكة أمامي صبيَّتان صغيرتان، ذهبيّتا الشعر، زرقاوا العينين يعلو النمش وجهيهما، ترتديان فستانين من لونٍ واحد. كانتا أصغر الموجودين، تدعيان ليدا وماروشيا جليبوفا. ونهض الصبيان الأربعة المجاورون للحائط لتحيّتي، ومن ثَمّ حذا الآخرون حذوهم.

صاح الجميع بصوت متنافر الجرسْ:

ـ نعمت صباحاً، يا ليوبوف تيموفيافنا! مرحباً بك في سولوفيانكا!

فأجبتُ:

ـ نعمتم صباحاً، وشكراً لكم!

هكذا بدأ أوّل درسٍ لي، ومن ثمّ تتالت الأيام في أعقاب بعضها. كان يصعب عليَّ جداً تدبير أمور ثلاثة صفوف في وقتٍ واحد... فبينا كان المبتدؤون يخطُّون بجهدٍ ونشاط بعض الكلمات، والكبار يجمعون حاصل بعض الأعداد، كنت أقصُّ على الصف الأوسط كيف ينقلب النهار إلى ليل. ثمّ كان عليَّ أن أراجع نتائج الكبار، بينا تكون المجموعة الثانية منهمكة في درس القواعد. وفي أثناء ذلك، حينما يتعب المبتدؤون من إحصاءٍ وجمعٍ، كنت أعود إليهم، فنشرع بالقراءة، وهم يصيحون بمقاطع الكلمات بأعلى أصواتهم.

نسيتُ نفسي كليةً في عملي، فكنت أشعر بالسعادة والرضا مع تلاميذي، بينا الأيام تطير مسرعة من دون أن أنتبه لها. وقدم معلم من قرية مجاورة، عدة مرات، لزيارتي. كانت خبرته عظيمة حسب آرائي في ذلك الحين، في جعبته ثلاث سنوات كاملة من التدريس! كان يحضر فصولنا. ومن ثمّ يمحضنا النصح السديد، وكلما غادرنا توجَّه إليَّ قائلاً إنّ العمل يسير بصورة حسنة.

كان يوضح:

ـ إنّ الطلاب يحبّونك، وهذا هو الشيء الأساسي.

في البيت من جديد

درَّست في سولوفيانكا سنة واحدة. ونُقلت في بدء السنة الدراسية الجديدة إلى غابات الرجاج. أسفت لمغادرتي طلاب سولوفيانكا، فقد تصرّم علينا زمن أمسينا فيه أصدقاء أعزّاء. بيد أنّي اغتبطت لنقلي، فجميل أن أكون في البيت من جديد، أعيش بين أهلي وعشيرتي.

ولما قفلتُ إلى غابات الرجاج التقيتُ بصديق من أصدقاء الطفولة، توليا كوسمودميانسكي. كان في مثل سنّي، لكن يبدو أكبر مني كثيراً وأنضج. كان ينقصني الشيء الكثير من الجدّ وحكمة العالم إذا ما قورنت به. لقد خدم أناتولي بتروفيتش في الجيش الأحمر حوالي سنة، وهو اليوم مكلَّف بمكتبة غابات الرجّاج وغرفة مطالعتها.

وكانت الحلقة الدرامية تجتمع في قاعة المكتبة من أجل التمرينات التحضيريّة. كان شبان غابات الرجاج والقرى المجاورة، من طلاب ومعلمين، يستعدون لتمثيل مسرحية أوستروفسكي: «ليس الفقر خطيئة»... ولعبتُ أنا دور ليوبوف جوردييفنا، ولعب أناتولي بتروفيتش دور ليوبيم تورتسوف. وكان، هو، مرشدنا ومخرج مسرحيتنا. كان يشرح لنا الأمور عادة ببشاشة طلقة واهتمام بعيد، فإذا شرع أحدنا يخلط بين الكلمات أو يحرِّف فيها، أو يرفع رأسه عالياً بصورة مباغتة، يحملق بعينيه ويلوّح بذراعيه، فقد كان أناتولي بتروفيتش يقلِّده بمهارة، لكن من دون ضغينة أو خبث، حتّى يبرأَ الهاوي السيّئ الحظ إلى الأبد من رغبة السير بعجرفة على خشبة المسرح. كانت ضحكته عالية، جذلانة لا تُردَع ـ أبداً لم ألتقِ بإنسانٍ له مثل هذه الضحكة العذبة الصادقة!

وما أسرع أن تزوَّجنا، أناتولي بتروفيتش وأنا، فانتقلت إلى حيث يسكن آل كوسمودميانسكي... كان أناتولي بتروفيتش يقطن مع أمّه ليدا فيودوروفنا، وأخيه الأصغر فيديا... وكان أخوه الآخر، ألكسي، جندياً في الجيش الأحمر.

حييت مع أناتولي بتروفيتش حياة سعيدة رخية. كان رجلاً هَدْواً، لا يُسرف في الكلمات الرقيقة، وكنت أحسُّ في كلّ نظرة وفي كلّ حركة يقوم بها اهتمامه الدائب بي، وكنا نتفاهم بكلمة واحدة. ولشدّ ما كان سرورنا جارفاً لمَّا علمنا أنّنا سنصبح والدين.

ـ لسوف يكون صبيّاً بكل تأكيد!

قرَّرنا هذا، وشرعنا نفتش له عن اسم، ونخمِّن ما يسكون مستقبله...

كان أناتولي بتروفيتش يحلم بصوت عالٍ:

ـ فكِّري فقط، لكم هو عظيم أن تُطلعي طفلاً للمرة الأولى على النار، وأن تريه نجمة، وعصفوراً، وأن تذهبي به إلى الغابات، إلى النهر، ومن ثمّ إلى البحر، وإلى الجبال... فكّري فقط، وكل هذا للمرة الأولى!

ومن ثمّ هلَّ على الوجود وليدُنا...

قالت لي العجوز التي كانت تُعنى بي:

ـ تمنيّاتي الحارّة لابنتك، يا ليوبوف تيموفييفنا... ها هي ذي تعلن عن نفسها.

ورنّ في الغرفة صوت صراخ وبكاء...

مددتُ ذراعيَّ، فأروني طفلة رقيقة، ذات وجه أبيض صغير، وشعر أسود، وعينين زرقاوين. وفي تلك اللحظة نسيت أنني حلمت بصبيٍّ، وتأكدت أنّني كنت أريد على الدوام وأتوقَّع مولد صبيّة، هذه الصبيَّة بالذات.

قال أناتولي بتروفيتش:

ـ فلنسمِّها زويا.

فوافقت...

وكان ذلك في الثالث عشر من أيلول عام 1923.

طفلتي

قد يبدو للناس، الذين لم ينجبوا أطفالاً قط، أنّ الوِلْدان يشبهون بعضهم بعضاً كلّ الشبه: هم لا يدركون شيئاً على الإطلاق، وكل ما يعرفون هو كيف يبكون، ويصيحون، ويقفون حجر عثرة في سبيل من يكبرونهم سناً... وهذا غير صحيح من دون ريب. فأنا على يقين أنّ في مكنتي معرفة طفلتي بين ألف وليد، وأنّ لوجهها تعبيره الخاص، وأنّ في عينيها شيئاً خاصاً بهما تماماً. وأنّ صوتها يختلف كلّ الاختلاف عن أي صوت آخر. كنت أستطيع أن أراقب، طيلة ساعات، لو كنت أملك الوقت فقط، كيف تغفو، وكيف تسحب يدها الصغيرة من تحت الخِرَق التي لففتها فيها بشدة وهي تبخبخ في نومها، ثمّ كيف تفتح عينيها وتتطلع إلى الأمام منها باستقامة، من تحت أهدابها الكثّة الهدباء.

ومن ثمّ ـ لشدَّ ما كان ذلك رائعاً! ـ شرع كلّ يوم يحمل في طيّاته شيئاً جديداً، فيلوح لي أنّ الطفلة تنمو في الحقيقة وتتغيّر، ليس «من يوم إلى يوم»، بل من ساعة إلى ساعة، إنّ هذه الطفلة الصغيرة لتتوقف آناً عن البكاء، حتّى في وسط عاصفة من الصياح، عندما تسمح صوت إنسانٍ ما... وهي تلتقط، آناً آخر، حتّى أرقَّ الأصوات، فتدير رأسها في اتجاه ضربات الساعة. وهي تروح تنقل نظراتها، آونة أخرى، من والدها إليَّ، فإلى جدّتها، فإلى عمّها فيديا (بعد مولد زويا، أمسينا نطلق هذا اللقب ساخرين على شقيق أناتولي بتروفيتش البالغ الثانية عشرة من العمر). ومن ثمّ أطلَّ يوم أضحت فيه صغيرتي تعرفني تمام المعرفة ـ كان ذلك يوماً سعيداً رائعاً سأظلُّ له ذاكرة إلى الأبد... كنت أنحني على مهدها. فترنو زويا إليَّ بانتباه، وتفكّر برهة ثمّ تفترُّ شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة مفاجئة. وراح الجميع يؤكدون لي أنّ هذه الابتسامة لا تحمل معنىً خاصاً، وأنّ الأطفال في مثل تلك السنّ يبتسمون للفرد مثلما يبتسمون للمجموع، وكنت أدري أنهم على خطأ وضلال...

كانت زويا شيئاً رقيقاً... وكنت كثيراً ما أغسلها... فهم يقولون في القرية إنّ الاستحمام يعجِّل نموّ الطفل. وكانت توضع في الفناء الحُرِّ أغلب الأحيان، ورغم أنّ الشتاء يطرق

الأبواب، فهي تنام في الخلاء ووجهها عارٍ من أي غطاء. ولم نكُ نحملها أبداً من دون سبب أو مبرّر، محتاطين من أن تعتاد ذلك - تلك كانت نصيحة أمي وحماتي ليديا فيودوروفنا. وقد اتّبعت مشورتها طائعة مختارة - ولربما كان هذا هو السبب في أنّ زويا تنام عميقاً طيلة الليالي، من دون أن تتطلّب شيئاً من التدليل أو العناية. وكانت تترعرع بهدوء وسكينة... وكان العم فيديا يجيئها أحياناً، ويقف فوق مهدها ويقول:

- زويا، قولي عم...مي! هيا! قولي أمـ...مي، أ...بي!

ويتبسَّم إنسانٌ عينه ابتسامة عريضة ويتمتم شيئاً مُلْتَبساً غير مفهوم. ولم تنقضِ حقبة من الزمن حتّى بدأت تردِّد بعده، بِحَيْرَةٍ بادئ ذي بدء، ثمّ بوضوح شيئاً فشيئاً: «بابا»، «ماما»... وأنا أتذكر أنّ الكلمة التي تفوّهت بها بعد «ماما» و«باب» كانت كلمة غريبة: «هَبْ»! كانت تقف على الأرض، شيئاً صغيراً صغيراً، ثمّ ارتفعت بغتة على رؤوس أصابعها وقالت: «هَبْ!» وقد خمّنّا فيما بعد أنها كانت تعني «ارفعوني عن الأرض»...

سنة مُرّة

الشيوخ أنفسهم تخونهم ذكرى مثل ذلك الشتاء القاسي! إنّ كانون الثاني ذاك ينحفر في ذاكرتي جليديَّ البرودة أسودَ اللون، إذ تغيَّر كلّ ما يحتفّ بي وارتدى حلّة كئيبة حين بَلَغَنا خبرُ وفاة فلاديمير إيليتش لينين. إنه لم يكن بالنسبة إلينا قائداً وإنساناً عظيماً غير عادي، بل صديقاً عزيزاً وناصحاً أميناً لكلّ فردٍ منا... وإنّ كلّ شيء يحدث في قريتنا، أو حتّى في بيوتنا، ليمتُّ إليه بصلة: إذا حدث لنا شيء صالح، فلينين يقف وراءه... هكذا كان شعورنا جميعاً.

كان لنا من قَبْلُ مدرستان فقط، أمّا الآن فلنا عشر ـ إنّ لينين فعل ذلك. وكان الناس، من قبل، قد درجوا على العيش فقراء جياعاً، وهؤلاء هم اليوم أصبحوا أقوياء وهبّوا يعيشون حياة جديدة كلّ الجدّة. ومَن نشكر غير لِينين من أجل هذا كله؟ كنا نشاهد أفلاماً. وكان أساتذة، وأطباء، ومهندسون زراعيّون منهمكين في تثقيف الفلاحين وتعليمهم. وكانت قاعات المطالعة و«بيت الشعب» مملوءَة بالناس. والقرية تمتد بسرعة وتتسع، بينا الحياة قد أضحت أكثر تلألؤاً وأطفح سعادة. وأمثال أولئك الذين لا يعرفون أحرف لغتهم فتعلّموها. وأولئك الذين درسوا القواعد يفكّرون في التعمّق في دراساتهم أكثر فأكثر. من أين جاء هذا كله؟ مَنْ جاءنا بهذه الحياة الجديدة؟ الجميع يجيبون عل هذا السؤال جواباً واحداً، ألا وهو اسم واحد عزيز مجيد: لينين.

وفجأة، لم يعد مِنْ هذا الوجود. إنّ الفكر ليأبى تصديق ذلك.

وفي كلّ عشيّة، كان الفلاحون يطلبون أناتولي بتروفيتش كي يتقاسموا ذلك الحزن المرّ الذي يفعم قلوبهم جميعاً على حدٍّ سواء.

قال الشيخ ستيبان كورتيس:

ـ أن يفكِّر المرء بأنّ مثل هذا الإنسان يموت...! لأتمنَّى أن يعيش إيليتش مائة من الأعوام، ولكنه مات...

وفي شهر شباط عام 1924 وصلت إلى غابات الرجّاج نسخة من صحيفة «البرافدا» وفيها نصّ الخطاب الذي ألقاه الرفيق ستالين في المؤتمر العام الثاني للسوفييتات. وقرأ أناتولي بتروفيتش الصحيفة بصوتٍ عالٍ في غرفة مطالعة القرية. كانت الغرفة غاصّة بالناس الذين وجدت كلّ كلمة من كلمات ستالين في قلوبهم صدىً عميقاً.

وما انتهى أناتولي بتروفيتش، حتّى راحت الصحيفة تدور على الجميع: فكل إنسان يريد رؤيتها بعينيه، يريد لمس تلك الصحيفة التي طُبعت فيها الكلمات الصريحة الجريئة، كلماتِ قَسَمِ ستالين على إنجاز وصيّة لينين.

وبعد مضيّ عدة أيام أطلّ على غابات الرجاج عامل يدعى ستيبان زابابورين، وكان هذا العامل مرة راعي الغنم في القرية. وروى لنا كيف انحدرت الجموع من أطراف البلاد كي تودّع لينين الوداع الأخير.

قال:

ـ كان الصقيع يجمِّد الأنفاس، والليل قد أرخى سدوله خارجاً، لكن مجيء الناس لم ينقطع. لم يكن له نهاية. وقد اصطحبوا معهم أولادهم أيضاً كي يروه للمرة الأخيرة.

وهمس أناتولي بتروفيتش حزيناً:

ـ لكنّنا لن نراه، وزويا لن تراه أيضاً.

لم نكُ ندري يومذاك أنّ ضريحاً عظيماً سوف يُشيَّد قرب أسوار الكرملين حيث يستطيع الناس أن يجيئوا ويروا لينين.

واحتفظتُ بالصحيفة التي كتَبَتْ قَسَم ستالين، وقلتُ في نفسي:

ـ عندما تكبر طفلتنا، فسوف تقرأها!

ولدي

كان أناتولي بتروفيتش يهوى الجلوس إلى الطاولة وزويا على ركبته... كان يقرأ عادة وقت الغداء، فتجلس ابنته على ركبته صامتة ساكنة، مريحة رأسها على كتفه، من دون أن تزعجه أو تضايقه قط.

كانت لمَّا تزلْ صغيرة غضة... وقد بدأت تسير منذ شهرها الحادي عشر. وأحبّها الجميع لأنها أنيسة وديعة... وحين كانت تجتاز بوابة الدار تبتسم للمارّة، فإذا ما خاطبها أحدهم مازحاً: «تعالي، يا زويا، لزيارتي»، فهي تمدُّ له يدها مسرورة وتتبع زميلها الجديد.

ولمّا بلغت زويا الثانية من عمرها كانت تتكلم بطلاقة، وتحبّ بكل بساطة التحدُّث عن جميع الأشياء التي يقع بصرها عليها عندما تعود من زياراتها.

ـ لقد كنت لتوِّي عند بتروفنا... هل تعرفين بتروفنا؟ إنّ هناك جاليا، وكسانيا، وميشا، وسانيا، والجدّ العجوز، وبقرة. وهنالك بعض الخراف أيضاً... وقد تواثبت أمامي!

لم تكن زويا تجاوزت الثانية بَعْدُ وقتما وُلد أخوها شورا... وأهلَّ ولدنا على الوجود صارخاً صاخباً من قمّة رئتيه... كان يصيح بصوت عميق أجشّ، ثابت ولجوج... كان أكبر من زويا وأقوى بنية، لكنّه يملك العينين البرّاقتين نفسهما، والشعر الأسود عينه.

وكثيراً ما كنّا نقول لزويا، بعد مولد شورا:

ـ أنت أكبر سنّاً. أنت بنت كبيرة!

كانت تجلس إلى الطاولة مع الكبار، إنما على كرسيّ مرتفع... واعتادت أن تعامل شورا بلطف، فتعطيه دميته إذا ما أسقطها، وتهزّ مهده إذا ما استيقظ وليس في الغرفة أحد سواها. وقد شرعتُ الآن أطلب إليها مساعدتي في بعض الأعمال.

كنت أقول لها:

ـ زويا، هاتي لي منشفة. ناوليني قدحاً، من فضلك.

أو كنت أقول:

ـ حسناً، يا زويا، ساعديني في التنظيف: ضعي الكتاب جانباً، ردّي المقعد إلى مكانه.

وكانت تنجز ذلك كله بإرادة طيّبة، ومن ثمّ تسأل:

ـ أثمّة شيء آخر يمكنني القيام به؟

وحدث مرّة، وكانت في الثالثة بينا شورا يدبّ نحو عامه الثاني، أن أمسكت به من يده، والتقطت قنينة، ثمّ مضت إلى جدتها طلباً للحليب.

ولأذكر أني كنت أحلب البقرة مرة. وشورا يخبُّ حواليَّ. وزويا منتصبة تنتظر الحليب الطازج وقد حملت قدحاً في يدها. وفجأة، موَّجت البقرة، التي أزعجتها ذبابة طائرة، ذيلَها، وضربتني به بعنف. فوضعت زويا القدح بسرعة، وحملت غصن شجرة طفقت تطرد الذباب به، وهي تقول:

فيمَ ضربتِ أمي؟ إياك والتجاسر على ضرب مامي!

ثمّ تطلّعت إليَّ، وأضافت:

ـ إنني أساعدك!

كان الاثنان مزيجاً يبعث على السخرية ـ زويا غضة الإهاب صغيرة، وشورا سمين سمج...

وكانوا يقولون في القرية حين يتحدثون عن شورا:

ـ لقد أنجبت معلمتنا ولداً يساوي طوله عرضاً، فارتفاعه وهو متجوِّرٌ على الأرض مثله وهو منتصب عليها.

وفي الحقيقة، كان شورا فتىً بديناً، يتفوَّق على زويا قوة منذ كان في شهره الثامن عشر. لكنَّ هذا لم يمنع زويا من العناية به فكأنه أضعف منها بنيةً، ولا من الصياح به أحياناً بصوت صارم.

وبدأت زويا تتكلم منذ طفولتها الباكرة. أمّا شورا فلم يستطع لفظ «الراء» حتّى بلغ عامه الثالث. وهذا ما سبَّب لزويا ألماً شديداً.

ـ والآن، يا شورا، قُلْ: «مَطَرْ».

فيردّد شورا:

ـ مَطَغْ!

ـ لا، ليس هكذا! قل «رَمى».

ـ غَمَى!

ـ ليس «غمى»، وإنما «رمى»! يا لك من طفل أحمق! حاول ثانية، قل: «ركَض».

ـ غكض!

ـ «أمير».

ـ أميغ!

وحدث مرة أنّ نفد صبر زويا، فضربت أخاها على جبهته. غير أنّ التلميذ البالغ الثانية من العمر كان يفوق معلمته البالغة الرابعة من العمر قوّةً وبأساً: فهزّ رأسه حانقاً غضبان، ودفع

زويا بعيداً عنه.

صاح ساخطاً:

ـ ابقي بعيدة، وكفانا قتالاً!

فشخصت إليه زويا بدهشة، وهي تزدَرِدُ دموعَها. وسمعتها بعد دقيقة من الزمن تقول:

ـ والآن، قلْ: «عصفور دوري»...

ـ عصفوغ دوغي.

لست أدري ما إذا كان شورا قد وعى أنّه طفلنا الأصغر، ولكنه سعى منذ يومه الأوّل كي يستفيد من هذا الواقع الفائدة كلها. كان يقول مدافعاً عن نفسه:

ـ أنا صغير...

وهو يعاند إذا لم يُعْطَ شيئاً يحنُّ إليه... كان يعلن بزهوٍ أحياناً، من دون أي سبب على الإطلاق: «أنا صغير»، وإن كان مدركاً الإدراك كله حقوقه الخاصّة وعدالة قضيته... كان يعرف أنّنا نحبّه كثيراً، فيريد أن يخضع الجميع، زويا وأنا والأب والجدة، لمشيئته وإرادته.

كان يكفي أن يستمطر شؤون عينيه حتّى تقول جدّته:

ـ مَنْ جرح شعور صغيري شورا؟ تعال إليَّ بسرعة، يا عزيزي! أُنظُر ماذا حملت لصغيري!

وكان شورا، وابتسامة سعيدة خبيثة تطفو على وجهه، يتسلق ركبة الجدة فرحاً...

وإذا ما مُنِع شيءٌ عنه، فهو يرتمي على الأرض، ويروح يعول بصوت أصمّ، ضارباً الأرض بقدميه، أو نائحاً بشكوى، وكل شيء فيه يقول بكل وضوح:

ـ هأنذا، الصغير المسكين شورا، وليس من يحنو عليّ. وليس من يشعر بالأسف من أجلي.

وحدث ذات مرة، وكان شورا قد انطلق في صياحه وبكائه، طالباً إعطاءه بعض المربَّى قبل الغداء، أنا غادرتُ وأناتولي بتروفيتش الغرفة... وهكذا بقي شورا وحيداً... استمرّ في بكائه بصوت مرتفع بادئ الأمر، صائحاً من وقت لآخر: «أعطوني مربَّى! أريد مربَّى!»، ومن ثمّ قرّر، على ما يظهر، ألّا يضيّع هذا العدد الكبير من الكلمات، فصار يصيح ببساطة: «أعطوا! أريدا!». ولم ينتبه، أثناء صراخه وزعيقه، إلى أنّنا تركنا الغرفة وخرجنا، ولمَّا أحسّ بالسكينة حوله، رفع رأسه، وشخص حواليه، وكفَّ عن البكاء: ما جدوى البكاء إذا لم يكُ ثمّة من يستمع إليه؟ وأعمل فكره برهة، ومن ثمّ طفق يُعمِّر شيئاً من مجموعة أغصان مبعثرة...

عندئذٍ قفلنا أدراجنا إلى الغرفة. ولم يكد يرانا حتّى انخرط في البكاء مرة ثانية، ولكن أناتولي بتروفيتش توجَّه إليه قائلاً:

ـ إذا تابعت عويلك فسنغادرك وحيداً، ونرفض العيش وإياك، فاهم؟

وكان أن صمت شورا...

وفي مرة ثانية انثال يبكي ويسترق النظر إلينا من خلال أصابعه المتباعدة عن بعضها ليرى إن كنّا نعطف على دموعه... ولكنّنا لم نُعِرْه التفاتاً: فأناتولي بتروفيتش يتابع قراءة كتابه، فيما أنا أرقِّم الدفاتر... وعندئذٍ تسلّق شورا بهدوء ركبتي وكأنّ شيئاً لم يحدث... فعبثت بشعره، ومن ثمّ أرجعته إلى الأرض وعدت إلى متابعة عملي... ولم يزعجني شورا بعد ذلك على الإطلاق. فتانك الفرصتان قد أبرأتاه تماماً: لقد انقطع الصياح والخبث منذ منعنا عنه حِلْمَنا وتساهُلَنا.

كانت زويا مولعة كلّ الولع بشورا... وما أكثر ما كانت تردّد بجدْ الكلمات التي كانت تسمع الكبار يتفوّهون بها: «لا فائدة من إفساد الطفل، فليبكِ، فلن يتأتى من هذا ضرر عظيم...».

كانت هذه الكلمات ترنُّ باعثة على الضحك، وهي تنحدر من بين شفتيها... ولكنّه إذا صادف أن بقيت وحيدة مع أخيها فهي توليه كلّ عناية واهتمام. فإذا وقع وانفجر باكياً، أسرعت إليه، والتقطته من يده، وحاولت أن تنهض صغيرنا السمين، ماسحةً دموعه بذيل ثوبها وهي تقول:

ـ لا تبكِ، أيّها الولد الطيب، أيها الفتى الرائع! خذ، إليك ألاعيبك... فلنبنِ سكة حديديّة. وهذه، إليك هذه الصحيفة! أتودّ مني أن أريك صورها؟ وَيْكَ، انظر!

والأمر الغريب أنّ زويا إذا استعصى عليها فهم أمر من الأمور، فهي تعترف بذلك سريعاً... ولكن شورا كان مغروراً بصورة غير مألوفة، فلسانه يأبى كلّ الإباء أن يلفظ هاتين الكلمتين: «لست أدري». وكان على أتمِّ استعداد للّجوء إلى مختلف الألاعيب والحيل حتّى يتجنّب الاعتراف بأن ثمّة شيئاً لا يعرفه، وأتذكر أنّ أناتولي بتروفيتش قد ابتاع مرة كتاب أطفالٍ كبيراً مزيناً بمجموعة رائعة جميلة من صور الحيوانات، والأشياء، والأحياء... ولقد كنت والطفلين نحب أن نتصفَّح ذلك الكتاب، فأشير إلى صورة ما وأسأل شورا: «ما هذا». فيسمِّي الأشياء التي يعرفها بسرعة، مسروراً فخوراً... لكن، أي شيء لم يكن يخترعه كي يتجنَّب إعطاء جواب ينمُّ عن جهله!

سألت مرة، وأنا أشير إلى قاطرة بخارية:

ـ ما هذا؟

فصعَّد شورا عدة تنهيدات، وبدا القلق على وجهه، وقال بغتة وعلى سيماه ابتسامة خبث مقتضبة:

ـ قولي أنت ما هذه؟

ـ وما هذه؟

فأجاب بسرعة:

ـ صوص.

ـ صحيح. وهذه؟

كانت صورة حيوان غريب مُبهم ـ جَمَل!

فترجَّى شورا قائلاً:

ـ أمَّاه، اقلبي الصفحة وأريني شيئاً آخرا!

ولكنني انتظرت لأرى ما هي المعاذير الأخرى التي سيخترعها...

قلتُ بدهاء، وأنا أشير إلى جاموس النهر:

ـ ما هذا؟

فردَّ شورا:

ـ دعيني أطعم أولاً، ومن ثمّ أخبرك!

وأخذ يمضغ طويلاً حتّى خيِّل إليَّ أنّه لن ينتهي من ذلك أبداً.

وقتئذٍ أريته صورة فتاة مبتسمة، ترتدي ثوباً أزرق ووشاحاً أبيض، وسألت:

ـ ما اسم هذه الفتاة الصغيرة، يا شورا؟

فأجابني شورا، وهو يبتسم ابتسامة مكر واحتيال:

ـ اسأليها بنفسك!

الجَدّة

كان ولداي يعشقان الذهاب لرؤية الجدّة مافرا ميخائيلوفنا. كانت تستقبلهما بحنان، وتدعوهما لتناول الكعك والحليب... ومن ثمّ كانت تجد بعض الدقائق الفارغة فتلعب وإياهما لعبتهما المفضَّلة: «الجزرة».

إنّ الجدّة تبدأ تقول، متفكرةً:

ـ لقد زرعت الجدة جزرة، وقالت لها: «هيا اكبري، أيتها الجزرة، وكوني حلوة، قوية وكبيرة جداً». ولقد نَمَت الجزرة كبيرة حلوة قوية، مدوّرة، صفراء اللون... ومضت الجدة لتقتلع تلك الجزرة: فشدَّت وشدَّت فلم تقلعها... (وهنا تريهما الجدة كيف شدّت النبتة العنيدة). وتدعو الجدة حفيدتها زويا (وهنا تتعلَّق زويا بثوب جدّتها). إنّ زويا تشدّ الجدة، والجدة تشدّ الجزرة. شدّا وشدّا، فلم يقلعاها. ونادت زويا شورا (وهنا يمسك شورا بزويا. إنّ شورا يشدّ زويا، وزويا تشدُّ الجدة، والجدة تشدّ الجزرة)، شدّوا، شدوا، (وهنا تضطرب عيون الصغيرين بارتقاب ما سيحدث... فقلعوها...).

ومن ثمّ كانت الجدة تجيء بتفاحة، أو فطيرة، بل جزرة حقيقية في بعض الأحيان وكأنّها خلقتها من العدم. ويتعلق الصغيران بمافار ميخائيلوفنا وهما يزعقان ويضحكان، وتقدّم الهدية لهما...

كان شورا يسأل، حتّى قبل أن يضمَّه البيت بين جدرانه:

ـ جدتاه، هي نقتلع الجزرة!

وبعد حوالي سنتين من ذلك، إذ يجرِّب شخصٌ ما أن يقصَّ على الصغيرين قصة الجزرة، ويبدأ حديثه بهذه الكلمات المعتادة: «لقد زرع الجدُّ جزرة»، يحتجَّان بقولهما: «الجدة هي

التي زرعتها! ليس الجدّ، بل الجدّة!».

كانت والدتي تكدح في عملها منذ فتحة عين الفجر حتّى إغماضها طوال حياتها. فمن خصوصياتها النهوض بأعباء الدار كلها ـ البيت، والحقل، وستة من الأطفال يجب العناية بملابسهم، واغتسالهم، وإطعامهم، وخياطة الثياب الكافية لهم. وكانت والدتي تحني ظهرها من دون أن توفِّر نفسها مطلقاً. وقد كانت تحدب علينا، نحن الصغار ومن بعدنا أحفادها، بعاطفة جيّاشة متسامحة. لم تكن تأمرنا بقولها: «احترموا من هم أكبر سنّاً منكم»، بل كانت تحاول جعل أفكارها واضحة جليَّة بالنسبة إلى الأطفال، جعل تلك الأفكار تبلغ أذهانهم وقلوبهم.

كانت تخاطب زويا وشورا:

ـ انظرا إلى هذه الدار التي نحيا بين حوائطها. لقد بناها قومٌ شيوخ. وها هو المُصطَلى الذي أنشأه بتروفيتش لنا، يا له من مُصطَلىً جميل! إنّ بتروفيتش عجوزٌ حكيم، وإنّ يديه لمن ذهب خالص! لستم تقدرون إلّا على احترام الكبار، أليس كذلك؟

كانت أمي طيّبة القلب جداً. ولأذكر، يوم كنت طفلة، كيف كانت تدعو أي متشرِّد تقع عيناها عليه ـ كان عدد هؤلاء الذين لا بيوت لهم يفوق العدَّ في تلك الأيام ـ وتدخل به إلى البيت، وتقدِّم له شيئاً يطعمه ويشربه، ثمّ تنفحه ببعض الملابس العتيقة.

وذات يوم، فتح والدي صندوق الثياب، ونقَّب فيه فترة طويلة، ومن ثمّ استفسر:

ـ أمّاه، أين قميصي الأزرق؟

فأجابت أمّي بِخُرْقٍ:

ـ هوِّنْ عليك، يا ابناه! لقد أعطيته لستيبانيتش!

وكان ستيبانيتش هذا فلّاحاً ذرَّفت به السنون، يعيش متوحداً، أضناه الألم وعذَّبه، لا يلتفت إليه إنسان. واعتادت أمي تموينه بين فترة وفترة، ومساعدته على قدر الإمكان.

أمّا والدي فقد أمسك ولم يَفُهْ بحرف...

وإن الذاكرة تؤاتيني الآن، بعد تلك السنين الطوال، فتخطر على صفحة ذهني صورة تلك المرأة الطيبة القلب، الجسور، العليلة، الصابرة، التي هي أمي.

ولأتذكر تلك الفترة التي سُرقتْ فيها بقرتُنا. وليس من يجهل أي شقاء كان ذلك بالنسبة إلى عائلة فلاحٍ قحّ. بيد أنّ أمّي لم تنبس بحرف عن ذلك الموضوع، ولم تذرف دمعة واحدة. وفي سنة أخرى ـ وما زلت أذكر ذلك بوضوح ـ أتت النار على مأوانا، فاحترق حتّى جذوره في التراب. كانت تلك ضربة قاصمة بالنسبة إلى والدي. فجلس على شجرة مقطوعة، يلوِّح بيديه يائساً قانط الفؤاد، وعيناه مثبّتتان في الأرض خاليتان من أيّ أمل.

قالت أمي مخاطبة:

ـ سنصلح كلّ شيء، يا أبتاه! لا تقلق!

وانتصبت إلى جانبه دقيقة من الزمن، ثمّ أضافت:

ـ هوِّن عليك، سنستعيد كلّ شيء!

كانت والدتي أميّة جاهلة بكل معنى الكلمة. ولقد بقيت حتّى وفاتها لا تُميِّز حرفاً من حرف، إلّا أنّها كانت تُقدّر الثقافة والعلم وتحترمهما. وإننا لمدينون لعنايتها إذا أصبحنا، نحن الأطفال، أناساً مثقَّفين: لقد أصرَّتْ على وجوب إرسالنا إلى المدرسة، ومن بعدها إلى المدرسة التكميلية.

كانت عائلتنا تقع في العوز كثيراً، ولأذكر الآن أنّ والدي قد بنى عزمه على إخراج سيرجي من صفّه الرابع في المدرسة التكميلية عندما ساءت الأمور كثيراً. ولكن والدتي رفضت أن

تسمع ذلك... وإذ انطوت على قرار تثقيف ابنها. فقد كانت مستعدة للقيام بأي شيء ـ أن تمضي إلى مدير المدرسة، وتذلّ نفسها، وتترجّاه كي يعلِّم ولدها على نفقة الحكومة.

وكان والدي يقول عابساً متجهِّم الطلعة:

ـ لا تميِّزين بين حرف وحرف، يا أمّاه، ومع ذلك فالأمور تسير معك على ما يرام.

فلا تناقشُ أمي أبداً، لكنها تصرُّ على رأيها...

وكانت تحبُّ أن تكرّر هذا القول:

ـ صَدَق الذين قالوا: «العلم نور، والجهل ظلمة!».

وكانت تعرف، من تجربتها الخاصة، مبلغ كثافة ظلمة الحياة بالنسبة إلى الذين لم يتلقُّوا ثقافةً البتة...

وكانت توصي زويا وشورا بقولها:

ـ عندما تذهبان إلى المدرسة، ادرسا جيّداً. وعندئذٍ تزدادان ذكاءً، وتتعلَّمان أشياء جديدة، وسيكون ذلك أفضل بالنسبة إليكما وإلى أهليكما.

كانت جدتي قصَّاصة رائعة، فهي ملمّة بالعديد من الأقاصيص، وفي استطاعتها سردُها من غير أن ترفع رأسها عن عملها: إنها تتابع الحياكة، أو تقشير البطاطا، أو عجن العجين، وهي تقصُّ طوال الوقت بهدوء، وكأنما هي تفكر بصوتٍ عالي الجرسْ:

«ركض ثعلبٌ في الغابة، وشاهد نقّار خشب على شجرة فقال: يا نقّار الخشب، يا نقار الخشب، لقد كنت في الغابات».

«ضب ـ ضب، ضب ـ ضب، هذا ما رأيت».

«يا نقار الخشب، يا نقار الخشب، لقد جئتك بمرسوم».

«ضب ـ ضب، ضب ـ ضب، هذا رأيي، هذا رأيي».

«أنتم، يا نقاري الخشب، يجب ألّا تجلسوا على الأشجار، بل تقفزوا طوال الوقت فوق المراعي...».

كانت زويا وشورا يجلسان جنباً إلى جنب على دكة واطئة لا يرفعان عيونهما عن الجدة. وكانت الجدّة تنهي قصة كي تبدأ قصة جديدة: عن الذئب الرمادي، وعن الدب الرقيق الأسنان، وعن الأرنب الجبان، وعن الثعلب الخبيث من جديد.

الأخ والأخت

لم يكن مسموحاً لزويا أن تعلب مع شورا إلّا قريباً من المنزل، داخل السور، حتّى لا تؤذيها الخيول أو الأبقار التي تمرح حرّة في المرج القريب. ولكنها تذهب برفقة الفتيات الأكبر سنّاً منها، مثل مانيا وتاسيا، إلى أبعد من ذلك بقليل، إلى الحقول، إلى النهر، وإلى الغدير الصغير الطروب، حيث تستطيع الاستحمام النهار بطوله من دون أن تساورك خشية من الغرق.

واعتادت زويا أن تزجي ساعات طويلة تصيد الفراشات بالشبكة، وتقتطف الأزاهير، ومن ثمّ تنطلق طلباً للاستحمام. بل لقد كانت ـ حينما أضحت في الخامسة من عمرها ـ تغسل بياضاتها في الغدير الرقراق، ومن ثمّ تنشرها في الشمس حتّى تجفّ، وتقفل إلى الدار تتأوَّد في ثياب نظيفة.

كانت تقول، وهي تحملق في عينيَّ:

ـ انظري، يا أميمَ! هل غسلتُ جيداً؟ أنت لست غاضبة، أليس كذلك؟

وأستطيع حتّى الآن أن أبصر وجهها الراقد في حلَّة أعوامه الخمسة، الموَّرد والملفوح بشعاعات الشمس، بعينيه الرماديّتين الصافيتين. إنّ زخَّة صيفيّة قصيرة قد مرَّت. وهذه الشمس تُشِعُّ الدفء من جديد، والريح تمسح السحب الأخيرة عن قبّة السماء الشامخة في عليائها، وتجرّها إلى الفضاء المترامي خلف الأُفق، وهذه قطرات ثقيلة تبلِّل الشجر، وزويا تخبّ إليَّ عبر تجمُّعات المياه الدافئة، تقهقه وتُطلعني كيف ابتلَّ فستانها...

وأستطيع أن أراها منطلقة إلى الحقل البعيد في عربة كسيحة تصرصر وتزقزق، يجرّها حصان عتيق يعدو خبباً وهو يهتزُّ ويترنَّح وكانت تعود جالسة على قمة حِمْلٍ عالٍ، وتأخذ تهزُّ العشب العابق الأريج وتنشره كي يجف خلف مخزن المحصولات. ثمّ تقفز وتتدحرج هنا وهناك على موجاته الناعمة، وحينما يحطّمها التعب أخيراً ويضنيها، تتكوَّم وتلتفُّ على

نفسها حتّى تشابه الكرة، وما أسرع أن يجاول النعاس جفنيها، فتستسلم له وتبخبخ في نوم عميق.

ولشدَّ ما كان تسلُّق الأشجار رائعاً يبعث على التسلية! أن تتسلّق عالياً جداً بحيث يبعث النظرُ إلى الأسفل الهلعَ في فؤادك، ويتوقف قلبك عن الخفقان عندما يصدف أن تلتقط غصناً هشّاً رقيقاً. ومن ثمّ تعود فتنحدر بحذر واحتراس، ملتمِّساً الأغصان بأصابع قدمك العارية، محاذراً ألّا تمزِّق ثوبك...

وأعذب من هذا وأبعثُ على الانشراح والغبطة أن تتسلق سطح مخزن المحصولات، أو قبّة الناقوس ـ نقطة المراقبة المفضَّلة عند أطفال القرية. إنّ القرية بأجمعها تمتدُّ إذن أمام باصرتَيك فكأنها على راحة يدك، وهنالك بعيداً: الحقول، الحقول المتنائية التي لا يقصيها البصر، والقرى الغارقة في المنتأى... وماذا وراء هذه القرى؟ بعيداً، بعيداً هناك؟

وحين ترجع زويا إلى البيت أخيراً، تقعد قربي وتستوضح:

ـ أمي، ماذا هناك وراء غابات الرجّاج؟

ـ قرية تدعى «المزارع السلمية».

ـ وماذا خلف هذه القرية؟

ـ سولوفيانكا.

ـ وبعد سولوفيانكا؟

ـ بافلوفكا، ألكسندروفكا، برودكي.

ـ وإلى أبد من ذلك؟ ولكن، ماذا بعد كيرسانوف؟ وهل تقع موسكو وراء طامبوف؟

ومن ثمّ تعلن متنهِّدة:

ـ لكم أهوى الذهاب إلى هناك؟

وإذ يكون والدها عاطلاً عن العمل، تزحف حتّى تستوي على ركبتيه، وتمطره بأسئلة لا ينضب لها معين، ومن بينها بعض الأسئلة غير المتوقَّعة على الإطلاق. وقد اعتادت الإصغاء إلى ما يجري في العالم من حوادث وكأنها ترهف أذنيها إلى أجمل أقصوصة خرافية من غير منازع: عن الرُّبَى الشامخات، والبحار الزُّرق، والغابات المكتنزة. عن القرى العظيمة المضطجعة في البعيد البعيد. وعن القوم الذين يعيشون فيها... في مثل تلك اللحظات، تكون زويا آذاناً صاغية كلّها: إنّ فمَها يفترُّ قليلاً، وعينَيها تبرقان. ولتبدو في بعض الأحيان وكأنما نسيتْ أن تتنفّس. وفي الختام، تغرق في النوم في حضن والدها، وقد ملكت حواسها بدعة ذلك كله.

كان شورا البالغ الرابعة من العمر، الصاخب المهمل على الدوام، يدبّر أبداً سبباً ما للّهو واللعب، وقد أعلنت زويا مرّة في دهش واضح:

ـ إنّ جيب شورا يتحرك!

ولقد كان يتحرك في الحقيقة!

ـ ماذا يوجد في جيبك؟

ما أبسط ذلك: كان الجيب عامراً بالخنافس. إنها تتلوّى وتحاول الفرار إلّا أنّ شورا يضغط على جيبه بقبضة يده. يا للحشرات المسكينة!

أيّ شيء لم أكُ أعثر عليه في جيوبه عند العشيات! مقلاع، قطع من الصفيح والزجاج، صنّارات، حجارة، أعواد ثقاب محظورة تحت طائلة العقوبة، وأخلاط من متنوِّعات أخرى. وكانت كدمةٌ تتربّع دائماً على جبهته. ويداه وقدماه ممزقة مخدوشة، وركبتاه مجروحتان

عميقاً. وكان الجلوس هادئاً يعذِّبه كثيراً، فهو العقاب الأقسى بالنسبة إليه! إنه يركض ويثب ويلهو منذ البكور حتّى أنادي الأطفال إلى العشاء والنوم. ولكم شاهدتُه يعدو في الساحة بُعيد تهطال المطر، يضرب برك الوحل بالعصا! ويتطاير الوحل والماء، وينصبَّان بتألُّقٍ فوق رأسه، فينضح الماء حتّى تتبلَّل عظامه، لكنه يلوح غير منتبهٍ لذلك، فيروح يضرب بعصاه بقوّة أعظم، وينفجر في أغنية ينظم كلماتها بنفسه. ولم أكُ أستطيع لكلماتها فهماً، وجلّ ما يبلغني هو صيحة حربٍ متهلِّلة: «ترامبا ـ بام! بارام ـ بام!». غير أنّ ذلك أمرٌ معقول في الحقيقة، إذْ لا بدَّ لشورا من إطلاق تيَّار فرحته بكلّ شيء يحيط به، لا بدَّ أن يعبِّر عن مبلغ سروره بالشمس والأشجار والبِرَك العميقة الدافئة!

كانت زويا رفيقة شورا الدائمة في اللعب، وكانت مثلها مثله صخباً، ومرحاً، وحبوراً. سوى أنّها كانت قمينة أيضاً بالجلوس والإصغاء مدةً طويلة، فإذا فعلت ذلك طفحت عيناها انتباهاً، وانضمّ حاجباها قليلاً. وما أكثر ما كنتُ أصادفُها مقتعدةً شجرةَ بتولا مقتلَعة، غير بعيدٍ عن الدار، وذقنها يستند إلى يديها المنضمَّتين، ونظرةٌ ساهمةٌ تنبعث من حدقتَيها.

كنت أسألها:

ـ ماذا تصنعين هاهُنا؟

فتردُّ زويا:

ـ إني أفكِّر.

وثمة يوم أذكره بكل وضوح بين تلك الأيام النائية التي يكتنفها كثيرٌ من النسيان والغموض في الوقت الراهن. كنّا، أناتولي بتروفيتش وأنا، في زيارة لوالديَّ والطفلان يرافقاننا... وما كدنا نصل حتّى انقضَّ الجد تيموفي سيميونوفيتش على زويا، وصاح بها:

ـ ولمَ لفَّقتِ لي الأكاذيب البارحة، أيتها الوغدة الصغيرة؟

ـ أيّة أكاذيب؟

ـ سألتك أين نظّارتَاي، فقلتِ إنك لم تريهما، ثمّ وجدتهما بعد ذلك تحت الدكة. مما لا ريب فيه أنّك أنت التي أخفيتهما هناك.

فعبست زويا فيَّ وجدّ الجدّ، ولم تجبْ... لكنها قالت بُعَيْدَ برهة، لحظةَ دُعِينا إلى المائدة:

ـ لن أتقدَّم. إذا كنتم لا تصدقونني، فلن آكل إذن.

ـ هيا، هيا! انسي ذلك! تعالي واجلسي!

ـ كلا، لن أجلس.

وكذلك، فإنّها لم تأكل. واستطعت أن أرى أنّ الجدَّ متأثر كثيراً، وهو يجلس هناك مقابل حفيدته البالغة الخامسة من عمرها. ولقد وبَّخها قليلاً في طريق العودة إلى البيت، لكن زويا ابتلعت دموعها، واستمرّت تردّد: «غني لم أ ـ أمسَّ نظارتيه. لقد ر ـ رويت الحقيقة، وهو لم ـ ي يصدقني».

فشعرتُ أنّ الطفلة تأثّرت كثيراً.

كانت زويا وأبوها صديقين حميمين. فهي تحبُّ أن تكون معه حتّى أثناء عمله، حين لا يجد وقتاً يمنحه إياها. ولم تكن تلحقه بكل بساطة، بل هي تلاحظ الأشياء أيضاً.

كانت تقول لشورا:

ـ انظر، بابا يستطيع صنعَ كلّ شيء.

وكان ذلك صحيحاً، فأناتولي بتروفيتش يستطيع أن ينجز أي عمل كان، وسائر الذين يعرفونه يعترفون بذلك. كان الابن البكر في العائلة، وقد فقد والده في وقت مبكر، فكان

يحرث الأرض، ويزرعها، ويحصدها، منذ فتوّته الباكرة. ولقد وجد رغم ذلك كله وقتاً كافياً يقوم بعملٍ كبير في المكتبة وفي غرفة مطالعة القرية. كان سكان القرية يحبون أناتولي بتروفيتش ويحترمونه، ويثقون به، ويسألونه النصح في أمور العائلة والأشياء الأخرى، وعندما كان ينبغي انتخاب رجل موثوق لمركز مراقبةٍ ما ـ كي يضبط عمل تعاونية أو شركة ما ـ فهم يقولون: «أناتولي بتروفيتش هو الرجل! لا يمكن خداعه، إذ إنّه يغوص حتّى غور الأشياء دائماً!».

وكان ثمّة شيء آخر فيه يجتذب الناس إليه: إخلاصه الفظّ. فإذا جاءه امرؤٌ يطلب النصح ووجد أنّ ذلك المرء على ضلال ما كان يتردّد في إخباره:

ـ أنت مخطئ، ولن أقف في صفِّك!

وكان الناس الذين يكبرونه في السنّ كثيراً، حتّى الذين شابت لحاهم، يأتونه طلباً للنصيحة. وما أكثر ما سمعت مختلف الناس يقولون:

ـ إنّ أناتولي بتروفيتش لن يتلاعب بضميره أبداً...

ورغم ذلك كله فقد كان كثير التواضع، لا يتباهى بمعرفته على الإطلاق.

كنت تستطيع أن تسأله عن أيّ شيء كان وتحصل منه على الجواب الصحيح عن مختلف أسئلتك. لقد قرأ أشياء كثيرة، وفي مقدوره أن يعيد ما قرأه بوضوح وبصورة جيدة. وكانت زويا تجلس طويلاً في غرفة مطالعة القرية تصغي إليه يقرأ الصحف للفلّاحين ويخبرهم عن الحوادث التي تجتازها بلادنا، أو عن الحرب الأهليّة، أو عن لينين. وكان المستمعون إليه يقذفونه على الدوام بسيلٍ مستمرٍّ من الأسئلة.

ـ لقد كانت رائعة، يا أناتولي بتروفيتش، الأشياء التي رويتَ لنا عن الكهرباء، ولكن ماذا عن المحراث الآلي؟ إنه أكثر روعة أيضاً، أليس كذلك؟ وكيف تستطيع أن تجعل مثل هذا

الشيء الكبير يدور في أراضينا الصغيرة؟ ثمّ إنّ هناك شيئاً آخر: أثمّة حقاً آلة تحصد الحنطة وتصبُّ القمحَ الخالص في الأكياس؟

سألتني زويا ذات مرَّة:

ـ لماذا يحبّ الناس جميعاً بابا كلّ هذا الحب؟

ـ حسناً، ما قولك في ذلك؟

غرقت زويا في الصمت، لكنها همست في أذني مساءً، وأنا أدسّها في السرير:

ـ بابا ذكي. إنه يعرف كلّ شيء. وهو لطيف جداً...

رؤية العالم

ولمّا بلغت زويا السادسة من عمرها قرّرنا، زوجي وأنا، أن نذهب إلى سيبيريا، كي «نرى جزءاً من العالم!» على حدّ تعبير أناتولي بتروفيتش.

ولشدَّ ما كان سرور الطفلين عظيماً لركوبهما إلى المحطة في عربة. ومن ثمّ شاهدا القطار الحديديّ للمرة الأولى في حياتهما... أوّاه! لشدِّ ما التصقا بالنافذة ليريا إلى الدساكر والقرى تومض وتغيب، والقطعان اللطيفة تمرح في المروج، والغابات والأنهر، وأخيراً السهوب العريضة المترامية...! وتحت أرض العربة، ترتفع ضجّة العجلات التي لا تفتر، أنشودة مدوِّخة للسفر والمغامرة.

دامت رحلتنا أسبوعاً كاملاً كانت أسئلة الصغيرين تنهال أثناءه علينا، أناتولي بتروفيتش وأنا، من دون رحمة أو هوادة: ما هذا؟ ما نفع هذا؟ لماذا؟ لِمَ ذلك؟»... ومن المألوف أن ينام المسافر جيداً في الطريق، غير أنّ الطفلين كانا مفعمين بهذه الأشياء التي تقع عليها أعينهما للمرة الأولى، بحيث أمسى من المستحيل حملهما على الرقاد نهاراً. وكان شورا يتعب حوالي المساء فيستسلم للنوم، في حين يستحيل إبعاد زويا عن النافذة. ولم تكن طفلتنا تستدير ناحيتنا حتّى تصطبغ النافذة باللون الأزرق الغامق بفعل عتمة الليل، وتقول وهي تصعِّد زفرة أسف:

ـ لا شيء يُرى... غير الأضواء!...

وأخيراً، تقبل أن تنام...

ولما أطلَّ النهار السابع كنّا قد أشرفنا على بلدة كانسك في مقاطعة ينيسّي...

كانت دور البلدة ذات الطابق الواحد مبنيّةً من الخشب، والأرصفة خشبيّة أيضاً. واقتدْنا الصغيرَين إلى النُّزُل، وخرجنا قاصدِين شعبة التعليم العام لنختار قريةً نستطيع، أناتولي بتروفيتش وأنا، التدريسَ في إحدى مدارسها. وعيّنونا في قرية سيتكينو، فأجمعنا على ألّا نضيِّع الوقت في الرحيل. وقفلْنا إلى غرفتنا في النُّزل وفي خاطرنا هذا القرار، فألفينا شورا يلعب بقرميداته على الأرض.

ـ أين زويا؟

ـ أمرتْني بالجلوس هنا، وقالت إنها ساعيةٌ إلى السوق لتبتاع شمعاً. الجميع يمضغون الشَّمْعَ هنا، هذا ما قالتْ لي!

ففغَرْت فمي، وطِرْتُ إلى الشارع. كانت البلدة صغيرة، لا تبعد عن الغابة إلّا رميةَ حجَر ـ ماذا لو كانت الطفلة قد تاهتْ هنالك وضلَّت الطريق؟

وإذ أسقط في يدنا، هرعت وأناتولي بتروفيتش نجوب الشوارع واحداً بعد الآخر، نتطلَّع في كلّ الساحات، ونسأل كلّ إنسان نصادفُه. وفتّشنا في السوق... فلمْ نعثرْ، هنا أيضاً، لزويا على أثر.

التفت أناتولي بتروفيتش آخر الأمر نحوي وقال:

ـ يحسن أنْ تعودي إلى الفندق، وتنتظري أوبتي هنالك. لا تغفلي عن شورا. سأذهب إلى الميليشيا.

جررتُ أذيالي إلى الفندق، واحتضنتُ صغيري بين ذراعيَّ، ثمّ خرجتُ إلى الشارع من جديد ـ لم أكن أستطيع الانتظار في الغرفة.

وقفنا في الشارع قرابة نصف ساعة من الزمن، ننظر هنا وننظر هناك. وفجأةً، صاح شورا:

ـ هذا أبي وزويا!

اندفعت للُقياهما. كان وجه زويا قاني اللون الأحمر، وهي تبدو حائرة مذعورة نوعاً ما. وكانت تحمل قطعة صغيرة سوداء في يدها.

قالت بلطيف نغمةٍ وبصوت حنون، فكأنها قد غادرتنا منذ خمس دقائق فقط:

ـ إليك، هذا شمع، لكنّه كريه الطعم.

تبيَّن أنّها هرولت إلى السوق، وابتاعت شيئاً من الشمع، بيد أنّها نسيت طريق العودة إلى النُّزُل ولم تعرف كيف تستفسر عنها. وخمَّنت الطريق خطأً، فتاهت حتّى قاربت الغابة. وهناك لمحتها إحدى السابلات (امرأة ضخمة، ذات وشاح)، وأمسكتها من يدها، وقادتها إلى الميليشيا. وهنالك وجدها أناتولي بتروفيتش. كانت زويا جالسة إلى طاولة ترشف الشاي كضيفٍ عزيز، وتجيب على الأسئلة المطروحة عليها بجدٍّ ورزانة: ما اسمها؟ من أين قدمت، وبرفقة من؟ ما اسم أبيها؟ وأمها؟ وأخيها؟ فأعلنت لهم أنّه ينبغي لها الرجوع إلى أخيها بسرعة لأنّه ما يزال غضاً صغيراً.

استوضحتها موبّخة:

ـ كيف تتركين شورا وحيداً؟ فأنت، على أية حال، فتاة ناضجة كبيرة. أنت البكر، ونحن نعتمد عليك.

وقفت زويا إلى جانب والدها وهي ترنو، مرفوعة الذقن، من أحدنا إلى الآخر:

ـ ظننتُ أنّي سأرجع فوراً. ظننتُ أنّي سأعرف كلّ شيء هاهُنا، وكأنّي في غابات الرجّاج. لا حاجة تدعو إلى الغضب، فلن أُقدِمَ على ذلك ثانيةً.

فقال أناتولي بتروفيتش، وهو يغالب ابتسامةً على شفتيه:

ـ حسناً، سأسامحك هذه المرّة، فإياك والخروج من دون إذن أو استفسار. أفلا ترين مبلغ رعب أمّك؟

في سيبيريا

كان بيتنا في سيتكينو ينهض على ضفّةٍ مرتفعة لنهرٍ سريع عريض. وكان رأسك يدور إذا ما تطلّعت من فوق حافّته، فتخالُ أنّك تنجرف بعيداً بعيداً مع التيّار. وكانت الغابة تبعد عنّا خطوات معدودة فقط. ويا لها من غابة! أشجار هائلة من الصنوبر، تناطح الجوزاء بقممها فيتعذَّر عليك رؤية ذراها حتّى ولو انحنيت إلى الوراء كثيراً. وأشجار كثَّة من التنُّوب، والشربين، والشوح، متواشجة كثيفة حتّى لتحسب نفسك، إذا ما مررتَ تحت ظلال أغصانها المنتشرة العريضة، قد اكتهفتَ كهفاً غريباً فاحم اللون. وذلك السكون الصميت الذي يتثنَّى فيما يحيط بك!... فرع عسلوج يتكسَّر تحت قدمك، أو صرخة عصفور جافل ـ ومن ثمّ ينيخ السكون الصميت الأبدي بكلكله على تلك الأرض السحرية الغافية.

ولَتَطِنُّ في ذاكرتي أوّل نزهة قمنا بها في الغابة. خرج أربعتنا، ويا سرعان ما وجدنا أنفسنا في أيكة مكتنزة. أمسك شورا عن السير تحت شجرة صنوبر كثيفة مخوف، أمّا نحن فتوغَّلنا أكثر من ذلك، وطفقنا نناديه، ولكنه لم يردّ جواباً. فاستدرنا... كان فتانا الغرّ واقفاً في مكانه القديم، تحت شجرة الصنوبر، صغيراً متوحداً. وكانت عيناه عظيمتي الاتساع، يلوح أنّه يتسمَّع إلى همسات الغابة. لقد سحرته الغابة، ولا عجب في ذلك، فهو لم يرَ، في حياته القصيرة، مثل هذا العدد العديد من الأشجار السامقة العلوّ. كان في مقدوره، في غابات الرجّاج، أن يعدَّ شجراتها على أصابع يديه. وتدبّرنا أمرنا بطريقة ما كي نردَّه إلى الحياة، لكنه ظلَّ بُعيد ذلك، ونحن نطوف في الغابة، جامد الحركات مقهوراً: ليبدو أنّ الغابة قد سبتْه وفَتنتْه!

ووقف شورا طويلاً ذلك المساء، قبيل انطلاقه إلى النوم، منتصباً إلى جوار النافذة وقد أنفذ نظراته من خلالها إلى الفضاء.

سأله والده:

ـ ما بالك، يا شورا؟ لم لا تذهب إلى فراشك؟

فجمجم شورا مجيباً:

ـ كنت أتمنى للأشجار ليلةً سعيدة!

وأحبّت زويا، بدورها، الغابة حبّاً جمّاً، وأضحى التجوال واللعب في ظلالها لذّتها العظمى. فكانت تهبط درجات الدار، وفي ذراعها سلَّةٌ لجمع توت العليق، وقلبها ينبض بالغبطة والنشوة.

كنت أصيح بها:

ـ لا تبتعدي كثيراً! سمعتِ ما قال الجيران؟ ثمّة ذئاب ودببة في الغابة!

وفي الحقيقة، لم يكن جمع توت العليق أميناً على كلّ حال، فمصادفة دبٍّ حادّ الأسنان أمرٌ كثير الاحتمال في دغل من أدغال التوت الكثيفة. إلّا أنّ التوت كان كبيراً غاصّاً بالعصير، حلواً كالعسل. واعتاد القوم جمع هذا التوت جماعات جماعات في جرادل كبيرة، يرافقهم على الدوام رجلٌ يحمل بندقية اتّقاءً لخطرِ دبٍّ قد يمرّ بهم. واعتاد السيبيريّون أن يجمعوا التوت، والأزاهير، وأن يخزّنوا الفطر طوال الشتاء ـ كانت ثمّة كمّية عظيمة من هذا النبات في الغابة، وكانت زويا تعود من تجوالها فخورةً بتلك السلة الطافحة به.

كانت تسعى وشورا إلى النهر لاستقاء الماء ـ فزويا تحبُّ هذا العمل أيضاً. كانت تغرف الماء في دلوٍ صغير، بنظافةٍ وتروٍّ، ومن ثمّ تقف على الضفّة وتشخص إلى الأمواج البرّاقة السريعة الجريان. وكانت تقف فيما بعد على درجات السلَّم، أو إلى جوار النافذة، وهي ما برحت تحدّق بشرودٍ صوب النهر.

أراد أناتولي بتروفيتش مرة أن يعلِّم زويا السباحة. سبح بعيداً عن الضفّة بعدما حملها معه، ومن ثمّ أفلتها فجأة. فغطست زويا نحو القاع، ثمّ طفت، وعادت فغطست من جديد...

كنت أراقبها من على الضفّة، وأنا لا أدري إن كنت بعد على قيد الحياة أم قد فارقتُها. صحيحٌ أنّ أناتولي بتروفيتش سبّاح ماهر، وأنه يسبح إلى جانبها، فليس ثمّة موجبٌ للخوف من غرق الفتاة بكل تأكيد. غير أنّ مشاهدتها تجاهد طلباً للهواء، ثمّ تعود فتسقط في جوف المياه من جديد، قد أرسلتْ الذُّعر في قلبي على أيّة حال... وما زلت أذكر أنّها لم تُطلق صرخةً واحدة ـ كانت تصفّق الماء بسكون، وتجاهدُ بكلّ ما فيها من قوّة. ثمّ التقطَها أبوها، ورجع بها إلى الضفّة.

قال، مطمئنّاً واثقاً:

ـ يا للابنة الرائعة! لسوف يمكنها السباحة بعد محاولتين أُخرَيَين.

فاستوضحتها، وأنا أنشّف جسدها:

ـ هل أحسستِ بالخوف؟

فردَّت موافقة:

ـ طبعاً.

وسألها أبوها بخبثٍ:

ـ هلّا حاولنا ذلك مرّة ثانية؟

فقالت زويا بحدّة:

ـ هيا بنا!

شتاء!

أطلَّ شتاء سيبيريا الثلجي. وسُدَّ النهر بالجليد، وبلغ الصقيع الدرجة 57 تحت الصفر، لكن الريح لم تهبَّ قط، فتحمَّل الصغيران البرد بسهولة.

وما زلت أذكر عظيم فرحتهما لمّا ثلجتنا السماء للمرة الأولى: ما أكثر ما لعبا بكتل الثلج من دون كلل. وما أكثر ما تدحرجا على القش وكأنما يمرحان فوق ندف الثلج الناعمة المتساقطة التي تكدَّست بسرعة حوالي البيت. وكيف صنعا تمثالاً عملاقاً من الثلج أطول من زويا نفسها. ولم أكُ أستطيع إرجاعهما إلى المنزل للطعام إلّا بصعوبة ـ إنهما يعودان بخدودٍ برّاقة، ويتهالكان كنسرين ضاريين على حسائهما وحليبهما وخبزهما المصنوع من الجاودار.

واشترينا للطفلين زوجَين من أحذية الشتاء السيبيريّة الشهيرة الصنع. وصنع أناتولي بتروفيتش مزلجة رائعة. فكانت زويا وشورا يقضيان نهارهما يتشقلبان، ينحدران عن التلال بسرعة هائلة راعبة، يجرّان بعضَهُما آونةً، ويركبان معاً آونةً أخرى، زويا في المقدّمة، وشورا خلفَها، محتضناً أختَه بذراعيه القصيرتَين المكتنزتين في قفّازيهما الأحمرين.

كنت وزوجي منهمكين في العمل طيلة النهار. وكنت أتوجه إلى زويا، حين أغادر الدار كلّ صباح، قائلةً:

ـ لا تنسي: هنالك شيءٌ من الحساء في الفرن، وكميّة من الحليب في القِدْر. انتبهي إلى سلوك شورا. لا تسمحي له بالجلوس على الطاولة، وإلا وقع وآذى نفسه وملأ البيت صراخاً وعويلاً. كوني طيّبة، العبا معاً ولا تتشاجرا.

وإذ كنّا نرجع إلى الدار عشيةً قافلين من المدرسة، كانت زويا تحيِّينا بهذه الكلمات:

ـ كلّ شيء على ما يرام! لقد كنّا طيِّبَين!

وألقي نظرة على الغرفة فإذا الاضطراب يرين عليها وقد انقلب عاليها سافلها، وأنظر إلى وجهَي الطفلين فإذا هما يطفحان سعادةً وحبوراً بحيث لا يسمح لك فؤادك بتوبيخهما... وأرى منزلاً مؤلَّفاً من طابقين، قد بُني من المقاعد والصناديق المكوَّمة بعضُها فوق بعض وقد غطّتْها بطّانيّة في قمتّها. وأرى أشياء غير منتظرة على الإطلاق في الأمكنة التي لا تصلح لها أبداً: كنت أدوس غالباً على المرآة التي يستعملها زوجي للحلاقة، وإذا هو بعد ثوانٍ معدودة يتعثّر بطنجرة مقلوبة. وفي وسط الغرفة، إلى جوار كومة تضمّ الأقداح والصحون، تتناثر ألاعيب الصغيرين البسيطة: جندي من الصفيح، وحصان ذو عجلات تمزَّق عُرْفُهُ. ودميةٌ بيدٍ واحدة، وبعض الأوراق، وشرائط، وقطع من الخشب.

وتُقدِّمُ لي زويا تقريرَها اليومي:

ـ لم نكسر اليوم شيئاً. لكن شورا خدش مانيا في كلا خدَّيها. ولقد بكتْ فترةً، فمنحتُها قليلاً من المربَّى، فامتنعت عن البكاء. مامي، قولي لشورا ألا يقاتل مرّة ثانية، وإلّا فلن نلعب وإياه أبداً.

ويروح شورا، الذي كان ينمو في الحقيقة إلى فتىً مستكبر، يتطلّع إليَّ بهيئة المذنب.

ويقول، وهو أقرب إلى التردُّد:

ـ لن أفعل هذا ثانية... لم أقصد أن أخدشها.

وكنا نزجي أمسيات طويلة متحلِّقين حول المائدة أو في جوار الفرن، حيث النار تتأجّج جذلانة لاهبة. تلك كانت أمسيات طيبة، بلى لقد كانت طيبة! ولكنّنا لم نكن نقدر، حتّى في ذلك الوقت، أن نكرّس أوقاتنا بأجمعها لطفلينا: فقد كان لديّ، وخاصة لدى أناتولي بتروفيتش، كثير من الأعمال لا مناص من إنجازها في العشيات. وهكذا تعلَّم الطفلان معنى كلمة «عمل» في سنٍّ مبكرة.

ـ ماما تعمل... بابا يعمل...

وهذا يعني الهدوء المطلق الذي يجب ألّا يعكّره المرء بالخصام أو الأسئلة أو الضوضاء والركض هنا وهنالك. وكان الطفلان يزحفان في بعض الأوقات تحت الطاولة، ويلعبان هنالك بهدوء ـ فلا تسمع نأمة خافتة تندُّ عنهما طيلة ساعات كاملة. وكانت العواصف الثلجية تعوي عند النافذة، كما حدث ذات مرة في سولوفيانكا، وتعول بين فروع شجرة الصنوبر الكثيفة الأغصان النامية إلى جوار البيت، منشدة أغنيتها النائحة الكئيبة في المدخنة. لكنّني كنت وحيدة في سولوفيانكا، أمّا هنا فثمة أناتولي بتروفيتش الذي يقرأ كتاباً أو يصلِّح وظائف تلاميذه، وتوجد زويا وشورا اللذان يخبَّان حواليّ ويهمسان في صوت خافت. أجل، لقد كنّا عائلةً سعيدة رائعة!

كان ولداي يحبان، بعد ذلك بسنواتٍ عديدات، وقد التحقا بالمدرسة، أن يستعيدا ذكريات تلك الأماسي في قرية نائية من قرى سيبيريا. والواقع أنّ شورا كان لمّا يبرح صغيراً ونحن في سيتكينو ـ كان في الرابعة والنصف ـ وكانت ذكرياته، رغم كونها حلوة تبعث على الغبطة، قد نمت مضطربة مقَلقَلة مبلبلة. أمّا زويا فكانت تتذكر تلك الأماسي بصورة واضحة حية.

كنت أزحف مقتربة من النار، إذ أُنهي عملي أو أضعه جانباً حتّى يأزف موعد نوم الصغيرين، وعندئذٍ تبدأ «أمسيتنا».

ويسألني الصغيران:

ـ ارْوِي لنا قصة.

ـ ماذا أروي؟ أنتما تعرفان جميع الخرافات عن ظهر قلب.

ـ هذا لا يهمّ، ارْوِي لنا شيئاً.

وحينئذٍ تبدأ هذه القصص: الديك الذهبيّ وكولوبوك، الذئب الأغبس والقيصر الصغير إيفان، الأخت أليونوشكا والأخ إيفانوشكا. أيٌّ من هؤلاء لم يزرنا خلال أمسيات ذلك الشتاء الطويلة! ولكن قصة فاسيليزا الجميلة كانت الحكاية المفضّلة عندهما.

ـ في غابر الزمان وسالف العصر والأوان...

كنت أكرّر ذلك للمرة المائة تقريباً، وينحو زويا وشورا نظرهما إليَّ وكأنّهما لم يسمعا القصة من قبل أبداً.

وكان أناتولي بتروفيتش ينتزع نفسه من عمله أحياناً ويشارك في أحاديثنا، فيصغي الطفلان إلى قصصه باهتمام خاص. وهذا ما كان يحدث في فترات غير متوقعة أبداً. وفي أحيان أُخَر ـ والطفلان قد نسيا، فيما يبدو، كلّ ما يتعلق بنا نحن الكبار، وقبعا في إحدى الزوايا صامتين يعالجان شؤونهما الخاصة ـ كان أناتولي بتروفيتش يدفع كتبه جانباً بصورة مباغتة، ويهرع إلى المصطلى فيقتعد الدكة الواطئة القريبة منه، ويُجلس شورا على ركبة، وزويا على الركبة الأخرى، ويبدأ يقول في صوت غير سريع:

ـ إني أذكر بهذه المناسبة...

فيضيء وجها الصغيرين فجأة بالفضول والترقُّب: ترى، أية قصّة يخبّئ لهما والدهما؟

وما أزال أذكر إحدى تلك المناسبات. سمع الصغيران أقوالاً كثيرة تنبئ عن فيضان النهر في الربيع. وكانت الفيضانات في تلك الأصقاع لا مزاح فيها: كانت تجرف البيوتات، وتغرق القطعان، وتغمر القرى طوال أيام. ولقد سمعنا، نحن القادمين الجدد، أشياءَ كثيرةً عن تلك الفيضانات الهائلة.

استفسر شورا من شقيقته مرة، بعدما أرهف السمع طويلاً إلى مثل هذا الحديث:

ـ ماذا ينبغي لنا أن نفعل وقتئذٍ؟

ـ سنغادر البيت، ونركب قارباً، ونبحر... أو سنهرب إلى التلال.

ومرَّتْ دقيقة صمت مشبع بالتفكير...

قالت زويا، وهي ترتجف كأنما البرد قرصها:

ـ ستجيء المياه وتُغرق كلّ شيء. شورا، أخائفٌ أنت؟

ـ وأنتِ؟

ـ لست خائفة.

ـ حسناً، ولا أنا.

ونهض شورا، وطفق يراوح ويغادي في الغرفة على مُهلته، يقلِّد والده، ثمّ أضاف بلهجة عدائية:

ـ فليأتِ الفيضان! لست خائفاً! لست أخاف من شيء!

وفي تلك الهنيهة، تدخّل أناتولي بتروفيتش كعادته:

ـ وإني أذكر بهذه المناسبة...

وروى لنا هذه القصة:

ـ كان رهطٌ من عصافير الدوري قد تجمَّع على فرع شجرة يتناقش في موضوع تعيين أرهَب الحيوانات.

«إنّ أرهبها هو القطة الزنجبيلية».

هذا ما قاله دُوريٌّ لا ذَنَبَ له. فقد حدث في الخريف الأخير أن كادت القطة تُمسك به ـ واستطاع الدوري الإفلات منها، بيد أنّه خسر ذيله على كلّ حال...

وقال دوريٌّ آخر:

«بل إنّ الأطفال لأسوأ منها! فهم يتصيَّدون أعشاشنا ويطلقون علينا حجارة المقاليع...».

وأضاف عصفور ثالث:

«يمكنك أن تطير هارباً من الأطفال الصغار، لكنه ليس من سبيل إلى الفرار من الحدأة السوداء. إنها أشدّ رهبة من الجميع».

وفي تلك الآونة صدح عصفورٌ دوريٌّ صغير ذو منقار أصفر قائلاً (وهنا شرع أناتولي بتروفيتش يتحدث بصوتٍ رقيق):

«لكنني لست أخاف من شيء! ولست أبالي بالقطط أو الأطفال الصغار أو الحدأة السوداء! وفي مكنتي التهامهم جميعاً!».

وبينا هو يصدح حلَّق طائر كبير فوق الشجرة وزعق بصوت جَهوريّ، فكادت العصافير الدوريّة أن تموت فرَقاً، وطارت جماعة منها بأقصى ما وهبها اللّه من سرعة، واختبأ آخرون بين الأوراق. إلّا أنّ العصفور الصغير الجسور، وقد خبله خوفه، وثب إلى الأرض وشرع يقفز على العشب. وطقطق الطائر الكبير بمنقاره ورمى نفسه على العصفور الصغير، فانتفض المسكين الصغير بأقصى ما يستطيع، وغطس في جحر جرذٍ قريب.

وهناك في قعر الجحر، كان جرذٌ عجوز قد رنَّق النوم في عينيه بعد أن تكوَّر على نفسه كالكرة. فعظم خوف العصفور وقال:

«حسناً، لسوف يأكلني إنْ لم أبدأه أنا!».

ونقرَ الجرذَ في أنفه!

قال الجرذ في دهشة، وقد فتح إحدى عينيه (وزوّى أناتولي بتروفيتش ما بين عينيه، وتثاءب، وتابع في صوت عميق أجشّ):

«آه، أهذا أنت؟ جائع، أليس كذلك؟ إليك، هذه الحبّة من الحنطة».

وأحسّ العصفور الدوري الصغير بالخجل من نفسه، وانثال يشرح الأمر للجرذ:

«لقد أرادت الحدأة التهامي!».

فقال الجرذ:

«آه، يا للوغدة! حسناً، هيا بنا، ولنتحدَّث إليها!».

وتهيّأ الجرذ للخروج من جحره، وتواثب العصفور الدوري الصغير خلفه. كان عظيم الخوف، خجلان، متكدراً: علامَ كان يتبجَّح؟ خرج الجرذ من ثغرته، وهرع العصفور الدوري وراءه وهو يلهث من الرعب: إلى الأمام منه يقبع طائر كبير أسود اللون، يحدُّ إليه النظر متوعداً. ألقى العصفور الدوري الصغير عليه نظرة سريعة وتساقط هلعاً وخشية. ونعب الطائر الكبير، فضحكت العصافير الدورية بأسرها! فالطائر لم يكُ حدأةً سوداء أبداً، بل العمّة العجوز...

فصاح شورا وزويا في صوت واحد:

ـ الغراب!

ـ بالطبع، لقد كان الغراب!

والتفت الجرذ إلى العصفور، وقال:

«والآن، أيها الدَّعِيُّ الصغير! إنّ ما تحتاج إليه هو رقعةٌ لشجاعتك! حسناً، فلنلقِ صفحاً عن ذلك، احملْ لي بعض الحبوب ومعطفي الشتويّ. يبدو أنّ الجوّ تشبّع بالبرودة».

وارتدى الجرذ معطفه الشتوي، وأنشأ يصفر بعض الألحان. كان العصفور الدوري الكائن الوحيد الذي لا يحسّ سروراً عظيماً. ولقد زحف في خجله إلى أكثف غصنٍ وجده واختفى فيه.

وأضاف أناتولي بتروفيتش بعد استراحة قصيرة:

ـ هذا ما حدث. والآن، تناولا حليبكما وهيا إلى الفراش.

وانتصب الصغيران على أقدامهما بين الإقدام والإحجام.

سأل شورا في استحياء:

ـ أكانت القصة تدور حولي؟

فأجاب الوالد، وهو يخفي ابتسامةً عابرة:

ـ تلك قصة تدور حول عصفور دوري.

وصدف أن عثرت، بعد عديد السنوات، على تلك القصّة ضمن مؤلّفات ألكسي تولستوي. وقد قرأها أناتولي بتروفيتش في صغره في إحدى مجلات الأطفال، وظلّ حافظاً لها كلمة كلمة...

أثر لا يزول

قالت زويا ذات يوم:

ـ أماه، لماذا يملك آل بورماكين مثل تلك الدار الضخمة والجموع من الأغنام والأبقار والخيول؟ ولِمَ يملك المرء مثل هذه الكثرة من كلّ شيء؟ وفيمَ آل روزينتسوف، وفي مثواهم ذلك العدد العديد من الأطفال والجدة والجد، يعيشون في كوخ صغير حقير، ولا يملكون بقراً أو حتّى غنمة واحدة؟

ذلك أنّ أوّل حديث لي مع زويا عن الفقر والغنى، وعن العدالة والظلم... لم يكن من السهل عليَّ الإجابة على مثل هذا السؤال لصبيَّة في السادسة من عمرها. وإذا ما أردتُ تفسير ذلك بصورة جديّة، فيتوجَّب عليَّ إذن أن أتحدّث عن أمورٍ كثيرة لم تكُ سنُّها في ذلك الحين تمكِّنها من إدراكها. بيد أنّ الحياة أرغمتنا على العودة إلى هذه القضية.

حدث عام 1929 أن اغتال الكولاك سبعة من الشيوعيين القرويِّين في مقاطعتنا. وانتشرت الأخبار بسرعة فائقة عبر سيتكينو... وكنت واقفة على الدرجة الأولى من سلّم الدار الأمامي حينما مرَّت النعوش السبعة عبر الشارع. وكانت جوقة موسيقيّة تسير خلفها، تعزف نشيد الجنازة الثوري الخشوعي، وسيلٌ طويل من القوم يدبّون في إثرهم، وقد اربدَّت وجوههم حزناً وغيظاً.

وحدث أن تلفتُّ حوالي وتطلّعت إلى النافذة فوقع بصري على وجه زويا الشاحب المرعوب ملتصقاً بالزجاج بشدة. ولم تمضِ دقيقة حتّى هرعت إلى الخارج، وأمسكت بي من يدي، والتصقت بي، وظلّت طويلاً ترنو إلى موكب الجنازة.

ـ لماذا قُتِلوا؟ من هم الكولاك؟ أأنت شيوعيّة؟ وهل بابا شيوعي؟ هل سيقتلونك؟ هل عثروا على القتلة؟

كان زويا وشورا يمطراننا بمثل هذه الأسئلة. فلقد خلَّفت جنازة أولئك السبعة أثراً لا يزول في أذهاننا...

وكانت هناك ذكرى أخرى لا تخمر عن البال...

ما أكثر ما كنّا نحضر بعض الأفلام السينمائيّة في نادي القرية، فكنت أصطحب زويا وشورا كثيراً إلى هناك. بيد أنّ السينما لم تكن الباعث الذي جذبني والطفلين إلى النادي.

كان أحد الجلوس يسأل دائماً، عندما يكون النادي غاصّاً بالحضور، وفي صوته نغمة خاصة وهو يشدّ على حرف الـ«غ» على الطريقة السيبيريّة:

ـ هل لكم في أغنية؟

فتردُّ عليه دائماً مجموعة من الأصوات:

ـ هيا إذن!

كان غناؤهم خلاباً فاتناً. فترجِّع الجدران أصداء أغنيات سيبيريّة قديمة، وأناشيد عن الحرب الأهليّة، يمازجها شعور بالغبطة عظيم، فإذا هذه الألحان العريضة المترددة تبعث بتلك الأيام المغرقة في البعد إلى الوجود. وينهض قبالتنا رجال مصاليت أشدّاء، وحوادث عاصفة عظيمة. وكانت الأصوات عميقة قوية... ويرتفع فوق الجوقة الكبيرة صوت خفيض فتيّ مجلجلاً، أو صوت جهوريّ عميق قوي قمين بالتايجا الكثيفة فيملأ الغرفة بموجة من الأنغام تسيطر على فؤادك بإيقاعها الصافي الحنون، بينا تغرورق عيناك بعبراتٍ متلألئة في الوقت ذاته.

واعتادت زويا وشورا الاشتراك في الغناء. وكنا مولعين خاصة بأغنية لا أتمكن من تذكُّر جميع كلماتها إذ لم تحتفظ ذاكرتي سوى بلحنها والأسطر الأربعة الأخيرة منها:

«لقد ولّى الليل، وهرهرت نسيمات الفجر.

هو ذا نهارٌ ربيعيّ كبرقٍ يوشك أن يطلَّ،

وفي ذلك الصباح الدافئ المغمور بالشمس

كان نصيرٌ يودِّع الحياة!»

وكانت أصوات الرجال العميقة تردّدُ، في بطءٍ وأسىً:

«وفي ذلك الصباح الدافئ المغمور بالشمس

كان نصيرٌ يودِّع الحياة!»

فراقنا الأوّل

ومرّت سنة واحدة...

لم يحدث أيّ فيضان في الربيع، وبدا على الطفلين شيءٌ من خيبة الأمل لما عرفنا أنهما لن يحتاجا أن يفرّا إلى التلال. كانا يأملان في أعمق أعماق قلبَيهما أنّ النهر سيجرف كلّ شيء، في حين يهرعان، في زورق صغير أو على الأقدام، إلى التلال، ويقتحمان الطريق قُدُماً نحو أعظم المغامرات الشاقّة.

واخضرَّت الأرض من جديد، وتفتّحت أكمام الورود بين العشب الكثيف الطويل. وتلقيت في أيار رسالة من شقيقتي أولجا وشقيقي سيرجي في موسكو.

كتبا يقولان:

«تعالوا إلى موسكو، وفي وسعكم العيش وإيّانا فترة، ومن ثمّة تستطيعان العثور على عملٍ ومكان للعيش. لشد ما نفتقدكم، وإنّا لفي شوقٍ إلى لقياكم، وسنظلّ ندعوكم للقدوم».

وكنّا، بدورنا، نشتاق لرؤية أصحابنا وأهلنا أيضاً، ولم يكد العام الدراسيّ ينتهي حتّى خلَّفنا سيبيريا وراءنا. وعزمنا أن نأخذ الصغيرين إلى غابات الرجّاج ليقضيا بعض الوقت في رفقة جدّهما وجدّتهما.

وهكذا صافحت أعيننا الطريق العريضة مرة ثانية، ومن ثمّ الحقول المزروعة بالجاودار، والوادي على حافة القرية، وشجرات الصفصاف المتوحدة في حدائق فسيحة، وأدغال الليلك الكثيفة، وشجرة البتولا العجوز المجوَّفة، وشجرة الدردار الجميلة القريبة من دار والديّ. وأدركت، وأنا أمتّع أنظاري بتلك المشاهد العزيزة والقريبة إلى قلبي، ماذا تعني السنة في حياة الطفل. إذ إنّ منزلنا العتيق، والمرجةَ المترامية أمام النوافذ، والغديرَ،

وأصدقاءَنا ومعارفَنا، شملهم النسيان جميعاً، فلم يكن بدٌّ للصغيرَين من التعرُّف إليهم من جديد.

وظلَّت الجدة تكرّر بحنان:

ـ لَكَمْ كبرا وترعرعا! أما زلتما تذكرانني، أيها السيبيريّان؟

ـ نعم، أيتها الجدّة!

أجابا متشكّكين، وهما يحاولان مع ذلك أن يلتصقا بي أكثر فأكثر...

وعلى أيّة حال، فما أسرع أن استدلَّ شورا على مواطئ قدميه: إذ كان بعد ساعة أو ساعتين من قدومنا يلعب في الشارع مع عصبة من أصدقائه القدامى.

إلّا أنّ زويا لم تطرح عنها حياءها بسرعة، فما برحت تسير في إثري أينما نحوتُ. وفي أُخرَيات ذلك الصيف بدأت وأناتولي بتروفيتش نهيّئ لرحلتنا إلى موسكو.

استوضحت زويا يائسة:

ـ أتذهبان من دوننا؟

كان صوتها غاصّاً بالقنوط، والدهشة، والتوبيخ.

ولكم أحزننا فراقنا الأوّل! إلّا أنّنا قرّرنا ألّا نصحب الطفلين معنا إلى موسكو حتّى نهيّئ الأمور هنالك ونجد شقة للسكن. وهكذا كان علينا أن نفترق للمرة الأولى في حياتنا.

بعد عام

صافح سمعي صوت مألوف، يطغى عليه الانفعال والحبور، يقول:

ـ زويا! شورا! أين أنتما؟ تعالا بسرعة! لقد رجعت مامي!

وقالت الجدة مافرا ميخائيلوفنا، وهي تحتضنني:

ـ آه، كدنا نفقد الأمل برؤيتك. إنّ الطفلين يحنّان إلى البيت. وخاصة زويا ـ وهي الآن صبية كبيرة ـ ولن تعرفيها. وهي دائبة الحركة لا تجنح على هدوء. ولقد كانت تخشى ألّا تجيئي.

واستعلم والدي، موجهاً ملاحظته إليَّ وإلى سائق العربة الذي جعل يفكُّ أعنَّة الحصان:

ـ كيف كانت الرحلة؟

ـ حسنة جداً! إلّا أنّ السماء ظلَّت تمطرنا طوال الطريق. ولقد تبلَّلت ليوبوف تيموفييفنا نوعاً ما، في حين كنت أسوق الجواد بأقصى سرعة، حتّى أوصل ابنتك إليكَ من غير إبطاء. ولذا يتوجّب عليك الآن، يا تيموفي سيميونوفيتش، أن تقدّم إليَّ قليلاً من أيِّ شرابٍ كان!

وبينا السائق اللطيف الثرثار يفكُّ أعنة الجواد، انهمك والدي في تفريغ حاجياتي البسيطة، في حين انطلق صبية الجيران يبحثون عن زويا وشورا وكانت الجدة قد أشعلت السماور في تلك الأثناء، وغدت تصخب حوالي المائدة. وشرع الجيران يتوافدون لما بلغهم أنّ ابنة تيموفي سيميونوفيتش، هذه التي كانت تعلِّم أولاد القرية في المدرسة، قدمت من موسكو.

ـ كيف تجري الحياة في موسكو؟ يا اللّه، شدَّ ما سمنتِ وتحسنتْ صحتك؟ كيف حال أناتولي بتروفيتش؟ إننا نعمل في المزرعة التعاونية جميعاً، سائر أهل القرية تقريباً... لم يبق مزارعون فرديون، فجميعنا انضممنا إلى الكولخوز الآن.

ـ وكيف حال الأمور هاهُنا؟

ـ رائعة! إذا ما قمنا بعملنا على الوجه الصحيح فلن يمسّنا سوء!

وكانت هنالك أنباءٌ كثيرة، حتّى لم أجد الوقت الكافي لأدهش لكلّ خبر على حدة... لكم تغيّر كلّ شيء! لم أكد ألج البيت حتّى سمعت أشياء كثيرة جديدة كلّ الجدّة! فهذه المحاريث الآلية التي سمعت عنها غابات الرجّاج مؤخراً على أنها نوع من الأعجوبة، قد ظهرت منذ وقت، بل بدأت العمل. وهم يقولون إنّ القرية بأسرها خرجت لإلقاء نظرة على هذه الآلات الجديدة الغريبة في أوّل يوم من وصولها.

وسمعتُ من يقول:

ـ لمن دواعي الغبطة أن ترى إليها تعمل! فكروا فقط، حرثت حقلاً في يوم واحد!

وقال والدي، أشبه بالغيران:

ـ والآن، أيها القوم! إنكم وأخباركم لا تمنحون صبيتي فرصة للراحة بعد رحلتها الطويلة!

ووافق أحد الحضور بخراقة:

ـ هذا صحيح! تمتّعي باستراحة لطيفة، يا ليوبوف تيموفييفنا. سنروي لك كلّ شيء فيما بعد!

ولأقُلْ الصدقَ، فلم أكُ أعير الأحاديث والأخبار المترادفة أذناً صاغية، مهما كانت باعثة على الشده والعجب. كنت فارغة الصبر أريد أن أعرف أين يكون طفلاي. تُرى، أين ذهبا؟

خرجت إلى الحديقة، حيث كلّ غصن، وكل ورقة تضطرب وتهتز، تتساقط قطرات من المطر بين آنٍ وآن... كنت غارقة في ذكرياتي وأنا أتطلع حواليَّ.

كان المنزل العتيق قد احترق بكامله عام 1917، أما هذا البيت الجديد فيعتبر أجمل بيوتات القرية، جدرانه الخشبية مصفّحة بالألواح ومدهونة بلون أسود بهيج، والنوافذ والسقف مزخرفة منقوشة... وكان منزلنا يلوح طويلاً لأنه ينتصب على راية مرتفعة، وهنالك عشر درجات توصل إلى بوّابته. وكانت الحديقة قد توسّعت كثيراً في السنوات الأخيرة، والجدران الباهتة نوعاً ما يصعب تمييزها خلف أدغال الأكاسيا والليلك، وأشجار الحور والبتولا الأثيرة لديّ نمتْ ونطحت السماء برؤوسها. كانت فتّانة، غسلتْها الأمطار ونظّفتها. وشقشقت الشمس، وراح قوس قزح متلألئ، يشعّ على آخر قطرات الماء العالقة بالأوراق.

كنتُ قد سقيتُ الليلك والأكاسيا بنفسي منذ ثلاثة عشر عاماً، يوم كنت فتاة صغيرة بعد. وهأنذا الآن لا أتعرَّف إليها ـ فالأدغال كبرت فصارت جدراناً ثابتة صلبة. ولقد كبرتُ بدوري، وأضحيت أُمّاً لطفلين...

لكن، أين هما، طفلاي؟

وعندئذٍ رأيتهما... كان ثمّة عصبة من الصبيان تهبط الطريق، تسير زويا في الطليعة، في حين يحمي شورا المؤخرة، وهو لا يستطيع اللحاق برفاقه إلّا بصعوبة.

كانت زويا أوّل من رآني...

صاحت، وهي تطير إليَّ:

ـ ماما! لقد جاءت ماما!

واحتضنّا بعضنا بشدّة...

وإذ ذاك استدرت إلى شورا. كان يقف جوارنا صامتاً، تحت شجرة، يحملق فيَّ بثبات. وما إن التقى نظرتي حتّى قبض على غصن شجرة حور فتية وراح يهزّه بكل ما وهبه المولى

من قوة. وانهمرت فوقنا قطرات من مطر... فاضطرب شورا لذلك كثيراً... لفَّ ذراعيه حولي ودفن وجهه بين طيّات ثوبي.

كنّا وسط حلقة من الفتيان والفتيات الملفوحي الوجوه المتضرّجة ـ شعرهم أسود وأشقر، ووجناتهم مغطّاة بالنمش أو بريئة منه، وأيديهم وأرجلهم مخدوشة مدمّاة... كنت تستطيع أن ترى، منذ الوهلة الأولى، أنهم جماعة صاخبة، تتعشّق الركض، والسباحة، وتسلّق الأشجار. كانوا جميعاً من أبناء الجيران ـ شورا بوديموف، سانيا وفولوديا فيلاتوف، شورا كوزادينوفا السمينة وشقيقها الصغير فاسيا، ييزيد وفانيا بوليانسكي، وكانوا، جميعاً، يراقبونني بفضول ممزوج بالحياء.

أعلنت زويا بوقار:

ـ لن ألعب أيضاً هذا اليوم! لقد رجعت والدتي!

فتقهقر الأطفال حتّى بوابة الحديقة...

أمسكت بيدَيَّ زويا وشورا ودخلتُ بهما الدار، إلى جدّهما وجدّتهما، اللذين ينتظراننا إلى المائدة.

حينما تمضي بك الحياة وأنت في جوار أولادك أبداً، فأنت لا تلحظ التبدّل الذي يطرأ عليهم أو تدهش له. ولكنّني لا أقوى الآن، بعد ذلك الفراق الطويل، على انتزاع عينيَّ عن ولديَّ، إذ أجد شيئاً جديداً يندُّ عنهما في كلّ هنيهة.

لقد كبرت زويا كثيراً. أمست نحيلة القوام، تبدو عيناها النجلاوان الرماديتان، وكأنهما تشعّان في وجهها القاتم. وازداد شورا طولاً، وإن نحل قوامه هو الآخر، بيد أنّه ما يزال قوياً بالنسبة إلى أعوامه الستّة: ففي إمكانه حمل جردل من ماء النبع من دون صعوبة تُذكر، كما اعتاد مساعدة الجدّة أثناء الغسيل بأن يحمل سلَّة البياضات الكبيرة إلى الغدير.

قالت الجدّة، وهي تشخص إليه بفخر:

ـ لقد أمسى شورا رجلاً كاملاً.

وظلَّ الطفلان يقفوان خطاي أيَّان سِرتُ بادئ الأمر، لا يتركانني أغيب عن بصرهما ثانيةً واحدة.

كانا يقولان دائماً، وهما يحملقان فيَّ بشدة:

ـ هل سنغادر المكان وإياك؟ لن تتركينا وحيدين بعد الآن؟

ـ أحقاً أنّ الأحوال هاهُنا رديئة حتّى هذه الدرجة؟

ـ كلا، لكنّنا نشعر بالوحدة من دونك، ومن دون أبينا. رجاءً، لا تخلِّفينا وحيدين بعد الآن! ستأخذيننا معك، أليس كذلك؟ قولي إنّك ستفعلين!

أصيبت زويا وشورا ذلك الشتاء بالحمى القرمزيّة. فامتنعا عن الالتقاء برفاقهما طيلة شهور ثلاثة. وكان رفيقاهما الوحيدان جدّتهما وجدّهما. ولا عجب إذا اكتسب الصغيران لهجة «الكبار» في الكلام. وكان من المضحك أن تسمع إلى زويا وهي تتحدث بمهابة وتفخيم.

خاطبت الأطفال الجالسين على وصيد البيت الثاني، في نغمة ثقيلة رزينة تشبه نغمة الجدة:

ـ الصغار لا يدخّنون. أفلا تكفي المتاعب من دون أن تشعلوا البيت بتدخينكمّ.

وسمعتها مرّة تخاطب صديقة لها:

ـ بارانيا، لماذا تتحدثين مثلما يتحدث سكان الغابات؟ يجب أن تحاولي وتصغي إلى الكبار كيف يتحدثون.

وحدث أن كسر شورا ذات مرة قدحاً، ولم يقرَّ بذنبه. فرمته زويا بنظراتها وعبست...

زجَرتْه بقسوة من علوّ قامة سنيّها الثمانية القصيرة:

ـ لِمَ لَمْ تصرّح بالحقيقة؟ ينبغي ألّا تكذب!

لم نُضِع يوماً واحداً من ذلك الصيف هباءً. كنا نخبُّ على جانب الحقول معاً، ونهبط إلى الغدير، ونساعد الجدة في ترتيب البيت، حتّى كنا ننام جنباً إلى جنب... ورغم كلّ ذلك ما كنّا نبلغ نهاية ما في جعبتنا من أحاديث نتبادلها!

استفسرت زويا:

ـ هل سأذهب إلى إحدى مدارس موسكو في الخريف؟ أفلن يهزؤوا مني لقراءتي الرديئة؟ سيقولون: أفلا ترون أنّها من الريف، أنصتوا كيف تقرأ! ستخبرينهم أني كنت طريحة الفراش طيلة الشتاء. لا تنسي أن تخبريهم بهذا، أفلن تفعلي؟

وقال شورا:

ـ سأذهب إلى المدرسة أنا الآخر. فلست أريد البقاء وحيداً. أريد الذهاب وزويا!

لقد غدوا صديقين حميمين... إنهما لم يتذمّرا، من قبل، حتّى من بعضهما بعضاً. وهما الآن ينهيان سائر نزاعاتهما وخلافاتهما بين بعضهما. إنّهما يتصالحان على الدوام سريعاً بعد جفوة أو كدرٍ بينهما، وما أكثر ما كانا يدافعان عن بعضهما بعضاً.

روتْ لي الجدّة هذه القصّة:

زارت امرأة أخي سيرجي وولداها نينا وفاليري غابات الرجّاج، قبيل وصولي بقليل. وكانت تلك الأيام خدرة حارة، والليالي تكاد تخنق الأنفاس، وأجمع رأيهم على أن تقضي آنا فلاديميروفنا وطفلاها الليل في مخزن العشب المجفّف. ومضت زويا وشورا إلى هناك

أيضاً. واضطجعوا جمعياً يطلبون النوم. وفجأة جال في خاطر شورا، الذي كان يضطجع قرب الحافة، أنّ إرسال الرعب في قلوب الضيوف سيكون أمراً باعثاً على الضحك. فغمر رأسه وغطس بين العشب... وإذا سكون الليل يمزّقه صوت هسهسة غريبة...

قالت نينا، في همسة راجفة:

ـ هل تسمعين، يا أمّاه؟ إنها أفعى!

ـ هراء. لا يمكن ذلك!

فانفجر شورا ضاحكاً، وانتظر برهة، وإذا الهسهسة ترتفع من جديد. وخمَّنت العمّة آنا القصة، فقالت بحدّة:

ـ شورا، أنت تجبرنا على اليقظة! امْضِ إلى غرفتك، وانفخ ما شاء لك الهوى هنالك، إذا أردت ذلك.

وقفل شورا إلى البيت طائعاً. ونهضت زويا لتلحق به.

ـ إلى أين تقصدين، يا زويا؟ ابقي هنا!

فأجابت زويا:

ـ كلا، ما دمت قد طردتِ شورا. فلن أبقى هنا أنا الأخرى.

كانا دائماً على هذا الغِرار: يساندان بعضهما بعضاً. ولكن هذا لم يمنع شورا عن الصياح بصوت جهوري غاضب أحياناً، عندما تخاطبه زويا، قائلاً:

ـ اطفحي من هنا! دعيني وشأني! سأفعل ما أريد!

فتردُّ زويا في لطفٍ وحنوّ:

ـ كلا، لن تفعل، لن أسمح لك!

جميعاً، مرّة ثانية

وصلنا موسكو في أخريات شهر آب، وكان أناتولي بتروفيتش ينتظرنا في المحطة. قفز الطفلان من العربة قبل الجميع، وهرولا للقاء والدهما. ومن ثمّ توقَّفا. فهما لم يجتمعا به طيلة سنة كاملة، فلا بدَّ أنهما استشعرا بعض الارتباك والبلبلة.

فهم أناتولي بتروفيتش حيرتهما، فتلقَّفهُما بين ذراعيه، ورغم كونه متحفّظاً غير ميّالٍ لإظهار عواطفه، فقد جعل يقبِّلهُما بقسوة، ويشدُّ شعرهُما القصير، ويخاطبهما وكأنهما غادرا البارحة فقط:

ـ حسناً، سأريكما الآن العاصمة موسكو. فلنرَ إذا كانت تشبه غابات الرجّاج.

ركبنا حافلة ترام ـ يا لتلك التجربة الجديدة الجسور! ـ وجعلنا نكردح ونجوب أرجاء موسكو. نمرُّ بالدُّور الشامخة، والدراجات النارية، والسابلة المسرعين. وكان الطفلان يلهمان المشاهد وقد التصق الأنف منهما بزجاج الحافلة.

كاد شورا يُصاب بالبكم لمرأى ذلك الجمهور العظيم من السابلة في الشارع. فصاح، وقد غفل عن ضبط نفسه، مثيراً الابتسامات بين الركّاب:

ـ إلى أين هم ذاهبون؟ وأين يعيشون؟ وفيم هذا العدد العديد منهم؟

واعتصمت زويا بالصمت، إلّا أنّ المرء كان يلاحظ الاهتمام ذاته ملتصقاً بوجهها: أسرع! أسرع! إنّنا نريد رؤية كلّ شيء، ومعرفة كلّ شيء عن هذه المدينة العظيمة الجديدة الرائعة!

بلغنا، في نهاية المطاف، ضاحية موسكو. دارة صغيرة بالقرب من أكاديمية تيمريازيف الزراعية. وصعدنا إلى الطابق الثاني ودخلنا غرفة صغيرة: طاولة، وسريران ونافذة

صغيرة... نحن في بيتنا!

إنّ اليوم الذي يصحب فيه الإنسان ولده إلى المدرسة للمرة الأولى لهو من أسعد الأيام المذكورة في حياته! ومما لا ريب فيه أنّ الأمّهات بأجمعهنّ يذكرن ذلك اليوم أيضاً! وإني لأذكره بدوري. كان ذلك الأوّل من أيلول عام 1931 يوماً مشرقاً لا غيمة فيه. وكانت الأشجار المحدقة بأكاديمية تيمريازيف مذهّبة جميعاً، وأوراق جافة تخشخش تحت أقدامنا، تهمس بأشياء غريبة مبهمة ـ لا بدّ أنّها كانت تقول إنّ ولديّ سيعيشان، من الآن فصاعداً، حياة جديدة.

كنت أقودهما من يديهما، يسيران قدماً، مهيبين وقورين، وجلين بعض الشيء من دون شكّ. وكانت زويا تحمل في يدها الأخرى حقيبة مدرسيّة تقبض عليها بعنف، وفي بطن تلك الحقيبة يستلقي كتاب الأحرف الأبجديّة، وبعض الدفاتر المسطَّرة بخطوطٍ مائلة ومربّعات، وعلبة أقلام. وكان شورا يودُّ من صميم قلبه أن يحمل هذه الحقيبة الرائعة، غير أنّ زويا حملتها لكونها أكبر سنّاً. فبعد ثلاثة عشر يوماً تتمُّ زويا الثامنة، ويُداني شورا السابعة.

كان شورا صغيراً جداً من دون ريب، ورغم ذلك فقد قرّرنا إرساله إلى المدرسة. لقد اعتاد صحبة زويا، فليس يتصوّر كيف سيكون حاله وزويا تغدو إلى المدرسة مخلِّفة إياه وراءها في البيت. وعلى كلّ حالٍ فليس هناك إنسان يمكن تركه بصحبته: فأناتولي بتروفيتش وأنا نشتغل جميعاً.

كنت المعلم الأوّل لطفليّ، إذ كنت المسؤولة عن الصف التحضيري، فأرسلت إدارة المدرسة زويا وشورا إليّ.

وهكذا دخلنا غرفة الدرس. فانتصب لتحيّتنا ثلاثون صبياً وصبية، جميعهم في سن ولديّ. ووضعت زويا وشورا على مقعد واحد، غير بعيد عن اللوح، وبدأت الدرس...

وأذكر أنّ فتىً صغيراً قد ركب رأسه، في تلك الأيّام الأولى، أن يقفز حول زويا على قدم واحدة وهو يغني:

ـ زويا. زويا، إنها جدُّ نحيلة، قد وقعت في صندوق الزبالة!

كان يزعق بهذه الكلمات السخيفة مسروراً كلَّ السرور. وتصغي زويا في سكون، غير متأثّرة مطلقاً. وتقول بهدوء عندما يتوقف الصغير برهة لالتقاط أنفاسه:

ـ لم أكن أدري أنك على هذا القدر من الغباء!

ويطرف الصبيُّ مرتبكاً دهشاً، ويعيد أنشودته مرة أو مرّتين، لكن ليس بالحماسة ذاتها، ثمّ يغادر زويا وحيدة.

وحدث مرّة، وكانت زويا عريفة للصف، أن كسر أحد التلامذة نافذةً في الصف. فلم أقصد عقاب الجاني: إذ لست أعتقد أنّ ثمّة إنساناً في الوجود لم يكسر في حياته نافذة واحدة على الأقل، وإلّا كانت الطفولة تنعدم. ولقد كسر شورا مثلاً عدداً من زجاج النوافذ أكثر من أي طفل آخر أعرفه.

لم أدخل غرفة الصف دفعة واحدة، بل تردّدت في الممشى أفكّر في كيفيّة بدء الحديث مع الأطفال، وآمل أن يقرَّ المذنب بجريرته بمحض إرادته وعندئذٍ بلغني صوت زويا:

ـ من كسر الزجاج؟

فرحت أسترقُ النظر إلى الصف في هدوء. كانت زويا واقفة على أحد المقاعد، والأطفال قد تحلَّقوا حولها.

واستفسرت زويا ثانية:

ـ من كسر الزجاج، تكلَّموا؟

وأضافت، وفي صوتها يتهدَّج اقتناعٌ عميق:

ـ أستطيع معرفته من عيونكم. على أيّة حال!

وتبع ذلك هدوءٌ تام، وإذا بيتيا ريابوف، وهو فتىً منتفخ الخدّين، أفطس الأنف، كثير الضوضاء، ينبري قائلاً وهو يصعِّد زفرة عميقة:

ـ أنا هو...

ويظهر أنّه قد صدَّق فعلاً أنّ باستطاعة زويا أن تقرأ في عينيه أعمق أفكاره. لقد أعلنت ذلك، وكأنّه ليس ثمة ظلٌّ من الارتياب في قدرتها عليه! إلّا أنّ قصّة بسيطة تكمن، في الحقيقة، خلف كلماتها تلك. كانت الجدّة مافرا ميخائيلوفنا تقول لأحفادها دائماً وقتما يأتون أمراً إدّاً:

ـ من فعل هذا، والآن، انظروا في عينيَّ، فأنا أستطيع معرفة كلّ شيء بمجرّد تطلّعي في عيونكم!

وتذكرت زويا طريقة الجدة الرائعة في اكتشاف الحقيقة.

وما أسرع أن نُقل شورا وزويا إلى صفّ آخر، وإليكم كيف حدث هذا:

كانت زويا تحترم نفسها كثيراً ولا تعتمد على قرابتنا أبداً. بل كانت تناديني في بعض الأحايين ليوبوف تيموفييفنا، مشيرة بذلك إلى أنّها في الصف كباقي التلاميذ، وأني بالنسبة إليها، مثلي بالنسبة إلى سائر الآخرين، معلمة الصفّ ليس غير. بيد أنّ شورا كان يتصرف بأسلوب مغاير تماماً. فهو يترقّب، أثناء الدرس، لحظة سكون تام، ويناديني على حين بغتة «ماما!» ـ ويُتبع ذلك بنظرة خبيثة يلقيها على المحيطين به.

كانت نزوات شورا تثير شغباً وبلبلة في الصف: المعلمة ليوبوف تيموفييفنا، ثمّ ماما على حين فجأة؟! وحَسِبَ الأطفال أنّ ذلك يسلّي كثيراً، لكنه كان يعوق أعمالهم. فلم يكن لي بدٌّ

بعد مرور شهر واحد من نقل طفليَّ إلى معلّمة الصف الموازي.

وامتلكت المدرسة والأعمال المدرسية منازع زويا بكاملها. فلا تكاد تدخل البيت وتتناول شيئاً تسدُّ به داعي الجوع، حتّى تجلس إلى وظائفها، فلم نضطرّ قط أن نذكّرها بها. كانت الدراسة بالنسبة إليها الشيء الأكثر أهميّة، الشيء الذي استولى على جميع أفكارها. فهي تنسخ كلّ كلمة، وكل إشارة، باعتناءٍ وحرصٍ بالغين، وتلتقط دفاترها وكتبها بتأنٍّ ووداد فكأنهم أحياء يحسُّون.

وما إن يجلس الطفلان إلى دروسهما حتّى تستوضح زويا بحدّة:

ـ شورا، هل يداك نظيفتان؟

وجنح، في البدء، إلى أن يشقّ عصا الطاعة...

ـ وماذا يهمّكِ من هذا؟ دعيني لوحدي!

سوى أنّه عدل عن هذا بعد زمن، فهو ينطلق ويغسل يديه قبل الإمساك بأحد دفاتره، دونما حاجة إلى تذكيره بذلك. ويجب أن أقول إنّ تلك الحيطة كانت واجبة: فطفلنا شورا يرجع من الساحة وقد غمره الوحل حتّى أذنيه، بعد فترة من اللهو مع أنداده من الصغار. وما كنت تقدر في بعض الأحيان أن تفهم كيف يستسيغ أن تبلغ وساخته حتّى ذلك الحدّ. ليلوح وكأنّه فرك نفسه بالرمل، ثمّ بالفحم، ثمّ بالكلس، وأخيراً بغبار الآجرّ والقرميد...

وكان الطفلان يحضّران دروسهما على طاولة الغداء. فتجلس زويا منكبّة على كتبها طيلة ساعات، أمّا شورا فأقصى مدة بالنسبة إليه نصف ساعة. إنه يتشوّق إلى الخروج، يلعب مع الأطفال في الشارع، فلا يني يتنهّد ويرنو إلى الباب بنظراته.

وجاء ذات عشيّة بمجموعة من القرميد وعلب الكبريت، وصفّها في حذر صفّاً واحداً، بحيث قسم الطاولة إلى نصفين...

خاطب زويا قائلاً:

ـ هذا النصف لك، وهذا لي. إيّاك والتجاسر على الدنوّ من حصّتي!

فتساءلت زويا في دهشة:

ـ وماذا عن كتاب الأحرف الأبجديّة؟ وقنينة الحبر؟

فلم يماطل شورا في الجواب:

ـ تستطيعين أخذ كتاب الأحرف الأبجدية؟ وآخذ أنا قنينة الحبر!

فزمزمت زويا بحدّة، ونقلت القرميد حالاً عن الطاولة:

ـ كفاك لعباً!

لم يكُ خيار شورا ليوافق على تحضير الدروس من غير قليل من المزاح، فهو يحاول أبداً إحالة الوظيفة إلى ملهاة. وماذا تستطيع إزاء ذلك؟ فهو لم يثب فوق السابعة من عمره على أيّة حال!

عيد

في السابع من تشرين الأول، عيد ثورة أكتوبر، غادر ولداي الفراش قبل شروق النور: لقد وعد والدهما أن يصطحبهما إلى العرض، فكانا ينتظران ذلك اليوم بفراغ صبرٍ عظيم.

أنهيا إفطارهما بسرعة فائقة. وبدأ أناتولي بتروفيتش يحلق ذقنه، فما كان الطفلان يستطيعان أن ينتظراه حتّى يتمّ ما بدأ، فتذهب محاولاتهما للتلهّي أدراج الرياح.

وأخيراً لبسنا معاطفنا وخرجنا إلى الشارع. كانت الريح تعصف في الخارج، ومطرٌ خفيف يهطل ممتزجاً بندف الثلج، والطقس لا يبعث على شيء كثير من السرور... ولكنّنا لم نخطُ عشر خطوات حتّى سمعنا إلى الأمام منّا ضجيج الاحتفال: الموسيقى، والأغاني، والحديث، والضحك. وكانت الشوارع تزداد صخباً ومرحاً بمقدار ما كنّا نقترب من وسط المدينة. ومن حسن الحظّ أنّ هطول المطر انقطع سريعاً. أمّا السماء الرمادية فلم ينتبه إليها أحدٌ من الصغار أو الكبار ـ لقد كان في كلّ مكان عددٌ عظيم من الأعلام الأرجوانيّة المشعشعة، والألوان البرّاقة الزاهية.

ولدى رؤية الموكب الأوّل من المحتفلين جُنَّ زويا وشورا فرحاً، واجتاحت قلبيهما غبطةٌ لم تنقطع حتّى نهاية المظاهرة. كانا يقرأان كلّ يافطة بصوت مرتفع، وإن كانت بعض الكلمات تلقي في فكرهما البلبلة والحيرة، ويشاركان في كلّ جوقة، ويأخذان بالرقص على أنعام موسيقى كلّ جماعة تمرُّ بجانبهما. لم يكونا يسيران فحسب، بل كانت موجة الغبطة العارمة تجرفهما جرفاً، فتسطع خدودهما وتبرق عيونهما، بينا سقطت قبعتاهما على مؤخرة الرأس منهما (إذ لم يكن لهما بدٌّ من التطلع إلى الأعلى بصورة مستمرة)، وأصبح كلامهما سلسلة من الهتافات المتلاحقة.

ـ انظروا، انظروا! ما أروع ذلك! يا لها نجمة! هناك، هناك! تلك هي البالونات! انظروا الآن!

وعندما بلغنا الساحة الحمراء هدأت ثائرة الطفلين، فأدارا رأسيهما إلى الأيمن، ومنذ ذلك الحين لم تفارق عيونُهما الضريحَ لحظةً واحدة.

سأل شورا، وهو يتكلم همساً لسببٍ ما، ويشدُّ على يديَّ قدرَ استطاعته:

ـ ماما، من ذلك الواقف هناك؟ هل ستالين هناك؟ وفوروشيلوف؟ وبودوني؟

الساحة الحمراء! كم من أفكار ومشاعر ترتبط بهاتين الكلمتين! وكم حلمنا في غابات الرجّاج باليوم الذي نراها فيه! إنها المكان الأروع على وجه البسيطة! إنها المكان الذي يقدّسه ملايين الناس في مختلف أنحاء الأرض! عندما قدمْتُ إلى موسكو قبل عام واحد قصدتُ الساحة الحمراء. ورغم الكثير الذي سمعته وقرأته عنها فأنا لم أحسب قَطّ أنّها ستكون على مثل هذه البساطة والروعة. ولقد تراءت لي الآن، في هذه اللحظة المهيبة، جديدة عليَّ كلّ الجِدَّة...

رأيت الأبنية المرتفعة على جدار الكرملين، وأشجار التنّوب القاتمة المتفكرة حول قبور أبطال الثورة، والاسم الخالد ـ لينين ـ على الألواح الرخاميّة.

كان تيّارٌ لا ينقطع من البشر لا يني يتدفق في موجة عاتية حول جدران الضريح البسيطة الصارمة. وخيِّل إليّ أنّ إيمان الإنسانيّة كلّه. ورجاءها كله، وحبَّها كله، تنبثق هناك في تيارٍ لا ينتهي، نحو المشعل الكبير الذي يدلُّ على الدرب إلى المستقبل.

صاح واحد من صفوفنا:

ـ عاش الرفيق ستالين!

فابتسم يوسف ستالين ولوَّح بذراعه، فردَّت عليه «هورّاه» جبَّارة اجتاحت الساحة بأسرها. كان شورا يرقص أكثر منه يسير بجانبي الآن، وكانت زويا تثب بجانبي أيضاً، متعلِّقة بيد

والدها بشدّة، تموِّج ذراعها الحرة بقوة في الفضاء حتّى لتراءى حقاً أنهم سيلاحظون وجودها من أعلى الضريح.

وهبطنا إلى الأرصفة، وفجأة استرقت الشمس النظر من خلف سحابة، فانعكست أبراج الكرملين وقببه في النهر بشعاعات مرتعشة من الألوان والذهب. ورأينا بائع بالونات يقف عند الجسر فذهب أناتولي بتروفيتش إليه وابتاع ثلاثة بالونات حمراً وبالونين أزرقين ـ فكانت منهم أضمومة زاهية حلوة. أعطى بالوناً إلى زويا وآخر إلى شورا.

استوضح:

ـ وماذا عسانا نفعل بالبقيّة؟

صاحت زويا:

ـ دعها ترقَ الفضاء!

وشرع أناتولي بتروفيتش يفلت بالوناً إثر آخر ونحن نسير، فانثالت تشقّ الفضاء بلطف ووَناء.

صاح شورا وزويا:

ـ فلنرقبْها!

وتوقف أناس آخرون أيضاً، كبار وصغار. وظلَلْنا زمناً طويلاً وقد أشرعنا رؤوسنا إلى الأعلى نراقب بالوناتنا الزاهية الحلوة تعرج في السماء المصحيَّة، وهي تصغر وتصغر حتّى اختفت عن النظر.

أمسياتنا

صدف أن قرأت قبل عدة سنوات رسالة كتبها إنسان قضى فترة مديدة من الزمن في المتاعب مع أطفاله الذين أعلنوا فجأة، بعدما كبروا، أنّه ربّاهم بصورة رديئة!

لقد سأل هذا الرجل: «ما هي خطيئتي؟»، وقعد يقلِّب الماضي في ذاكرته. فتذكر أنّه لم ينتبه لخلاف نشب بين الأطفال. وأنه صنع لصغيره أشياء كان هذا الصغير يتمكن من صنعها جيداً من تلقاء نفسه. وأنه كان يقول لهم عندما يجيئهم بهدية ما: «هذه لك، وهذه لك أنت، وهذه لك»، حين كان من الأوفق أن يقول: «هذا لكم». وأنه يصفح دائماً عن الكذب والإهمال، بينا يروح يثور لهنيات لا قيمة لها. وكتب ذلك الإنسان يقول: «يلوح أنّني أخطأت اللحظة التي أخذت فيها الأنانيّة والرغبة في تجنُّب الواجبات الصعبة تتمكَّن في أبنائي. إنّ أذىً عظيماً قد نشأ عن هنّات تافهة: إنّ أبنائي لم ينشؤوا أبداً كما كنت أحبّهم أن ينشؤوا. إنهم قساة، أنانيّون، كسالى، لا يتفقون مع بعضهم بعضاً».

وتساءل في ختام رسالته: «ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ أأترك البقيّة للمجتمع، للمُتَّحد؟ ولكنه لا بدَّ للمتَّحد عندئذٍ أن يصبَّ شيئاً من طاقته على تصحيح أخطائي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فسوف يصعب ذلك على الأولاد أنفسهم في حياتهم. وثالثاً، تُرى لماذا أخفقت على هذه الصورة المعيبة؟».

نشرت هذه الرسالة في إحدى صحفنا الكبرى، البرافدا فيما أظنّ. وقد جلست طويلاً إلى هذه الأسطر الكئيبة، أفكّر وأتذكر الأمور التي مرَّت عليَّ.

كان أناتولي بتروفيتش معلماً جيّداً. لم أسمعه قط يعظ الطفلين، أو يطيل عليهما الحديث. كان يثقّفهما بسلوكه الخاص، وموقفه الخاص من العمل، وشخصيّته الخاصة. وأدركت أنّ ذلك هو أفضل أنواع الثقافة.

وكثيراً ما سمعت الناس يقولون: «ليس لديَّ متَّسعٌ من الوقت لتثقيف أبنائي، فأنا مشغول طوال النهار». وكنت أفكّر: أينبغي للمرء حقاً أن يخصّص ساعات معيّنة لتثقيف أبنائه؟ علّمني أناتولي بتروفيتش أن أفهم أنّ ثمّة ثقافة في كلّ شيء، في كلّ عمل يقوم به الإنسان، وفي كلّ نظرة وكل كلمة تصدران عنه. إنّ الأشياء جميعاً تثقِّف ابنك: كيف تعمل وكيف تستريح، كيف تتحدث إلى أصدقائك وإلى الناس الذين تكره، وكيف تلوح عندما تكون في صحة جيدة ووقتما تسوء صحّتك، في الكآبة وفي الفرح ـ إنّ ابنك يلاحظ كلّ شيء، وسوف يقلِّدك في كلّ شيء. ولكنّه إذا ما تناسيته، إذا ما تناسيت عينيه اليقظتين الباحثتين عن النصيحة والمثال في كلّ عمل من أعمالك، إذا ما شبَّ طفلك بجانبك حسن التغذية، والمأوى، واللباس، لكن وحيداً ـ فلن ينفع شيء إذن في تثقيفه، لا الدمى الثمينة، ولا النزهات في الأعياد، ولا محاولات الإقناع الصارمة. ينبغي لك أن تكون مع طفلك على الدوام، وينبغي أن يحسَّ قربك منه في كلّ شيء، فلا يضطرّ مطلقاً إلى الشكّ في ذلك.

كنّا، أناتولي بتروفيتش وأنا، مشغولين كثيراً لا نقضي إلّا النزر اليسير من الوقت مع ولدينا. فبينا أنا أُعلِّم في مدرسة ابتدائية كنت أتلقى الدروس في مؤسسة تربوية. وكان أناتولي بتروفيتش يعمل في أكاديميّة تيميريازيف، ويأخذ دروساً في الاختزال ويبذل كثيراً من الجهد كي يبدأ دراسات خارجيّة في مؤسسة تكنيكية ـ وهو حلم ما أكثر ما رعاه. وكنّا كثيراً ما نصل إلى البيت في ساعة متأخرة جدّاً بحيث نجد الطفلين نائمين. لكن سرورنا يفيض كثيراً في الأمسيات التي نقضيها معاً.

ما كنّا نظهر على عتبة الباب حتّى يندفع الطفلان في اتجاهنا ويغمرانا بكل ما كدَّساه طوال النهار. وما كان يعبّران عن ذلك بصورة متماسكة. لكنّه كان في أحاديثهما كثير من الضوضاء والشعور.

ـ إنّ جرو أكولينا بوريسوفنا اندسَّ في دولاب الطعام وقلب إناء الحساء! لقد تعلمت القصيدة! لقد ركبتني زويا من جديد! بلى، ولماذا لم ينجز حساباته؟ انظرا ماذا اقتطعنا. إنه لطيف، أليس كذلك؟ ولقد علّمت الجرو كيف يتسوَّل، وقد حفظ دروسه تقريباً حتّى الآن!

وكان أناتولي بتروفيتش يكتشف بسرعة مختلفة الأشياء، فيعرف لماذا لم تنجز الحسابات، ويستمع إلى القصيدة التي تعلَّمتها زويا، ويسأل عن الجرو ويلاحظ بصورة عابرة:

ـ ذلك أسلوب قاسٍ في الحديث، يا بنيَّ. أي نوع من التعبير هذا: «لقد ركبتني زويا من جديد»؟ إني لا أطيق الناس الذين يتحدّثون على هذا الغرار.

ونتناول العشاء جميعاً بعد ذلك، ويساعدنا الطفلان في رفع المائدة ـ ثمّ تأزف الساعة المنتظرة طويلاً...

وقد يبدو أنّ ليس ثمّة شيء خاص يستأهل الانتظار. لقد كان كلّ شيء عادياً مألوفاً، فأناتولي بتروفيتش ينظر في الخلاصات التي كتبها، بينا أحضِّر أنا دروس الغداة، وينكبّ زويا وشورا على دفتري الرسم المفتوحين أمامهما.

ما كان نور المصباح يسقط إلّا على المائدة التي جلسنا حولها، فيما تغمر الظلمة بقية الحجرة. وكانت الأصداء الوحيدة التي تتردد في الغرفة هي صرير المقعد تحت شورا، وحفيف أوراق دفتر الرسم.

إنّ شورا يرسم داراً ذات سقف طويل أخضر، يتصاعد الدخان من مدخنتها. وكانت شجرة تفاح تنتصب قريباً من الدار. تحمل ثمرات ناضجة مدوّرة تبلغ كلّ منها حجم كرة القدم. ومن حين لآخر كنت ترى عصافير وورداً، وفي السماء. في منطقة الشمس، نجماً خماسي الشُّعَب... وكانت صفحات دفتر شورا ملأى بالأحصنة، والكلاب، والعربات، وطائرات الركّاب من دون أي ترتيب، فالقلم في يده لا يرتجف أبداً ـ إنه يرسم خطوطاً ثابتة، مستقيمة. ولقد تحقّقت في وقت مبكر أن في شورا موهبةً للرسم.

وهكذا كنّا نجلس وقد انهمك كلٌّ منّا في عمله الخاص، ننتظر أناتولي بتروفيتش أن يقول:

ـ حسناً، والآن فلنأخذ فرصة من الراحة!

وهذا يعني أنّنا سنقوم بلعبة ما. وكثيراً ما كنّا نلعب الدومينو: زويا والأب ضدّي وشورا، وكان شورا يراقب كلّ حركة بدقّة فائقة، وكثيراً ما يفقد زمام نفسه، فيخاصم، وإذا ما خسر احمرَّ وجهه، واستشاط غيظاً، وغصَّ بالدموع. وكانت حُمَيَّا زويا تثور أيضاً، لكن من دون صخب أو ضجيج: كانت تعضُّ شفتها فقط، أو تضمُّ قبضتها الحرة بشدة وعنف.

وكنّا نلعب أحياناً لعبة تدعى «فوق وتحت». ولم يكُ في هذه اللعبة مجالٌ للحذق، بل النرد هو الذي يقرِّر كلّ شيء فيها. فإن أسعفك الحظّ حلّقت باستقامة إلى الأعلى في طائرة نحو الهدف، وإن لم يسعفك الحظ سقطت إلى الأسفل وخسرت. إنّ اللعبة سهلة، لكنها ـ يا لله ـ أخّاذة. وكان الصغيران يصفقان بأيديهما حينما يواتيهما الحظ فيطيران عالياً، وقد غطّيا اثني عشر من المربّعات على اللوحة البرّاقة الألوان.

كانت زويا وشورا مغرمين أيضاً باللعبة التي اخترعتُ، والتي أسميتها «الشخبطة» بكل بساطة: كان ينبغي لأحدهما أن يرسم على قطعة من الورق أي خط منكسر أو متقاطع أو أيّة شخبطة أخرى، وكان ينبغي لي أن أكتشف في الخليط العديم المعنى بذرة صورة مقبلة.

لقد رسم شورا شيئاً أشبه ما يكون ببيضة متطاولة. نظرت إليها، وفكرت لحظة، ثمّ أضفت إليها زعانف، وذنباً، وحراشف، وعينين، وإذا أمام أعيننا...

وصاح الطفلان فرحين:

ـ سمكة! سمكة!

وهذه زويا تلقي على الورقة لطخاً عارية من الحبر، فأحيلها إلى زهرة جميلة: أقحوانة بريّة متفتحة.

وحينما كبر الطفلان قليلاً بدّلنا الأدوار: فأنا التي أقدم «الشخبطة» لهما، وهما اللذان يفكران ما يجب أن يضيفا إليها. وكان شورا لا يتعب من الإبداع: إنه يبني قصراً أسطوريّاً من خط

صغير، ويصنع وجهاً من نقاط قليلة، وشجرة كبيرة متشابكة الأغصان من خط منكسر.

تلك كانت لعبة باعثة على اهتمام عظيم فيما أحسب، ومفيدة إلى ذلك: إنّها تطوُّر الملاحظة، والخيال، وقوة التصوُّر.

لكنَّ أكثر ما كنّا نحبُّ هي اللحظات التي يتناول أناتولي بتروفيتش قيثارته فيها ويشرع يعزف عليها. ولا أدري حتّى إن كان يعزف جيداً، ولكنّنا نحبّ الاستماع إليه فننسى الزمن وكل شيء إذ يعزف أغنية روسية في إثر أغنية.

وكانت مثل هذه الأمسيات قليلة متباعدة، لكنها كانت تضيء الأيام الأخرى بحيث كنّا نتذكرها بامتنان عظيم. وكانت أيّة ملاحظة أو كلمة عتاب موجّهة إلى الطفلين في مثل تلك الساعات تترك انطباعاً عميقاً في قلبيهما، فيما المديح أو كلمة عطوف يرسلان فيهما أعظم السعادة.

قال أناتولي بتروفيتش ذات مرة:

ـ لماذا جلستَ، يا شورا، في أفضل مقعدٍ وتركتَ ماما تجلس في المقعد المكسور المسند؟

ومنذ ذلك الحين لم ألاحظ أنّ شورا استحوذ لنفسه على الشيء الأفضل أو الأكثر راحة تاركاً الشيء الأسوأ للآخرين.

وذات مرّة، رجع أناتولي بتروفيتش إلى الدار قاتم المحيا، وحيَّا الصغيران بشيءٍ من الجفاء غير معهودٍ منه.

سأل شورا:

ـ ما الذي حملك على ضرب أينوتا ستيبانوفا هذا النهار؟

فأجاب شورا بتبسُّلٍ، وقد أطرق بناظريه إلى الأرض:

ـ إنها ثقيلة...

فقال أناتولي بتروفيتش بجلاء وصرامة:

ـ لا تدعْني أسمع شيئاً مثل هذا مرّة ثانية البتة.

وأضاف بعد لحظة من الصمت بصوت أرقٍ:

ـ صبيٌّ كبير مثلك، في الثامنة تقريباً، يضرب بنتاً! أفلا تخجل من نفسك؟

لكن، كيف كانت عيون الصغيرين تبرق وقتما يمتدح أناتولي بتروفيتش شورا لرسومه. أو زويا لوظيفة جيدة أو عمل أنجزته في الدار على خير وجه.

وعندما كنّا نتأخر في العودة إلى الدار، كان الطفلان يسعيان إلى السرير من دون أن ينتظرانا، تاركين دفاترهما على المائدة حتّى نرى كيف حضّرا دروسهما. وكنا نعرف، حتّى حين نترك الصغيرين لساعاتٍ قليلة فقط، كلَّ شيء عن كيف عاشا، وماذا صنعا، وماذا فكّرا، وما حدث أثناء غيابنا، وكان أهم ما في الأمر أنّ كلّ ما كنّا نفعله معاً ـ أكان ذلك لعباً أم عملاً بيتيّاً ـ كان يقرّبنا أكثر فأكثر من الصغيرين، فتنمو صداقتنا عمقاً وحناناً.

على الدرب إلى المدرسة

كانت المدرسة تنأى مسافةً لا تقلُّ عن ثلاثة كيلومترات عن الطريق الرئيسة لـ«ستاروي شوس» حيث كنا نعيش.

كنت أستيقظ قبل الجميع، فأهيّئ الفطور، وأطعم الطفلين، ونبرح المكان والأرض ما تزال سادرةً في عتمةٍ غلوس. وكانت طريقنا تجتاز حديقة تيميربازيف، حيث تنتصب أشجارها سامقة جامدة، وكأنها قد أغرقت بسيلٍ من الحبر الصيني على قاع أزرق يتلألأ على مهل... وكان الثلج يتكسَّر تحت أقدامنا. ويخلِّف تنفسنا شعشعة حلوة على الصقيع المتجمّد على ياقات معاطفنا المصنوعة من الفرو.

وكنّا نسير ثلاثتنا معاً ـ أمّا أناتولي بتروفيتش فيغادر الدار بعدنا، ونخبُّ في البدء يرفرف علينا الصمت، وشيئاً فشيئاً تذوب آثار النوم وتضمحلّ والظلمة جميعاً، وإذ ذاك يبدأ حديث مباغت ما أكثر ما يبعث على الاهتمام.

استوضحت زويا مرة:

ـ مامي! كيف يحدث أن الأشجار كلما كبرت زادت جمالاً وبهاءً، بينا الناس ليسوا على شيء من الجمال وقتما يكبرون!

فأفحمها شورا بجوابٍ حارّ قبل أن يخطر الجواب في فكري:

ـ هراء! فإليك جدتي، وهي العجوز، أفليست جميلة؟ لا ريب في هذا!

أما... كلا، ليس من ينعتك بالجمال الآن: فعيناك تعبتان، وخدّاك مجوَّفان مجعَّدان...

وبدا أنّ شورا استطاع سماع أفكاري، فقال في غيرة وحماسة عميقتين:

ـ كلّ إنسان أحبّه جميل في عينيَّ!

فقالت زويا، بعد تمعُّن قليل:

ـ نعم، هذا حقّ!

وحدث مرة، بينا كنّا نسير ثلاثتنا على الطريق الرئيسة، أن مرّت سيارة نقل إلى جوارنا وتوقف فجأة.

سأل السائق، وهو يرنو إلينا:

ـ هل المدرسة غايتكم؟

فأجبت، وقد بغتتني الدهشة:

ـ أجل.

ـ حسناً، فليصعد الطفلان إذن.

ولم أكد ألتفت حواليَّ حتّى كانت زويا وشورا قد اعتليا ظهر السيارة، فانطلقت هذه ترافقها صيحاتهما الفرحة.

ومنذ ذلك اليوم حتّى طلَّة الربيع، كانت سيارة النقل عينها تلحق بنا ببعض الطريق، وتلتقط الصغيرين وتحملهما كلّ الدرب إلى المدرسة تقريباً. فيقفزان قرب زاوية الشارع، بينا تتابع السيارة طريقها.

وما كنا ننتظر «سيارتنا» البتة... فنحن نهوى أن نسمع إلى صوت بوقها المألوف الواطئ يزمجر خلفنا، وذلك الصوت العميق نفسه يقول:

ـ حسناً! تشبَّثا يا صغيرَيَّ.

ومما لا ريب فيه أنّ درب ذلك السائق اللطيف كانت تتطابق مع دربنا، ولكن الطفلين أحبّا الاعتقاد أنّه يجيئنا قصداً.

تدشين الدار الجديدة

مُنح أناتولي بتروفيتش، بعد قدوم الصغيرين إلى موسكو بسنتين، جناحاً جديداً، أكبر وأكثر راحة، في الرقم 7 من شارع ألكسندروفسكي.

ولن تستطيع معرفة شارع ألسكندروفسكي اليوم: فقد اصطفّت على جانبيه منازل كبيرة جديدة، وفُرشت أرض الشارع والرصيفين بطبقة ناعمة من الإسفلت. وكان ينهض فيه، في تلك الأيام الغابرة، عدّة أكواخ لا تزيد عن الاثني عشر، ريفيّة المظهر إلى حدّ بعيد، يلحق بها حدائق فسيحة، ويترامى خلفها شريطٌ عريض مهجور من الأراضي المهملة الضائعة.

وكان منزلنا ينهض قائماً لوحده، بُعَيْدَ الطريق المعبَّدة، كما يقولون، وفي مكنتي رؤيته من بعدٍ بعيد وأنا قافلة من عملي، حالما أهبط من حافلة الترام. كنا نقطن الطابق الثاني. وكان الجناح الجديد أكثر راحةً وجمالاً من الجناح السابق، فهو أدفأ، وأضوأ، وأوسع.

وأحبّ الصغيران بيتهما الجديد كلّ الحبّ. فهما يحبّان كلّ شيء جديد، فمنحتهما النقلة أعظم الغبطة. قضيا فترة طويلة يحزمان الأمتعة، فجمعت زويا، بعناية فائضة، الكتب والدفاتر والصور المقصوصة من المجلات. واشترك شورا معنا بنشاط، فحزم حاجياته، قطعاً من الزجاج، وحصىً، وصنارات، وقطعاً من الحديد، ومسامير معقوفة، ومجموعة من الأشياء الأخرى ظلَّت الغاية منها سرّاً خفيّاً عليّ.

حددنا إحدى زوايا الدار الجديدة للطفلين، فوضعنا طاولة صغيرة هنالك، وثبَّتنا رفّاً لتوضع عليه الكتب والدفاتر.

صاح شورا، لدى رؤيته تلك الطاولة:

ـ الجانب الأيسر لي!

فوافقت زويا عن طيب خاطر:

ـ والجانب الأيمن لي!

وهكذا تلاشى سببٌ لخصام جديد، كما يحدث كثيراً، من تلقاء نفسه.

واتصلت حياتنا مثلها قبلاً: تتوالى الأيام في العمل والدراسة، أمّا في أيام الآحاد فنحن نستكشف أرجاء جديدة من موسكو، فنذهب إلى سوكولنيكي وراموستكفريشي، أو نركب الترام «ب» الذي يدور حول المدينة، أو نقوم بنزهة في حدائق نيسكوشي.

كان أناتولي بتروفيتش يعرف موسكو جيداً. المدينتين القديمة والحديثة جميعاً، ويقدر أن يروي لنا أشياء عديدة عنها.

استعلم شورا مرة، ونحن نسير على جسر كوزينتسكي:

ـ ولكن، أين الجسر؟

فروى لنا أناتولي بتروفيتش هذه القصة الباعثة على الاهتمام، وفحواها أنّ جسراً حقيقيّاً كان يقوم في هذا المكان في الأيام الغابرة، وأن نهر نيجلينكا قد سُقِفَ وأمسى بذلك تحت الأرض.

وهكذا عرفنا كيف قامت في موسكو تلك «الجدران» و«البوابات» المتنوعة، وتلك الشوارع من أمثال شارع الطاولة، وشارع غطاء الطاولة، وشارع القذيفة، وشارع الترسانة، وساحة الكلب...

وأخبرنا أناتولي بتروفيتش كيف سُمِّي شارع بريسنيا بالأحمر، ولماذا ثمة شارع المتراس وساحة الثورة. فتُنْشر صفحة إثر صفحة من تاريخ مدينتنا الرائعة أمام الصغيرين، فيتعلمان كيف يحبّان ماضيها وحاضرها.

حزن

أخريات شهر شباط...

كنا قد ابتعنا تذاكر للسيرك، ولم نكُ نصحب الصغيرين إلى السينما أو السيرك كثيراً، فكانت مثل هذه الأمسيات عيداً حقيقياً.

كان الصغيران يترقّبان مجيء نهار الأحد بفراغ صبرٍ لا يعرف الحدود. فهما يحلمان برؤية الكلب الممثِّل يعدّ حتّى العشرة، والحصان المغذَّى جيداً يعدو حول المسرح، وعنقه المقوَّس مزخرف بجدائل فضيّة، وعجل البحر المثقّف يثب من برميل إلى برميل ويلتقط الكرة التي يلقيها المروِّض إليه...

لم يتحدّثا طوال الأسبوع إلّا عن السيرك. وحينما حلَّ نهار السبت، وعدت من المدرسة إلى الدار، دُهشت إذ رأيت أناتولي بتروفيتش قد سبقني وسعى إلى سريره على غير عادته.

سألت، والخوف يعتصرني:

ـ فيمَ عودتك باكراً؟ ولمَ أنت مضطجع في الفراش؟

ـ هوّني عليك! سيمرّ هذا. أحسّ بضعف عام فقط، هذا كلّ شيء.

ولا أستطيع القول إنّ هذا عزَّاني كثيراً... فأنا أرى أناتولي بتروفيتش شديد الشحوب، وقد نحف نوعاً ما على حين بغتة، وكأنما أضجعه المرض منذ زمن بعيد. وكانت زويا وشورا يجلسان قريباً، يشخصان إلى أبيهما في قلق وخوف.

قال الأب، وهو يغتصب ابتسامة:

ـ ستذهبان إلى السيرك من دوني هذه المرة.

فقالت زويا:

ـ لن نذهب من دونك أبداً!

وأضاف شورا:

ـ كلا، لن نذهب.

وفي الغداة، ازدادت حال أناتولي بتروفيتش سوءاً. بدأ يشعر بألمٍ حادٍّ ممضٍّ في جنبه، كما انتابته حمَّى. لكنه ضبط أعصابه كعادته، فلم يئنّ أو يتذمر، بل كان يعضّ شفته بقسوة فقط. وأصبحت الحال تتطلَّب طبيباً، بيد أنّني خشيت أن أترك زوجي وحيداً، فقرعت باب جيراننا، إلّا أنّ أحداً لم يردّ عليَّ. مما لا ريب فيه أنّهم خرجوا في نزهة ـ فاليوم يوم أحد! رجعت أدراجي وقد تعاظم قلقي، لا أدري ما ينبغي أن أفعل.

قالت زويا فجأة:

ـ سأستدعي الطبيب!

وقبل أن أفتح فمي للكلام، كانت ارتدت معطفها وقبّعتها.

جهر أناتولي بتروفيتش بصعوبة:

ـ لا تفعلي... فالمسافة بعيدة!

ـ كلا، سأذهب... فأنا أعرف مسكنه! أرجوك!

ومن غير أن تنتظر الجواب، لفظها الباب واستقبلها السلّم تثب عن درجاته.

همس أناتولي بتروفيتش، وقد استدار إلى الجدار ليخفي وجهه الذي اربدَّ بداعٍ من الألم:

ـ حسناً، فلتذهب... فهي فتاة مدركة... ولسوف تجده!

ومرّت ساعة رجعت زويا بعدها بصحبة الطبيب الذي فحص أناتولي بتروفيتش، وقال باختصار:

ـ انسداد معوي. يجب إجراء عملية له في الحال.

وظلَّ إلى جوار المريض، في حين ركضت ساعية وراء عربة إسعاف، ولم تمضِ نصف ساعة حتّى نقلوا أناتولي بتروفيتش. وفيما هم يهبطون به السلَّم ندَّت من بين شفتيه أنّة عميقة، لكنه ضبط نفسه لمّا شاهد وجهَيْ الطفلين الخائفين.

كانت العملية ناجحة، بيد أنّ أناتولي بتروفيتش لم يشعر بالتحسُّن. كان وجهه عديم الحياة يخيفني كلما ذهبت لزيارته... لقد اعتدتُ رؤية زوجي اجتماعيّاً مرحاً، سوى أنّه يضطجع الآن صامتاً، ويرفع ببطء يداً صفراء نحيلة ويضعها في يدي، ويضغط أصابعي بِوَهَنٍ وصمت مماثلين.

وفي الخامس من آذار قمت بزيارته المعتادة...

ابتدرني أحد المساعدين من معارفي في القاعة قائلاً، وهو يرنو إليَّ بنظرات غريبة بعض الشيء:

تمهَّلي لحظة! ستخرج الممرضة أو الطبيب بين ثانية وأخرى.

وذكَّرته بقولي، وقد داعب فكري أنّه لم يعرفني.

ـ لكنّني جئت لزيارة المريض كوسمودميانسكي. ولديَّ تصريحٌ بالدخول.

فأعاد القول:

ـ لحظة واحدة، أرجوك. ستخرج الممرضة بعد برهة.

ومرَّت دقيقة، دخلت الغرفة فيها إحدى الممرضات عجلانة الخُطا...

قال المساعد، وهو يتجنَّب عينيَّ:

ـ اجلسي، أرجوك...

وعند ذاك فهمتُ كلّ شيء...

تفوَّهت بهاتين الكلمتين المستحيلتين اللتين لا تصدقان:

ـ هل... مات؟

فهزَّت الممرضة رأسها، في صمتٍ وسكينة...

ما أفظع أن تفقد إنساناً عزيزاً على قلبك، حتّى ولو كنت تدري منذ أمدٍ بعيد أنّ مرضه عضال لا يُرجى منه شفاء، وأنك لا بدّ ستفقده! لكنّه ليس ثمة أفظع من موت مفاجئ رهيب لإنسان تحبّه... لقد كان هذا الرجل الذي لم يعرف المرض منذ الطفولة ممتلئاً بالعنفوان وفرحة الحياة قبل أسبوع واحد...! والآن، إنه يضطجع الآن في نعشه، لا يشبه نفسه البتة، صامتاً لا يجيب!

لم يتركني الطفلان لحظة واحدة، فزويا ممسكة بيدي، وشورا متعلّق بالأخرى.

ظلَّت زويا تردِّد على مسمعيَّ، وهي ترنو إلى وجه والدها الجامد بعينيه الجافتين الحمراوين:

ـ مامي، لا تبكي!

وفي يوم باردٍ كئيب، كنا ننتظر ثلاثتنا في حديقة تيميريازيف قدوم أخي وأختي. كانا سيشتركان في التشييع. وقد استظلَّينا بشجرة شتائيّة كبيرة، والريح الصرصر القسيّة تصفعنا صفعاً، ونحن نحسُّ الوحدة والهجران.

لست أتذكر مجيء أقاربي، أو كيف أمضينا ذلك النهار الحزين البارد الذي لا نهاية له. ولَتؤاتيني الذاكرة بغموض كيف ذهبنا إلى المقبرة، وكيف انفجرت زويا على حين بغتة وقد أفعم قلبها اليأسُ في ثورة من دموع، وكيف تردَّد صوتُ انهيال التراب على النعش...

يتيمان

منذ ذلك اليوم بالذات تغيّرت حياتي تغيّراً مباغتاً. فقد كنت أعيش من قبل وأنا أعرف وأشعر أنّ رجلاً يقف إلى قربي، وهذا الرجل عزيز على قلبي جداً، أستطيع الاعتماد عليه والوثوق به. لقد ترعرعت معتادة تلك الشجاعة القلبيّة الهادئة التي يمنحنيها، ولم أكُ أتصور كيف يمكن أن تكون الأمور بصورة أخرى. وفجأة، خُلِّفتُ وحدي، أحمل أعباء مسؤولية مصير طفلينا التي أُلقيَتْ على كاهلي.

وكان شورا، من دون ريب، أصغر من أن يلمَّ بالفاجعة التي حلَّت بنا. ولربما بدا له أنّ والده ذهب في رحلة بعيدة، مثلما حدث من قبل، وأنّه لا بدَّ عائدٌ في وقت من الأوقات.

أمّا زويا فقد تملّكها الحزن كشخصٍ بالغٍ.

ونادراً ما كانت تتحدث عن أبيها، فهي تجيء إليَّ ـ حينما تسرح أفكاري متذكرة والدها ـ وترنو في عينيَّ، ثمّ تقترح بهدوء:

ـ أتحبين أن أقرأ لك؟

أو تستوضح:

ـ اروي لنا شيئاً! عن أيام طفولتك...

أو تجلس إلى جانبي، معتصمةً بالصمت، ضاغطةً ركبتَيها على ركبتيَّ.

وقد فعلت جميع ما في وسعها لتجعلني أنسى أفكاري الكئيبة.

لكنّني كنت أسمعها أحياناً، في الليل، تنشج وتبكي. فأمضي إليها وأربِّت على شعرها، وأستفهم بلطف:

ـ أتبكين أباك؟

فتردُّ دائماً:

ـ كلّا، لعلّي كنت أحلم.

كنّا نخاطب زويا غالباً، حتّى قبل أن تحلّ بنا الكارثة:

ـ أنتِ البكر، فاعْتني بشورا، وساعدي أمك.

واتخذت هذه الكلمات الآن معنىً جديداً: لقد أضحت زويا رفيقاً لي ومعيناً.

بدأت أعلّم في مدرستين في آنٍ واحد، فكان عليَّ أن أقضي في البيت وقتاً أقصر ممّا أفعل في الماضي، واعتدتُ تهيئة الغداء في الليل، فتسخّنه زويا، وتطعم شورا، وتنظّف الغرفة، وحينما كبرث قليلاً أخذت تشعل الفرن بنفسها.

وكان الجيران يهتفون:

ـ ستحرق زويا بيتنا! وفضلاً عن ذلك فهي طفلة ما تزال!

وكنت أدري أنّه يمكن الاعتماد على زويا أكثر من كثيرٍ من البالغين. فهي تفعل كلّ شيء في وقته المناسب، فلا يخمر عن بالها شيء، ولا تهمل حتّى العمل التافه الزهيد. كنت أعرف أنّ زويا لن ترمي على الأرض ثقاباً مشتعلاً، وأنها ستغلق المدخنة في الوقت المناسب، وأنها ستلاحظ أيّة قطعة من الفحم تسقط من النار.

رجعت ذات يوم متأخرة إلى البيت، متعبة أشكو صداعاً، بحيث لم تكُ لي قدرة على الطهي. قلت في فكري:

ـ سأهيّئ الطعام غداً. وسأنهض باكراً...

وغرقت في النوم حتّى قبل أن يمسَّ رأسي الوسادة، وأفقت في اليوم التالي متأخرة كثيراً عن وقتي المعتاد. وتوجّب عليَّ براح البيت في حوالي نصف ساعة حتّى لا أتأخّر عن عملي.

قلتُ، قلقة جداً:

ـ يا للإزعاج! كيف تأخرت في النوم! ينبغي أن تذهبا من غير طعام مطبوخ، يا ولديَّ، هذا النهار!

وحينما قفلتُ في العشية، استوضحت الصغيرين حتّى قبل أن ألج الغرفة:

ـ حسناً، أجائعان أنتما؟

فصاح شورا منتصراً، وهو يتراقص صعوداً وهبوطاً أمامي:

ـ لسنا جائعين، بل منفجرين!

وأعلنت زويا فخوراً:

ـ هيا اجلسي وتناولي طعامك، يا أماه. فلدينا سمكٌ مَقلِيٌّ اليوم!

ـ سمك؟ أيُّ سمك؟

كان ثمّة سمك يئزُّ بشكل مُغْرٍ في المقلاة! فمن أين جاء؟

وكلما ازداد تعجّبي، كلما ازدادت غبطة الصغيرين.

ظلَّ شورا يتراقص حواليَّ ويصيح، وأوضحت لي زويا أخيراً مسرورة من نفسها:

ـ مررنا بالبحيرة ونحن في طريقنا إلى المدرسة، وتطلّعنا من خلال حفرة في الجليد، فألفينا سمكة هناك. وأراد شورا التقاطها بيده، ولكنها كانت تنزلق بسرعة. وكانت المربيّة قد أعطتنا في المدرسة علبةً، فوضعناها في الحقيبة كي نحفظ فيها الخفّين. وفي طريق عودتنا توقفنا عند البحيرة حوالي الساعة واصطدنا بعض الأسماك...

وأضاف شورا:

ـ كان في مقدورنا أن نصطاد عدداً أكبر، غير أنّ رجلاً طردنا من جوار البحيرة، قال لنا: «ستُغرقان نفسيكما أو تجمدان أيديكما». لكنّنا لم نفعل.

وتابعت زويا:

واصطدنا الكثير، ثمّ رجعنا إلى البيت، وقلينا ما اصطدنا، وأكلنا منه شيئاً، وتركنا لك شيئاً، طيّب المذاق، أليس كذلك؟

وهيّأت الطعام، ذلك المساء، أنا وزويا: فقد قشرتِ البطاطا باعتناء، وغسلت القمح المقشور، وراقبت بانتباه المقادير التي وضعْتُها في الطنجرة.

وفيما بعد، حينما استعدت في ذاكرتي تلك الأشهر الأولى بعد وفاة أناتولي بتروفيتش، فكثيراً ما فكّرت أن تلك الرزانة في خُلُق زويا، البيِّنة لكل شخص احتكَّ بها، قد نَمَت وترعرعت في ذلك الحين بالضبط.

المدرسة الجديدة

نقلتُ صغيريَّ، بعد وفاة زوجي بمدة قريبة، إلى المدرسة رقم 201. كانت المدرسة الأولى بعيدة جداً، ولذا خشيت من ترك الصغيرين يذهبان إليها وحيدين. وقد تركتُ هيئة التدريس في تلك المدرسة، وبدأت أعلِّم في مدرسة للكبار.

سرَّ الصغيران من مدرستهما الجديدة كلّ السرور منذ البداية... عشقاها منذ اليوم الأوّل، وعجزا عن إيجاد كلمات يعبّران فيها عن إعجابهما، ذلك أنّهما قد تلقيا الدروس حتّى الآن في بيت خشبي صغير، يشبه ذلك الذي في غابات الرجّاج كلّ الشبه. أمّا هذه المدرسة فكبيرة فسيحة، وإلى جانبها يقوم بناء رائع ذو طوابق ثلاثة، بنوافذه الضخمة الواسعة. تلك ستكون مدرستهما في العام المقبل.

وقدّرت عين زويا النافذة نيقولاي فاسيليفيتش كيريكوف، وهو مدير المدرسة رقم 201، حقَّ قدره منذ الوهلة الأولى.

قالت متحمّسة:

ـ ينبغي أن تري القاعة التي ستخصّص لنا! والمكتبة! والكتب العديدة! لم أرَ من قبل مثل هذا العدد العديد: الرفوف حوالي الجدران، من الأرض حتّى السقف، من دون أيّة ثغرة أو فجوة...

وأضافت بعد برهة تفكير (وسمعتُ مرة ثانية تعبير الجدّة «محشو حشواً»):

ـ محشوة حشواً. وقد انطلق بنا نيقولاي فاسيليفيتش إلى البناية وأطلعنا على كلّ شيء فيها. وقال إنّه ستكون لنا حديقة كبيرة وسنزرعها بأنفسنا. ولسوف ترين مدرستنا: ولن تري لها مثيلاً في موسكو كلها!

وقد جُرف شورا أيضاً مع تيار ما يجري في المدرسة، لكنه تعشَّق دروس الرياضة أكثر من أي شيء آخر. لم يكُ يتعب من إخبارنا كيف كان يترجَّح على المتوازيين، وكيف يثب من فوق الحصان الخشبي، وكيف تعلَّم لعب كرة السلة.

وانكبًا على معلمّتهما الجديدة ليديا نيقولاييفنا يورييفا منذ اليوم الأوّل. وأدركت من اندفاعهما الإرادي إلى المدرسة كلّ صباح، وعودتهما إلى البيت منتعشين مسرورين، وإصرارهما على إخباري كلّ كلمة تفوَّهت بها المعلمة ـ أدركت أنّ كلّ شيء، حتّى أتفه تفاصيله، يملك أهميّة خاصة بالنسبة إليهما.

خاطبت زويا مرة، وأنا أقرأ في دفترها:

ـ أعتقد أنك تتركين هامشاً عريضاً.

فردّت زويا متورّدة الوجنتين:

ـ أوه، كلا! فقد قالت ليديا نيقولاييفنا بوجوب هذا، وهي لا تقبل الهوامش الضيقة!

وتلك كانت الحال في سائر الأمور: فجميع ما تقول ليديا نيقولاييفنا يجب أن يصير. وعرفتُ أنّ ذلك ما يجب أن يكون. فالصغيران يحبان معلمتهما ويحترمانها، ويحاولان تنفيذ جميع أوامرها وطلباتها على أفضل وجه ممكن.

كانت زويا وشورا ينجرفان مع كلّ حَدَثٍ يجري في المدرسة.

أعلن شورا متحمّساً:

ـ تأخر بوريس اليوم، وقال: «كانت أمي مريضة وذهبتُ إلى الصيدليّ!». حسناً، إذا كانت أمّه مريضة فلا حيلة لي في الأمر. وهكذا قالت له ليديا نيقولاييفنا: «امضِ إلى مكانك واجلسْ». غير أنّ أمّ بوريس جاءت بعد انتهاء الدروس لترافقه إلى البيت. واستطعنا أن نرى أنّها ممتلئةٌ صِحَّةً، ولا تشكو مرضاً على الإطلاق. واحمرَّت ليديا نيقولاييفنا، وتملَّكها

الغضب، فخاطبت بوريس قائلة: «إنّ أكثر ما أكره هم الناس الذين يكذبون. قاعدتي أنك إذا اعترفت ولم تكذب أبداً، يعني أنّك إذا قلت الحقيقة...».

أصلح شورا خطأه، وقد شعر أنّه بدأ يحوِّر في كلمات معلّمته:

ـ «فمعنى هذا أن نصف خطيئتك تُغتَفر لك». فسألتها: «لماذا تُغتفر له نصف الخطيئة إذا اعترف؟». فردّت ليديا نيقولاييفنا: «إذا اعترف المرء فهذا يعني أنّه فهم خطيئته، فليس ثمّة داعٍ لإنزال القصاص الشديد به. أمّا إذا أنكر ذنبه، فمعنى هذا أنّه لم يفهم شيئاً وسيرتكب الإثم نفسه من جديد، وهذا يعني وجوب إنزال العقاب به إذن...».

وإذا كانت نتائج امتحانات الصف رديئة، فإنّ زويا ترجع إلى الدار مكتئبة الوجه بحيث أتوجَّه إليها فزعة:

ـ هل نلتِ علامة سيئة؟

فتردُّ مغمومةً:

ـ كلا! لقد حصلتُ على علامة جيّدة، غير أنّ مانيا فيدوتوفا أخطأت في كلّ شيء. وهكذا فعلتْ نينا ليوبيموفا أيضاً. وقالت ليديا نيقولاييفنا: «لشدّ ما أنا آسفة إذ أُضطرّ إلى إعطائكما، أيتها الفتاتان، علامةً سيئة...».

ورجعت ذات يوم من عملي أبكر من المعتاد. فلم أجد الصغيرين في البيت. وهرولتُ قلقةً إلى المدرسة، والتقيت بليديا نيقولاييفنا، وسألتها إن كانت تعرف أين هي زويا.

أجابت:

ـ أعتقد أنّ الجميع برحوا إلى بيوتهم. لكن، فلنرَ في الصف.

ورقينا حتّى باب غرفة الصف، وأنفذنا بصرنا من خلال زجاج الباب.

كانت زويا واقفة إلى اللوح الأسود مع ثلاث فتيات أخريات. كانت اثنتان منهنّ تفوقانها طولاً، لهما الضفائر الرقيقة نفسها. أمّا الثالثة فقصيرة، ممتلئة الجسم. مجعدة الشعر. وكانت تبدو عليهنَّ أمارات الاهتمام والجدّ، والفتاة المجعدة الشعر مفتوحة الفم قليلاً.

كانت زويا تخاطبها، وفي صوتها نغمة تبكيت لطيف.

ـ ماذا تفعلين؟ عندما تُضاف الأقلام إلى الأقلام، تحصلين على أقلام. لكنك تضيفين أمتاراً إلى كيلومترات. على ماذا تحصلين إذن؟

وفي تَيْكَ اللحظة التقت عيني ومضة بيضاء في آخر الصف. رنوت إلى تلك الناحية. كان شورا جالساً على الدكة الخلفية، مشغولاً بطائرة مصنوعة من الورق.

فَصَلنا عن الباب على رؤوس أقدامنا. ورجوتُ ليديا نيقولاييفنا أن ترسل زويا إلى البيت سريعاً، وألّا تسمح لها في المستقبل بالتأخر كثيراً بعد انتهاء الدروس. وفي العشية أخبرت زويا بضرورة رجوعها إلى الدار بعد انتهاء الدروس فوراً.

قلتُ لها:

ـ حاولت العودة اليوم أبكر من المعتاد، لأنّي وددتُ لو أقضي فترة قصيرة من الوقت معكما، فلم أجدكما في البيت. لا تتأخّرا إذن في المدرسة تضيِّعان الوقت سدىً.

أصغت زويا لي بهدوء، لكنها أعلنت فجأة بعد انتهاء العشاء:

ـ ماما، أصحيح أنّه مضيعة للوقت إذا حاولتُ مساعدة الفتيات الأخريات؟

ـ لماذا مضيعة للوقت؟ ذلك عمل جيد، أن نساعد الآخرين.

ـ إذن، لِمَ قلتِ «لا تبقيا تضيَّعا الوقت سدىً»؟

فعضضت شفتي وفكرت (ولربما للمرة المائة) كيف يجب أن يحترس المرء في اختيار كلماته حين يتكلم مع الأطفال!

ـ كنت أريد تزجية بعض الوقت معكما. وفضلاً عن ذلك، فلست حرّة من العمل في كثير من الأحيان.

ـ لكنك، أنت نفسك، تقولين إنّ العمل قبل كلّ شيء.

ـ هذا صحيح. لكن عملك أيضاً أن تعني بغذاء شورا، ومع ذلك كان جالساً في المدرسة جائعاً، ينتظر ساعة تغادرين.

فنبر شورا:

ـ كلّا، لم أكُ جائعاً، فقد حملت زويا معها وجبة طيّبة إلى المدرسة.

وفي الصباح التالي سألتني، وهي منطلقة إلى المدرسة:

ـ أيمكنني التأخُّر قليلاً مع الفتيات اليوم؟

ـ لكنْ، لا تتأخري كثيراً، يا زويا.

فأجابت:

ـ نصف ساعة!

وأدركت أنّها ستكون نصف ساعة تماماً، ولا دقيقة زائدة.

الأساطير اليونانيّة

أردت أن نستمرَّ في حياتنا على العادات التي بدأها أناتولي بتروفيتش. فكنّا نتجوَّل في أرجاء موسكو في أيام عطلتنا كما كنّا نفعل يوم كان معنا. إلّا أنّ تلك النزهات كانت ترسل الكآبة في قلوبنا. فنحن أبداً نفكِّر بوالدنا. وفي العشيات كانت تسلياتنا وألاعيبنا فاشلة جميعاً ـ فنحن نفتقد الوالد، ونكاته، وضحكه.

وذات عشية، في طريق عودتنا إلى الدار، توقفنا عند دكانِ جوهريّ. كانت النافذة المضاءة برَّاقة بشكل يبهر النظر. أنوار قرمزيّة، وزرق، وخضر، وبنفسجيّة تتضوأ وتشعُّ من قلب الأحجار الثمينة. كان ثمّة عقود، وأساور، وأقراط متلألئة. وفي المقدّمة تماماً، غير بعيد عن الزجاج، وسادة كبيرة من المخمل تضطجع عليها صفوف وصفوف من الخواتم. وفي كلّ خاتم منها يلتمع نوع من الدُرّ، فيتراءى لك أنّ زخّات من الشعاعات المتباينة الألوان تتطاير من كلّ حجر، تماماً كما تتطاير من حجر المسنّ أو من ذراع الترام. وفتن ذلك الضوء الغريب الصادر عن المجوهرات نظر الصغيرين وخلب لبّهما.

قالت زويا فجأة:

ـ وعدني والدي بأن يخبرني لماذا تحتوي الخواتم على مجوهرات، ولكنه لم يفعل أبداً...

وعلى حين غرّة جنحت إلى الصمت، وضغطت على يدي بشدة، فكأنها تسأل الصفح لأنّها ذكّرتني بأبيها.

وقاطعها شورا:

ـ أمِّي، أتعرفين لِمَ تحتوي الخواتم على مجوهرات؟

فرحتُ أروي لهما، ونحن ندبُّ على الطريق، قصّة بروميثيوس. ظلَّ الصغيران يحدّقان فيَّ بثبات، ينهلان كلّ كلمة أقول، ويتجنّبان بصعوبة الاصطدام بالسابلة. كانت تلك الأسطورة العريقة عن الجبار الذي رضي في سبيل الإنسان بذلك المصير المدهش، وتحمَّل العذاب الأليم، تملكُ عليهما المنازع والخيال.

رحت أقصُّ عليهما:

ـ وذات يوم قدم هرقل (وكان رجلاً لطيفاً قوياً بصورة غير معهودة، بل بطلاً حقيقيّاً) إلى بروميثيوس. وما كان يخاف أحداً، حتّى ولا زيوس نفسه. قطع بسيفه تلك السلسلة التي تُقيِّد بروميثيوس إلى الصخرة، وأطلق سبيله، ولم يتخلّ بروميثيوس، حسب أمر زيوس، عن السلسلة أبداً: فقد بقيت حلقة تضمُّ شظية من الصخر حول معصمه. ومنذ ذلك الوقت، ووفاءً لذكرى بروميثيوس، والناس يلبسون في أصابعهم خواتم تحتوي على مجوهرات.

وبُعَيْد عدة أيام حملت للصغيرين كتاباً عن الخرافات اليونانية من المكتبة وطفقت أقرأه عليهما بصوت عالٍ. والغريب أنّهما أصغيا إليَّ أوّل الأمر، رغم اهتمامهما ببروميثيوس، غصباً عنهما. ويظهر أنّ أنصاف الآلهة، هؤلاء الذين يصعب تذكر أسمائهم كثيراً، قد لاحوا بالنسبة إليهما باردين، بعيدين، غريبين، لا يشبهون في شيء أصدقاءهما القدماء: الدبّ ذو الأسنان الحلوة، والثعلب باتريكييفنا، والذئب الأشهب، وصياد السمك الغبي الذي ترك ذيله في حفرة الجليد، وأصدقاء آخرين عريقين في القدم من الأساطير الشعبيّة الروسية. وشيئاً فشيئاً، راح أبطال الخرافات هؤلاء يتخذون طريقهم إلى قلبَي الصغيرين، وطفقت زويا وشورا يتحدّثان عن برسوس، وهرقل، وإيكاروس، وكأنهم أحياء يتحركون.

وأذكر مرّة، وقتما قالت زويا إنّها تستشعر الأسف على نيوب، فنبر شورا بحرارة:

ـ لكن، لماذا تبجَّحت وتفاخرت؟

وأدركت أنّ أبطالاً آخرين من الكتب سيصبحون أعزّاء قريبين على قلبَيْ ولديّ. وما زلت أذكر حتّى الآن حادثة أخرى.

قالت زويا متفكرة ذات يوم حين أبصرتني أقرأ قصة «ذبابة الدواب» للكاتب فويونيتش:

ـ تصوري أنّك أنت، الكبيرة، تبكين...

فأجبت:

ـ لسوف تقرئين هذا الكتاب يوماً ما.

ـ ومتى سيكون ذلك؟

ـ يوم تبلغين، مثلاً، الرابعة عشرة.

فقالت زويا:

ـ أوه، أمامي انتظار طويل إذن.

كان من الواضح أنّ مثل تلك المرحلة تبدو، بالنسبة إليها، مديدة بصورة هائلة، بل بصورة لا تُصدّق.

الكتب التي يحبّان

عزفنا عن لعب «الدومينو» في الأمسيات التي أكون فيها حرّة. فاعتدنا أن نقرأ بصوت عال، أو بالأحرى أنّني كنت أقرأ بينا يصيخ الصغيران السمع.

واعتدنا أن نقرأ بوشكين أوّل الأمر كثيراً. فقد كان عالمه عالماً خاصاً محبوباً الحبّ كلّه، يفيض بالجمال والفرح. وكان من السهل تذكُّر أشعار بوشكين، وما كان شورا يكلُّ من ترديد الأبيات التي تتحدث عن السنجابة، هذه التي:

كانت تغني أغنياتها الصغيرة دائماً،

وتقرقع جوزاتها الصغيرات أبداً.

لكنَّ تلك الجوزات لم تكن عادية،

بل كانت قشورها جميعاً بالذهب مكسوَّة

وفي باطنها أحجار ياقوت حقيقيّة!

ورغم أنّ الصغيرين كانا يعرفان الكثير من بوشكين عن ظهر قلب، فهما يسألانني دوماً:

ـ أمّاه... اقرئي لنا شيئاً عن السمكة الذهبية... عن القيصر سلطان...

شرعت مرّة أقرأ لهما «طفولة تيوما» للكاتب جارين. وبلغنا المقطع حيث جلد والد تيوما ولده بسبب إناء الورد المكسور. ولشدّ ما رغب الصغيران في معرفة ماذا سيحدث بعد ذلك، لكنّ الوقت كان متأخراً، ولذا أرسلت الصغيرين إلى الفراش، وحدث أنّي لم أستطع، لا خلال الأسبوع ولا نهار الأحد التالي، أن أقرأ لهما بقية القصة: كان عليَّ عمل كثير يجب إنجازه،

ووظائف عديدة ينبغي تصليحها، وجوارب يجب رفوها، وأخيراً، نفد صبر زويا، فتناولت الكتاب وقرأت بقية القصة.

وهكذا كانت البداية، راحت زويا تلتهم كلّ ما تقع عليه يداها، أكان أسطورة، أم جريدة، أم كتاباً مدرسيّاً. كان يلوح أنّها تحاول اختبار قابليّتها على القراءة كالكبار، لا سبع صفحات فحسب، بل الكتاب برمّته. وعندما كنت أقول لها «أنت ما زلت صغيرة قليلاً كي تقرئي مثل هذا، يجب أن تكبري قليلاً أوّلاً». فما كانت تعارض، بل تدع الكتاب جانباً عن طيب خاطر.

وأضحى أركادي جايدار كاتبنا المفضّل. كنت أدهش من طريقته البارعة في كتابة كتب للأطفال تتحدث عن أشياء ذات أهميّة عظمى في الحقيقة. كان يخاطب قرّاءه الفتيان بجدٍّ فكأنّه يعاملهم بالتساوي، من غير أن ينخفض بمستوى الحديث بسبب أعمارهم. كان يعرف أنّ الأطفال يقتربون من مختلف الأشياء وهم ينتظرون منها الكثير: إنهم يطلبون من الجرأة أن تكون بريئة من الخوف تماماً، ومن الصداقة أن تكون قلبيّة خالصة، ومن الإخلاص ألّا يكون مشروطاً. كان لهيب الفكر النبيل يشعُّ في صفحات كتبه، فهو يرفع قارئه، مثل مایاکوفسكي، مع كلّ سطرٍ من أسطره، يدعوه لا إلى سعادة صغيرة منعزلة، بل إلى السعادة العظمى العموميّة التي تُبنى في وطننا. كان يدعو الناس ويعلّمهم أن يناضلوا في سبيل تلك السعادة، أن يبنوها بأيديهم نفسها.

أيّة مناقشات كنا نخوض بعد قراءة كلٍّ من كتب جايدار! كنّا نتحدث عن مبلغ عدالة ثورتنا، وعن مبلغ الفارق بين المدرسة المتوسطة القيصريّة ومدرستنا، وعن ماهية الإقدام والخضوع للنظام. كانت هذه الكلمات ملأى، في كتب جايدار، بمعنى بسيطٍ مفهوم بصورة مدهشة. وأتذكر أنّ زويا وشورا أُعجبا خاصة بالقصة التي تروي كيف جلب بوريس جوريكوف الدمار، بصورة غير إراديّة، على صديقه العجوز شوبوك، بالضبط لأنه نسي أن يكون حذراً في حملة استكشافيّة، وذهب للسباحة من غير أن يأخذ بذلك أذناً.

صاح شورا:

ـ تصورا فقط! لقد حسب أنّه سيسبح... وهؤلاء هم قد أسروا شوبوك!

وقالت زويا:

ـ ولقد مات شوبوك حاسباً أنّ بوريس خانه! تصوّر فقط ما لقيه بوريس من متاعب بعد ذلك! أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يظلَّ حيّاً مع معرفته بأنّ صديقه أُعدم بسببه!

وقرأنا «الأراضي البعيدة» و«السرّ العسكري»، وأعدنا قراءتهما مراراً وتكراراً. كنت أسرع إلى شراء كلّ كتاب جديد لجايدار توَّ صدوره وأحمله إلى الدار. وكان يبيّن دائماً أنّ الكتاب يُعنى بالشؤون التي تثير اهتمامنا وعواطفنا أكثر من أي شيء آخر في تلك اللحظة.

سألت زويا مرّة:

ـ ماما، ترى أين يعيش جايدار؟

ـ أحسب أنّه في موسكو.

ـ أفلا يكون من الرائع أن نراه؟

المعطف الجديد

كانت تسلية شورا المفضلة هي لعبة «لصوص القوزاق» التي يلعبها مع أبناء الجيران. فكانوا يحفرون كهوفاً، وسط الثلج شتاءً، وفي الرمال صيفاً، ويشعلون ناراً ويندفعون وهم يتصايحون ويزعقون في الشوارع.

وذات يوم، قرابة العشية، حدث اندفاع عنيف في الصالة، وانفتح الباب، وانتصب شورا على عتبته، لكن في حالة عجيبة! قفزتُ وزويا من مقعدينا. كان شورا يقف أمامنا وقد تلطّخ بالطين من رأسه حتّى قدميه، أشعث الشعر، ناضح الوجه عرقاً. بيد أنّنا اعتدنا ذلك كله. لكن الشيء المخيف هو أنّ أزراره وجيوب معطفه ممزَّقة، تتثاءب في أمكنتها ثغرات كبيرة مشرشرة ذات حوافٍ مهلهلة.

سرت البرودة في أوصالي، ورحت أرنو إليه في صمت. لم يكُ قد انقضى زمن قريب على شرائي ذلك المعطف. تناولت المعطف من دون أن أنبس ببنت شفة ورحت أنظفه، ووقف شورا هنالك ذليلاً مطأطئ الرأس، يتحايل على وجهه في الوقت ذاته تعبير حرون عنيد غير مبالٍ. وكان مظهره يلوح وكأنما يقول: «حسناً، ثمّ ماذا؟». كان يفعل هكذا في أغلب الأحيان، وعندئذٍ تصعب معاملته جداً. وكرهت أن أصيح، ولما أحسست أنّي عاجزة عن الحديث معه بصورة هادئة فقد عزفت عن النظر إليه، ورحت أحاول إصلاح المعطف صامتة دائماً. ولم يتردد في الغرفة أي صوت، فمرّت حوالي خمسة عشرة دقيقة أو عشرين على هذا المنوال، تراءت لي وكأنها ساعات طويلة.

همهم شورا خلف ظهري بنبرات متلاحقة:

ـ ماما، سامحيني... لن أفعل ذلك ثانية.

وردّدت زويا:

ـ سامحيه، يا أماه.

فأجبتُ، من دون أن ألتفت:

ـ حسناً.

ظللتُ قابعة حتّى ساعة متأخرة من الليل أصلح المعطف الممزّق. وحينما أفقتُ من نومي في اليوم التالي كانت الظلمة ما تبرح جاثمة، وشورا منتصباً عند رأس سريري، يترقّب على ما يظهر أن أفتح عينيَّ.

ـ ماما، سامحيني... لن يحدث مثل هذا مرة ثانية.

قال ذلك بصوتٍ خافت ضعيف. ورغم أنّ الكلمات التي ندَّت عنه هي الكلمات نفسها التي نطق بها البارحة، فقد قيلت هذه المرة بلهجة مختلفة كلّ الاختلاف ـ بألمٍ وتوبة حقيقيّة.

سألت زويا، عندما بقينا وحيدتين في الغرفة:

ـ أتحدثتِ إلى شورا عما حدث الليلة الفائتة؟

فأجابت بعد فترة صمت:

ـ نعم، لقد فعلت.

ـ وماذا قلتِ له؟

ـ قلتُ... قلتُ إنك تقومين بالعمل كله لوحدك، وأن ذلك شاقّ عليك... وإنك لم تغضبي، بل فكَّرت فقط في وليجة نفسك: ماذا سنفعل الآن وقد تلف المعطف؟

الباخرة شيليوسكين

استوضحتُ شورا:

ـ أتذكُر قصة والدكَ عن حملة سيدوف؟

ـ نعم، يا أمّاه.

ـ أتذكُر كيف قال سيدوف قُبيل انطلاقه: «كيف يمكننا الذهاب إلى القطب بمثل هذه المعدّات! نحن نملك عشرين كلباً بدلاً من ثمانين، وثيابنا ممزقة، وطعامنا نادر...». أتذكُر...؟ حسناً، انظر هاهُنا، ها هي ذي كاسحة جليد ستغادرنا الآن إلى القطب الشمالي. أي شيء لم يحملوا على الباخرة! لقد فكّروا في كلّ شيء ـ من الإبر حتّى البقر.

ـ بقر؟ أيّ بقر؟

ـ أجل، ثمّة ست وعشرون بقرة حيّة على المركب، وأربعة خنازير، وبطاطا طريّة وخضراوات. لست أظنّ البحارة سيجوعون في هذه الرحلة.

فأضافت زويا، وهي ترنو إلى الصحيفة من فوق كتفي:

ـ ولن يهرّئ البرد جلودهم. انظري، يا لهذه المجموعة من الأشياء التي يحملون: ثياب من الفرو، وسراويل النوم من الفرو أيضاً، وثمّة فحم وبنزين وزيت كاز...

وتدخَّل شورا، في وقت غير ملائم:

ـ ومزالج جليديّة! وعربات، وجميع الأدوات العلميّة. إنها لمعدات كاملة...! أوه، وهذه مدافع! سيستخدمونها في قتل عجول البحر والدبب القطبيّة.

لم يخطر لي وقتذاك أنّ الباخرة «شيليوسكين» ستضحي مدار أحاديثنا. ولم تكُ أخبار الصحف وافرة، أو لربما لم تلحظها عيناي. وعلى أية حال، فإنّ تلك الأخبار التي دخل بها شورا الغرفة فجأة ذات يوم قد غمرتني بالدهشة.

صاح شورا، متورّد الخدّين أشعث الشعر، وهو يندفع داخل الغرفة.

ـ ماما! شيليوسكين! الباخرة التي حدثتني عنها! لقد سمعتُ عن ذلك لتوّي...!

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد تحطَّمت! في الجليد!

ـ والرجال؟

ـ لقد أنقذوا جميعاً. على جبلٍ عائم من الثلج. ما عدا رجل واحد سقط عن ظهر السفينة...

ما كنت أستطيع أن أصدق ذلك. وقد تبيّن أنّ شورا لم يختلق شيئاً ـ كانت الواقعة حديث البلاد كلها. ففي الثالث عشر من شباط («هم على حق عندما يقولون إنّ الرقم 13 رقم مشؤوم!»، هذا ما قاله شورا قانطاً) حطَّمت جبال الجليد في القطب الشمالي تلك الباخرة. لقد تحطَّم جانبها الأيسر تحت ضغط تلك الجبال العظيم، ولم تمض ساعتان حتّى كانت الأمواج قد ابتلعت في جوفها الباخرة «شيليوسكين».

وأفرغ الرجال في فترة تينك الساعتين ما يكفيهم من المؤونة لمدة شهرين، ومجموعة من الخيم، وحقائب النوم، وطائرة، ومحطة هوائيّة. وطفقوا يهتدون في مسيرهم بواسطة النجوم، ويحاولون الاتصال بالمحطات القطبيّة على يابسة شوكوتسك، وسرعان ما شرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً، ومطهىً، وبرجاً للإشارات...

وما أسرع أن حملت الجرائد والإذاعة أخباراً عديدة. لقد نظَّم الحزب والحكومة لجنة لإنقاذ بحّارة الباخرة شيليوسكين. وهبَّت البلاد من دون تأخر لتشارك في أعمال الإنقاذ، فأصلحت

كاسحات الجليد بسرعة، وجُهّزت البواخر للانطلاق، والطائرات للطيران.

واستعدّت الطائرات في الرأس الشمالي، في ويلن وخليج العناية الإلهية، للإسراع إلى مكان الكارثة. وانطلقت الزحافات التي يجرّها الكلاب من ويلن في اتجاه المخيّم، فيما مخرت كاسحة الجليد «كراسين» عباب المحيط، ملتفة حول العالم. وأبحر المركبان البخاريان «سمولنسك» و«ستالينجراد» إلى مسافات لم يبلغها من قبل أي مركب بخاري زمن الشتاء، حاملين الطائرات إلى رأس أوليوتورسكي.

لست أحسب أنّ إنساناً في طول البلاد وعرضها لم تكُ أفكاره مع رجال «شيليوسكين». وكانت زويا وشورا يتابعان تطوّرات الحادثة بأنفاس متلاحقة. ما كنت في حاجة إلى الإصغاء للراديو أو قراءة الصحف ـ فالصغيران يعرفان الأخبار جميعاً حتّى أدقّ التفاصيل، ولا يكفّان طوال ساعات عن المناقشة في موضوع واحد: ماذا يصنع بحّارة «شيليوسكين» الآن؟ فيم يفكرون؟ أهم خائفون؟

كان مائة وأربعة منهم على الجبل الجليدي العائم، بمن فيهم ولدان. وكان شورا يحسدهما:

ـ أيجب أن يسعدا بهذا الحظ لوحدهما؟ إنهما لا يفهمان شيئاً، فأحدهما لم يبلغ الثانية بعد، والآخر ما برح في مهده. لو أني كنت هناك...!

ـ شورا فكِّر في الأمر لحظة! كيف تسمي ذلك حظاً؟ أيكون الناس في مثل ذلك المأزق وتتحدث عن «الحظ»؟

لكن شورا طرح اعتراضي جانباً. كان يقتطع كلّ سطر في الصحيفة يتعلَّق برجال «شيليوسكين». لم يكن يقتطع سوى ما يقال عن الشمال والصخور الجليدية السابحة والمخيَّم ـ كما يراه هو.

كنا نعرف أنّ رجال «شيليوسكين»، رغم الكارثة الراعبة التي نزلت بساحتهم، لم يذعروا أو يفقدوا صوابهم. كانوا أباة يتدفقون شجاعة ـ لقد كانوا أُناساً سوفييتيّين حقيقيّين. لم

يضيِّع أحدهم صوابه، بل يقوم كلّ واحد بواجبه خير قيام، ويجمع الملاحظات العلمية، وكانوا محقّين حين دعوا الصحيفة التي أصدروها أثناء إقامتهم فوق الجليد: «لن نستسلم!». لقد صنعوا مواقد من براميل القصدير، ومقالي ومصابيح من القصدير، وملاعق محفورة من قطع خشبية. وكانت نوافذ أكواخهم مصنوعة من الزجاجات، وكانوا يتحلَّون بما يكفي من الحذق والمهارة والصبر كي يحلّوا سائر مشاكلهم. وكم طنّاً من الجليد حملوا على ظهورهم كي يمهدوا أرضاً لمطار على الجليد! كانوا يمهدون الحقل نهاراً، فتسّاقط القطع الجليديّة في الساحة من جديد ليلاً، مدمّرة كلّ أثرٍ من آثار عملهم الشاق العنيد. لكن رجال «شيليوسكين» الشجعان كانوا يعرفون أنّ الخلاص آتٍ من دون ريب، ففي بلاد السوفييت لن يترك الحزب والرفيق ستالين أي إنسان في مأزق.

ثمّ إنّ زويا هتفت بالأخبار الجديدة، وذلك في مطلع آذار («أوان الاحتفال بيوم المرأة العالمي»): لقد هبطت طائرة ليابيديفسكي على الجليد، ورجعت بالنساء والطفلين. وسمعت الناس يقولون فيما حواليَّ: «ليابيديفسكي! يا له من رجل!».

كانت زويا وشورا ينطقان باسم مولوكوف في كثير من الاحترام. والحقيقة أنّك كنت لا تستطيع سوى التقاط أنفاسك حينما تسمع ما كان يصنع هذا الطيّار المقدام. كان يحمل الرجال في أراجيح مصنوعة من المظلات مربوطة بأجنحة الطائرة، قاصداً بذلك أن يعجِّل بإنقاذ البحّارة، ويقوم بعدة سفرات في يوم واحد. لقد حمل لوحده تسعة وثلاثين رجلاً عائداً بهم عن الجليد.

وكان شورا يحلم بصوت عالٍ:

ـ لو أنّني أقدر أن أراه فقط!

وأرسلت اللجنة الحكوميّة عدداً إضافياً من الطائرات من كامشاتكا وفلاديفستوك لإنقاذ بحارة «شيليوسكين». وعرف الناس في تلك الآونة أنّ الجليد يتحطَّم في أمكنة عديدة فيما حول المخيّم، وأن شقوقاً جديدة عملاقة قد بانت إلى جانب لطخ عريضة من المياه،

وأنّ الجليد يترنّح ويتحوّل إلى شراذم من القطع الجليديّة. وفي الليلة التالية لليوم الذي نُقلت النسوة والطفلان فيه انهارت المهاجع الخشبية التي كنَّ يقمن فيها. إنّ طائرة ليابيديفسكي جاءَت في الوقت المناسب تماماً.

وما أسرع أن وقعت كارثة جديدة: إنّ كتلة من الجليد جرفت المطهى ودمّرت المطار حيث كانت تقف طائرة سليبنيف. كانت الحال على خطورة قصوى، تزداد تهديداً يوماً بعد يوم ودقيقة إثر دقيقة. إنّ الربيع يزدهر، فيستقبل شورا الأيام الدافئة بشيء كثير من الحقد، ويهتف مستاءً غاضباً:

ـ أيام مشمسة من جديد! وسوف يذوّب كلّ شيء مرة أخرى!

وعلى أيّة حال، فقد كان عدد الناس الباقين على الجليد يتناقص يوماً بعد يوم، وأخيراً لم يبق ثمّة أحد منهم في الثالث عشر من نيسان. إنّ البحّارة الستة الآخرين أُرجعوا إلى اليابسة سالمين.

صاحت زويا بشورا بلهجة ظافرة:

ـ حسناً، هل الرقم 13 رقم مشؤوم؟

قال شورا بعاطفة فيّاضة:

ـ ما أعظم الفرحة إذ نعرف أنّ كلّ شيء قد انتهى الآن!

وإني على يقين من أنّ فرحهما ما كان ليكون أعظم لو كانا من بين الغرقى على كتلة الجليد العائمة.

إنّ كلّ إنسان يعيش على الأرض اليابسة خاف على حياة أولئك المقيمين على كتلة الجليد. أمّا الآن فإنّ شهرَي الانتظار الخانقَين انتهيا وذهبا إلى غير رجعة!

كنت قد قرأت فيما مضى الشيء الكثير عن الرحلات القطبية، إذ كان أناتولي بتروفيتش يُعنى بالشمال كثيراً ويملك عدداً لا بأس به من الكتب التي تتحدّث عن القطب ـ وجلُّها أقاصيص وروايات. وتذكرت من الكتب التي قرأت في طفولتي أنّ الناس الضائعين في الجليد كثيراً ما يُعمِّر قلوبهم الحقد، والشكّ المتبادل، والرغبة الحيوانية في أن ينقذ كلٌّ منهم جلده الخاص، ويحفظ صحّته الخاصة، حتّى بثمن حيوات رفاقه السابقين وصحّتهم.

لكن ذلك كلَّه كان غريباً عن ولديّ، وفي الحقيقة أنّه كان غريباً عن سائر الأطفال السوفييتيّين. كانوا يرون أنّ طريقة بحّارة «شيليوسكين» المائة في العيش والسلوك طوال شهرين على الجليد، وشجاعتهم، وصمودهم وروحهم الرفاقية، هي أكثر الأشياء في العالم طبيعيّة.

واستقبلت موسكو، في أواسط أيار، رجال «شيليوسكين». كانت السماء رمادية مكفهرَّة، لكنّني لا أستطيع أن أتذكر يوماً أكثر بريقاً ولمعاناً! لقد جاء الطفلان في ساعة مُبكرة إلى شارع جوركي حيث خيّل إلينا أنّ موسكو بأسرها تجمّعت هنالك. لم يكن على الأرصفة مكانٌ لقدم. وكانت الطائرات تدوِّم فوق الرؤوس، وكنت ترى في كلّ مكان، على جدران المنازل، وفي النوافذ الصغيرة، وفي واجهات المحلّات العملاقة، صوَّرَ أولئك الذين أصبحوا أعزّاء أليفين إلينا كثيراً، أبطال الباخرة، «شيليوسكين» ومنقذيهم. كنت ترى في كلّ مكان أعلاماً جبّارة، زرقاً وقرمزيّة. وكنت تسمع كلمات تأهيل حارّة، ولا تلقى للأزاهير نهاية.

وفجأة ظهرت سيارات من ناحية محطّة روسيا البيضاء. وإذ كانت تقع أنظارك عليها، فما كنت تحسب للوهلة الأولى أنّها سيارات. كان يتراءى كأنّ نوعاً من الحدائق الطائرة أو الأسرّة الوردية الضخمة المنقولة على دواليب تتقدَّم! وتجاوزتنا ميمِّمَةً شطر الساحة الحمراء. كانت تمرُّ بك كومةٌ من الورود وباقات ضخمة، وضفائر من الزهر، وكل ما تستطيعُ أن تميِّز في وسطها جميعاً وجهُ امرئٍ ضاحك مُنفعل، ويده التي تلوِّح لك. وكان الناس يرمون من على الأرصفة والنوافذ، ومن على الشرفات والسطوح، مزيداً من الورود، بينا

الطائرات تلقي منشورات تنتشر في السماء مثل الفراشات وتغمر الإسفلت بطبقة كثيفة مخشخشة من الورق.

وتناول رجلٌ طويل لوَّحته الشمس شورا عن الأرض ووضَعَه على كتفه، فكان يلوح من هناك أنّ ابني يهتف بصوت يعلو على سائر الأصوات.

نبرت زويا مبهورة الأنفاس:

ـ يا له نهاراً سعيداً!

ولأحسب أنّ هذه الكلمات كانت تتردَّد على شفتي كلّ إنسان ذلك اليوم.

شقيقته الكبرى

لم تكُ زويا تنسى قَطّ أنّها أكبر من شورا، وهي كثيراً ما تعنِّفه:

ـ شورا، زرِّر معطفك! أين زرّك؟ أقطعته مرةً ثانية؟ لا فائدة تُرجى من أن يخيط المرء لك. هل تقطع أزرارك عن عمد وقصد؟ ينبغي أن تتعلّم كيف تخيطها بنفسك.

وكان شورا أبداً تحت حمايتها، وما كانت تقصِّر أو تتعب، رغم صرامتها، من العناية به. وهي تدعوه أحياناً، حين تكون غاضبة منه، ألكسندر، وهو اسمه الكامل، الذي يرنُّ وقعُه مؤثِّراً محرِّكاً للعاطفة أكثر من شورا الضئيل الحقير.

ـ ألكسندر، إنّ ركبتيك ظاهرتان مرة ثانية فاخلع جوربيك حالاً!

فيخلع شورا جوربيه صاغراً، وترتُق زويا جميع الثغرات.

كان الأخ والأخت لا ينفصلان عن بعضهما البتة، فيذهبان إلى النوم في وقت واحد، وينهضان في وقت واحد، ويذهبان إلى المدرسة معاً، ويرجعان منها معاً. ورغم أنّ شورا يصغر أخته زويا بعامين، فقد كان يساويها بطول القامة تقريباً. ثمّ إنّ شورا أقوى بنيةً. لقد كبر حتّى أمسى كشجرة سنديان حقيقيّة فتيّة، بينا ظلّت زويا نحيلة تلوح هشّةً سهلةَ الانكسار. وإذا شئت أن أصرِّح بالحقيقة، فقد كانت زويا تزعج أخاها بملاحظاتها، لكنه نادراً ما يتمرَّد، وما كان يخطر في باله قَطّ أن يدفع شقيقته أو يضربها حتّى في أعنف لحظات الخصام بينهما. كان دائماً يطيعها من دون سؤال.

وحينما انتقلا إلى الصف الرابع، قال شورا:

ـ حسناً، إليك الحقيقة! لن أقعد وإياك في المقعد ذاته بعد الآن... اكتفيت من الجلوس مع فتاة!

ولم تجادله زويا، بل أجابت بحدّة:

ـ سوف تجلس معي، وإلّا عدت تطلق طائرات من الورق في الصف من جديد. أنا أعرفك.

فاحتجَّ شورا بعنف واحتداد، غيوراً على استقلاله. ولم أتدخَّل بينهما. لكنّي سألتُه في عشيّة اليوم الأوّل من شهر أيلول:

ـ حسناً، يا شورا، مع أيّ صبيّ تجلس في الصف الآن؟

فأجاب شورا، وقد قطّب وجهه وكشَّر في الوقت ذاته:

ـ مع صبيٍّ يدعى زويا كوسمودميانسكايا. ألا جرِّبي فقط أن تجادليها!

وكنتُ مهتمَّة كثيراً لأعرف تصرُّفات زويا مع الأطفال الآخرين. كنت لا أراها سوى مع شورا، وفي أيام الآحاد مع الأطفال الصغار الذين يُغيرون على شارعنا.

وكان الأطفال الآخرون، مثلهم مثل شورا، يحترمون زويا كثيراً، ويطيعونها في كلّ ما تقول. وإذ تكون عائدة من المدرسة، كانوا يتعرفون إليها من خطوتها السريعة وقبّعتها الصوفية الحمراء عن بعدٍ بعيد، فيهرعون لملاقاتها وهم يصيحون صيحات هذه كلماتها الأساسية: «اقرأ! العبْ! أرْوِ!». وكانت زويا تناول حقيبتها لشورا، وتفتح ذراعيها بقدر استطاعتها، وخدّاها الزيتونيّا البشرة متورّدان بتأثير البرد والانفعال، وتحتضن أكبر عددٍ ممكن من الأطفال المتجمّعين حولها.

وكانت أحياناً توقفهم في صفٍّ واحد، ومن ثمّ تسير وإياهم وهي تنشد نشيداً ثورياً عتيقاً تعلّمته في المدة الأخيرة في غابات الرجّاج، أو أغنيات أخرى ينشدونها في المدرسة.
وأحياناً أخرى تلعب بكرات الثلج مع الأطفال الصغار، لكن تحت إشراف أحد البالغين دائماً. وكان شورا على نقيض ذلك، فهو ينسى كلّ شيء على الأرض. إنه يجمع كتل الثلج في

مثل لمحِ البرق، ثمّ يضربها، ويروغ من الكرات التي يستهدفونه بها، ويطوِّح بنفسه في غمار معركة جديدة من غير أن يمنح خصومه أيّة مهلة أو راحة.

وتصيح زويا:

ـ شورا، إنهم صغار! ابتعد! أفلا تدرك أنّه يجب ألّا تلعب معهم على هذا الشكل؟

ثمّ كانت تدفع الصغار على المزالج، وتروح تتحقق من أنّ الجميع مبكَّلة أزرارهم، وأنهم قد التفوا بثيابهم جيداً بحيث لا يُصابون بتيار الريح في آذانهم، أو يتسرّب الثلج إلى أحذيتهم.

وفي الصيف، بينا كنت عائدة من عملي. رأيتها قريباً من البحيرة محاطة بقطيع من الصغار. كانت جالسة وقد أحاطت ركبتَيها بذراعَيها، ترنو متفكّرة إلى الماء وهي تسرد شيئاً ما في لطفٍ وحنوّ. واقتربت منها...

سمعتها تقول:

ـ... وكانت الشمس عالية عالية، والنبع بعيداً بعيداً، والحرارة شديدة بحيث ينضح المرء عرقاً. وتطلّعا، فأبصرا قربة ماعز تفيض بالماء. ونطق إيفانوتشكا الصغير قائلاً: «يا أختاه أليونوتسكا، سأشرب من هذه القِربة!»، فقالت: «لا تشرب، يا أخي الصغير، وإلا أصبحتَ ماعزاً...».

وابتعدت في هدوء، أسير على مهلتي بحيث لا أزعج الصغار: كانوا قد أعاروها آذانهم يصغون في اهتمام زائد، وجوههم عامرة بشفقة مكتئبة على العاصي البائس إيفانوتشكا، بينا زويا تعيد سرد النغمات الحزينة للجدة مافرا ميخائيلوفنا بصدق وعاطفة عظيمتين...

لكن، كيف كانت زويا مع الأطفال الذين يماثلونها في العمر؟

اعتادت مرة أن تنطلق إلى المدرسة مع لينا، وهي فتاة دارها لصق دارنا. ثمّ لاحظت أنّهما أقلعتا عن الذهاب معاً.

ـ هل تخاصمتِ ولينا؟

ـ كلا، لم نتخاصم. لكنني لا أريد أن أكون صديقة لها.

ـ لِمَ لا؟

ـ هي لا تفتأ تقول لي: «احملي حقيبتي». كنت أحملها لها أحياناً، ومن ثمّ قلت لها: «احمليها بنفسك، فلديَّ حقيبة يجب أن أحملها». أترين، لو كانت مريضة أو متعبة لحملتها لها، فذلك لا يصعب عليَّ. لكنّها في صحة جيدة، فلِمَ أفعل ذلك إذن؟

فتدخّل شورا لإنهاء القضية:

ـ زويا على حق. إنّ لينا تلك تحبّ أن تسيطر على سائر الذين حولها.

ـ حسناً، ولماذا قطعت صداقتك بتانيا؟

ـ إنها تروي كثرة من الأكاذيب الملفّقة، ويتّضح أنّ كلّ كلمة تقولها تكون كذباً. ولن أصدق حرفاً مما تقول بعد الآن. كيف يمكن أن نبقى صديقتين إذا لم تصدق إحدانا الأخرى؟ وأكثر من ذلك إنها ليست عادلة. فنحن نلعب ألعاباً مختلفة، وهي تغشّ أبداً. وعندما نعدُّ، فهي تغشّ أيضاً.

ـ لكن ينبغي أن تخبريها أنّه لا يليق بها التصرُّف هكذا.

فأوضح شورا:

ـ لقد أخبرتها زويا مراراً!

ـ وأخبرها الأولاد جميعاً ذلك، وحتى ليديا نيقولاييفنا، لكنك لا تستطيعين شيئاً معها!

فخشيت أن تكون زويا صارمة جداً مع الآخرين فتجد نفسها آخر الأمر بعيدة كلّ البعد عن أصدقاء صفها. وقد أرسلتُ خلف ليديا نيقولاييفنا ساعة وجدتُ متسعاً من الوقت.

قالت ليديا نيقولاييفنا، بعدما سمعت ما رويت لها:

ـ إنّ زويا فتاة مستقيمة شريفة. وهي، على الدوام، تجعل الأولاد يقولون الحقيقة الصُراح. وقد خشيت أوّل الأمر أن يعاديها أصدقاؤها ويقفوا ضدّها. لكن لا، لم يحدث شيء من هذا. وهي تحب تكرير هذا القول: «أنا على أتمّ استعداد للعبة عادلة». ويرى الأطفال أنّها حقاً تدافع عمّا هو حقّ...

وأضافت ليديا نيقولاييفنا مبتسمة:

ـ وقد سألني ذات يوم أحد الصبية أمام الجميع: «ليديا نيقولاييفنا، تقولين إنك لا تفضلين إنساناً على إنسان، فماذا عن زويا كوسمودميانسكايا؟». وأعترف أنّي ذُهلت قليلاً. ومن ثمّ استوضحته: «هل ساعدتك زويا في إنجاز وظائفك؟». فأجاب: «أجل ساعدتني». واستدرت إلى صبيّ آخر: «وأنت؟» ـ «لقد ساعدتني أيضاً». ـ «وأنت؟ وأنت؟»... وكانت النتيجة أنّ زويا قد صنعت شيئاً حسناً لكل واحد منهم تقريباً، فسألت: «كيف لنا الامتناع عن حبّها إذن؟». ووافقني الجميع... أجل، إنهم يحبّونها جميعاً... وأكثر من ذلك، إنهم يحترمونها، وإنّ هذا لشيءٌ كثير إذا ما أخذنا سنّها بعين الاعتبار.

وتابعت ليديا نيقولاييفنا، بعد صمتٍ قصير:

ـ إنها فتاة شديدة الحزم، ولن تتنازل عن شيء تؤمن أنّه حقّ. والأولاد يدركون أنّها صارمة قاسية تجاه نفسها أيضاً. إنها تتطلّب من نفسها بمقدار ما تتطلب من الآخرين. وبالطبع، ليس من السهل أن يكون المرء صديقاً لها.

وابتسمت ليديا نيقولاييفنا:

ـ أمّا بالنسبة إلى شورا فالأمر مختلف. إنّ لذلك الصبيّ العديد من الأصدقاء. وثمّة أمر واحد: فهو لا يترك البنات من غير أن يكابدهنَّ أو يشدّ ضفائرهنّ. يحسن أن تحدّثيه عن ذلك.

سيرجي ميرونوفيتش كيروف

صورة كيروف ـ وقد جلّها السواد. إنّ فكرة الموت لا تليق به ـ مثل هذا الوجه الصريح التقي الهادئ. وفي الزاوية العليا اليمنى من الصحيفة نبأ يقول إنّ سيرجي ميرونوفيتش كيروف قتله أعداء الحزب والشعب.

وكان حزننا عاماً شاملاً في الحقيقة ـ حزناً عظيماً بحيث إنّ زويا وشورا أحسَّا به وشاهداه للمرة الأولى. وقد أثّر فيهما ذلك بشكل ملحوظ. فظلّا له ذاكرين مدة طويلة من الزمن بعد ذلك: ذلك الموج الذي لا نهاية له من الناس المتدفّقين ببطء واكتئاب صوب «دار اتحاد النقابات»، وكلمات الحزن والحب التي يرسلها المذياع، وصفحات الجرائد المليئة بالوعيد، وأصوات ووجوه القوم الذين ما كانوا يستطيعون، في تلك الأيام، أن يتكلموا ويفكروا سوى في شيء واحد...

واستوضحت زويا:

ـ ماما، أتذكرين كيف قتلوا الشيوعيين في سيتكينو؟

كانت زويا على حقّ. فثمة صلة مباشرة بين اغتيال كيروف ومقتل شيوعيّي القرى السبعة. فالقديم يكره الجديد كراهية لا ترحم. وفي سيتكينو أيضاً ضربتْ قوى العدوّ من الخلف، وها هم الآن قد ضربوا بِغَدْرٍ من الخلف مرّةً ثانية. ضربوا مَنْ كان الأتقى بين الجميع، وعزيزاً علينا حتّى الدرجة القصوى، قتلوا رجلاً احترمه الشعب بأسره وأحبَّه، محامياً مخلصاً يدافع عن حقوق الشعب، بلشفياً ناضل حتّى لحظته الأخيرة في سبيل سعادة الشعب.

واستلقيت في تلك الليلة فترة طويلة والنوم يجافيني. كانت الليلة ساكنة هادئة. وعلى حين غرّة سمعت صدى خطوات عارية، ومن ثمّ صوتاً هامساً:

ـ أماه، أنائمة أنت؟ أيمكنني الدخول؟

ـ أجل، يا زويا.

واستكانت إلى قربي. كان الصمت يسودنا.

سألتُ أخيراً:

ـ لِمَ لَمْ تنامي؟ جاوزت الساعة الواحدة ولا ريب.

فضغطت زويا على يدي بقوة. ومن ثمّ جهرت:

ـ ماما، أريد إرسال طلب انتساب إلى «الروّاد الفتيان».

ـ هذه فكرة رائعة.

ـ لكن، هل يقبلونني؟

ـ أنا واثقة من ذلك، لقد جاوزتِ الحادية عشرة من العمر.

ـ وماذا عن شورا؟

ـ حسناً، سينضمّ شورا بعد فترة قصيرة.

ومرة ثانية، خيّم علينا الصمت.

ـ ماما، أتساعدينني في ملء طلب الانتساب؟

ـ يحسن أن تملئيه بنفسك. وسأطّلع عليه بعد ذلك لأرى إن كان ثمّة أخطاء.

ومن جديد، استلقت ساكنة، تفكّر في شيء ما، وكنت أستمع إلى تنفساتها. ونامت تلك الليلة إلى جانبي.

وفي عشية اليوم الذي كانت زويا ستُستقبل فيه في «الروّاد الفتيان» ظلّت تتقلّب في فراشها فترة طويلة من الوقت.

سألتُها:

ـ ألا تقوين على النوم أيضاً؟

فردّت زويا في صوت أجشّ:

ـ إنّي أفكر في الغد.

وفي اليوم التالي (كنت قد عدت إلى الدار باكراً وجلست أصلح بعض الوظائف) رجعت راكضة من المدرسة مضطربة، وما أسرع أن ردَّتْ على سؤالي الصامت:

ـ أنا الآن رائدة فتية!

«خمّني من جاء لزيارتنا!»

مرّت فترة من الزمن، وقفلتُ ذات يوم من عملي فألفيتُ زويا وشورا في حالٍ غير طبيعيّة من الانفعال والتهيُّج. وخمَّنت على الفور، من نظرة واحدة ألقيتها على وجهيهما، أن حدثاً خاصاً قد وقع.

صاحا معاً، قبل أن أتمكّن من النطق بكلمة واحدة:

ـ من تظنين جاء لزيارتنا؟ مولوكوف! لقد كان مولوكوف في مدرستنا! ومولوكوف، كما تعرفين، هو الذي أنقذ رجال «شيليوسكين»! أنقذ لوحده أكثر مما أنقذ الآخرون جميعاً!

وشرع شورا، في النهاية، يسرد القصة بوضوح أكثر:

ـ حسناً، كان أوّل الأمر على المنصّة، وكان كلّ شيء مهيباً جليلاً... لكنه غير ما يجب أن يكون نوعاً ما... ومن ثمّ نزل عن المنصّة، فتحلّقنا حوله جميعاً، وما أحلى وما أجمل! كان حديثه صريحاً بسيطاً! أتدرين ماذا قال؟ «كثير من الناس يوجهون رسائلهم إلى مولوكوف من القطب الشمالي، لكنني لست من القطب الشمالي على الإطلاق، فأنا أعيش في قرية إيرينينسكوي، وقد طرت إلى القطب في سبيل رجال شيليوسكين». وقال بعد ذلك: «قد تظنون أنّ ثمّة صنفاً خاصّاً من أبطال الهواء، يختلفون عن الجميع. جميعنا قوم بسيطون. انظروا إليّ ـ أثمة شيء خاص فيَّ؟». والحقيقة أنّه كان رجلاً عادياً... وغير عادي في الوقت عينه!

وختم شورا حديثه، مضيفاً في دهشة راعبة:

ـ حسناً، لقد رأيت مولوكوف!

وهكذا تحقق حلم شورا الأعزّ على قلبه.

رحلة إلى أرض العجائب

ظللنا فترة طويلة نلتقي بشبان وشابات في ثياب العمل، وأحذية من المطّاط، وقبّعات مناجم عريضة الحِفاف، قد غطاهم الطين الجاف والتراب، إنهم بناة المترو، سكّة حديد موسكو المنتشرة تحت الأرض. هم يركضون، وأمارات العمل مرتسمة على سيماهم، من عمود إلى عمود، أو يتجولون على مهلتهم، بعدما أبلدوا ثياب العمل، في عرض الشارع. وحينما تنظر إليهم فأنت لا تلاحظ ثياب عملهم المنتفخة المبرقعة، بل تلقى وجوههم. وكانت وجوهاً تلفت الأنظار، تتأجّج ـ رغم التعب المرتسم عليها ـ فخراً وسعادة.

إنّ قوماً يرتدون مثل هذه الثياب يجتذبون انتباهاً واحتراماً عامَّين: البناة الأوّل للمترو ـ ليس هذا هزلاً. ومن الواضح أنّ الناس، ليس في موسكو فحسب بل وفي غابات الرجاج أيضاً، وحتى سيتسكينو البعيدة، كانوا يفتشون الصحف ليطّلعوا على مدى تقدُّم بناء المترو. ومن ثمّ جاء اليوم المشهور، في ربيع عام 1935، حين علمنا أنّ المترو أضحى جاهزاً!

أعلنت زويا:

ـ أمِّي، ستذهب فرقتنا نهار الأحد لرؤية المترو، فهل تذهبين معنا؟

وفي صباح الأحد، أنفذتُ بصري من النافذة: المطر يهطل مدراراً. كنت متأكدة من أنهما سيؤجّلان حملتهما لرؤية المترو، لكن الصغيرين نهضا من فراشهما وراحا يستعدان في سرعة وحمية. كان من الواضح أنّهما لن يفكرا مطلقاً بتأجيل تلك النزهة.

ـ لكن، ما رأيكما في الطقس؟

فصاح شورا بطيش:

ـ أتسمين هذا مطراً؟ لسوف ينقطع قبل أن نخرج من البيت!

كان كثرة من الصغار قد تآزفوا عند موقف الترام. وكان تهطال المطر قد زاد في سرورهم ومرحهم، فهم يضحكون ويتصايحون، وحيّونا بصيحات مرحة جذلانة.

ومن ثمّ استقللنا الترام جميعاً، وبُعَيْدَ رحلة صاخبة مزدحمة بلغنا «أوخوتني رياد».

وما إن داس الصغار أرض البهو المرمرية حتّى شملهم الصمت. مما لا ريب فيه أنّ ليس ثمّة مجال، هاهُنا، للّغوِ والثرثرة ـ هاهُنا أشياء كثيرة يرنو إليها المرء ويتطلع.

نزلنا الدرجات العريضة برصانة وتوقفنا، وعجب أخرس يغمر الأفئدة منّا: هاهُنا تبدأ الأعاجيب الحقيقية! ولم تمضِ ثانية واحدة حتّى كنّا، زويا وشورا وأنا، السبَّاقين في الانتقال إلى الشريط المضلَّع الذي يهبط بسرعة. حملنا إلى الأسفل، بسكون ورقّة، عميقاً، عميقاً، عميقاً. وكانت خطوط السكة السوداء تنزلق من أمامنا، لدنة طرية لدى اللمس. وإلى الوراء منها، خلف الحاجز الرقيق البرّاق، انبثق السلَّم الحديديّ المتحرك الثاني إلى الحياة بصورة مباغتة، وانطلق يعدو أمامنا. لكنه لم يكُ يهبط إلى الأسفل، بل على العكس يصعد إلى الأعلى، متجهاً شطرنا. ثمّة عدد كبير من الناس يصعدون فيه، وهم جميعاً يبتسمون. إنّ أحدهم يلوّح لنا بذراعه. والآخر يهتف بشيء ما، لكنّنا نكاد لا نلقي إليهما بالاً لشدّة استغراقنا في رحلتنا.

ومن ثمّ كانت الأرض الثابتة تحت أقدامنا من جديد. ما أروع كلّ شيء فيما حولنا! هناك في العالي، كانت السماء تمطر على هواها، بينا هاهُنا...

بلغني ذات مرّة نبأ راوية قد عاشت طوال حياتها في قريتها، ومن ثمّ جاؤوا بها إلى موسكو حيث شاهدت القاطرات الكهربائيّة، والسيارات، والطائرات. وكان الناس الذين يرافقونها على أتمّ اليقين من أنّ ذلك كله سيدهشها. لكن لا، بل رأت إلى الأشياء جميعاً وكأنّها تتوقعها... لقد حلمت طوال سنوات وسنوات ببساط الريح والحذاء الذي يقطع

الأميال البعيدة، وما رأت في موسكو كان بالنسبة إليها قصة خرافية مألوفة قد تحققت وخرجت إلى حيِّز الوجود.

وحدث للصغيرين شيء مماثل في المترو. كان الفرح مرتسماً على وجهيهما، لكن هذين الوجهين كانا بريئين من كلّ ما هو عجب ودهشة، فكأنهما قد عبرا أخيراً بوّابات الأرض السحريّة التي يعرفانها حق المعرفة.

صعدنا إلى الرصيف، فإذا زمجرة متزايدة الشدة تأتينا فجأة من الجانب الآخر، تدفُّ من النفق الأسود، وإذا عينان سحريّتان تتراءيان لنا... ومرّت ثانية ـ وإذا عربات القطار الطويل النيرة، بذلك الشريط الأحمر المتمادي على الحافة السفلى من زجاج النوافذ، تتوقف قرب الرصيف. وفتحت الأبواب بيد غير منظورة، فدخلنا، وجلسنا، وانطلقنا! وبأيّة سرعة انطلقنا!

التصق شورا بالنافذة، وطفق يحصي الأنوار أثناء مرورها. ومن ثمّ استدار نحوي. وقال:

ـ لا تخافي، ففي المترو لا يمكن أن يحدث أي اصطدام. هذا ما يقولون في «بيونيرسكايا برافاد». هاهُنا إشارات ذاتية للوقوف، وأنوار للمرور تدعى «الحرس الكهربائي».

كانت نظرة واحدة إلى شورا كافية لتؤكد لي أنّه لا يسعى إلى بعث الطمأنينة في نفسي وحدي.

زُرنا في ذلك اليوم كلّ محطة على حدة. دخلنا في كلّ مكان، وركبنا سائر السلالم الحديديّة المتحركة صعوداً وهبوطاً. كنا ننظر وننظر ولا نستطيع أن نشبع عيوننا من النظر: إنّ الساحة الصغيرة الرائعة المصنوعة من القيشاني الأشبه بالحجيرات في خلية النحل في محطة دجيرجنسكي، والقصر الضخم تحت الأرضي في محطة كوسمولسكايا، برخامه الرمادي، والأسمر، والذهبي ـ لقد كانت تلك الأشياء أروع من أن تكون حقيقيّة!

هتف شورا، مشيراً إلى الكوى في محطة البوابات الحمر:

ـ انظري، يا ماما، لقد صنعوا حقاً بواباتٍ حمراً!

وكانت دهشتنا، زويا وأنا، طاغية جداً لدى مرأى الأعمدة المغطاة بالنور في محطة قصر السوفييت. كانت تتراءى أنها تختلط، في ذراها، بالسقف، مزدهرة أشبه بأزهار عملاقة من البنفسج. أبداً لم يخطر لي في بال أنّه يمكن للحجر أن يكون على مثل هذه النعمة وأن يعطي مثل هذا الضياء الشديد.

كان يصحبنا صبيٌّ مدوّر المحيا، أسود العينين (أوضحت لي زويا أنّه «قائد روّاد الفرقة الأولى»، وقد لاحظ أنّني أصغي إلى ما يقول). كنت تشعر من الوهلة الأولى أنّه أحد أولئك الصبية الذين يعنون بكل شيء على وجه البسيطة، ويتذكرون كلّ ما قرؤوه كلمة فكلمة.

حدَّثَنا قائلاً:

ـ ثمّة رخام هاهُنا من سائر أرجاء الوطن. هذا الرخام من القرم، وذاك من كاريليا، ويبلغ السلم الحديدي المتحرك في محطة كيروف خمسة وستين متراً طولاً. فلنحسب كم ينبغي لنا من الوقت كي نهبط حتّى هذا المكان!

وفي الحال ذهب شورا صعوداً وهبوطاً من جديد.

واقترح شورا:

فلنعدّ كَم من الناس ينزلون إلى هنا في كلّ دفعة.

وقفا جامدين برهة، عابسين بما يبذلان من انتباه، وشفاههما تتحرك من دون أن يندَّ عنها أيُّ صدىً.

قال قائد فرقة الروّاد من دون أن يلتقط أنفاسَه:

ـ كم عددت؟ مائة وخمسون؟ أمّا أنا فعددتُ مائة وثمانين! قُلْ مائة وسبعين. يا الله! مائة ألف إنسان في كلّ ساعة! وماذا لو كان ذلك مستديماً؟ كان يحدث صدام هائل إذن! وهل تعرف كم طلب الإنكليز من أجل بناء سلَّم حديدي متحرك؟ طلبوا مليون روبل ذهبي من نقدنا! لكننا عندئذٍ أخذنا على عاتقنا أن نصنع ذلك لوحدنا، في مصانعنا الخاصة. هل تعرف بالضبط أيّة مصانع ساهمت في هذا العمل؟ مصانع فلاديمير إيليتش في موسكو، ومصانع كيروف في لينينجراد، وكذلك المصانع في جورلوفا، وكراماتورسك...

قَفَلْنا إلى البيت حوالي المساء وقد أرهقنا التعب وهدّ قوانا، وإن ملأتنا الغبطة مقابل ذلك. وبقينا طوال أيام عديدة نتحدث عن دنيا العجائب المدفونة تحت الأرض.

ولم يمضِ زمن طويل حتّى ألفنا المترو. كنت تسمع فيما حواليك من دون انقطاع: «سأذهب في المترو»، «سنلتقي في المترو».

ولكنّني مع ذلك حين أرى البريق الياقوتي لحرف «م» في ظلال المساء، فكثيراً ما أتذكر اليوم الذي زرتُ فيه وولَديَّ المترو للمرة الأولى.

نار المخيّمات في الليل

قضت زويا وشورا القسم الأكبر من عطلة الصيف في مخيّم للروّاد الفتيان. وكانا يرسلان إليّ من هناك رسائل مفعمة بالغبطة تصف كيف يجمعان عنب الديب في الغابات، وكيف يستحمان في مجرى النهر العميق السريع، وكيف يتعلمان الرماية وإطلاق النار.

ولقد أرسل لي شورا مرة، على ما أذكر، واحداً من أهدافه، وكتب يقول مفتخراً مزهواً:

«انظري كيف تعلمت الرماية! لا يهمّ أنّ بعض الطلقات لم تصب عين الثور بالضبط. وإنّما الأهميّة كلها أنّ المجموع حسن لا بأس به».

كانا يترجيان في كلّ رسالة «تعالي، يا أميمَة، وشاهدي كيف نعيش».

غدوت ذات صباح أحد لرؤيتهما، ورجعت في آخر قطار ـ ما كان الصغيران يريدانني أن أغادرهما. صحباني في جولة في أرجاء المخيّم، يطلعانني على ميادينهما: أحواض من الخيار والبندورة، وأحواض ملأى بالزهور، وملعب واسع، وساحة للكرة الطائرة. وكان شورا مفتوناً بتلك الخيمة البيضاء الكبيرة حيث يعيش الشباب الأكبر سنّاً، بينا ينام الصغار في البيت، وهذا ما أحزنه الحزن كلُّه.

وأخبرتني زويا في استهجان شديد:

ـ ليس فيه ذرّة من عزّة النفس والكبرياء. فهو يقفو خطوات أورلوف أبداً.

كان فيتيا أورلوف مرشّحاً لأن يكون رئيساً لمجلس اتحاد الروّاد. كان صبياً نشيطاً مفتول العضل، يكاد شورا يعبده عبادة. وكان فيتيا أشهر لاعبي كرة السلة في المخيم، وأمهر رامٍ، وأسرع سبّاح، بالإضافة إلى عدد عديد من مآثره التي تؤهل له حظوة طيبة.

كان يتدحرج في أعقاب فيتيا ما لا يقلّ عن عشرين صبيّاً صغيراً. وكان فيتيا يجد، على الدوام، بعض الأعمال المهمة لكل واحد منهم، فيقول:

ـ امضِ إلى العريف وقل له إنه يستطيع نفخ النفير للغداء.

أو يقول:

ـ والآن، نظِّفوا الممرّ، وانظروا هذا الخليط الذي صنعوه!

أو:

ـ أريقوا الماء على مضاجع الورود، فالفدان الثالث كان شحيحاً بالماء. انظروا كيف تذبل الورود بفعل الحرّ.

وكان الصبي المحظوظ ينطلق لينفّذ التعليمات التي أُعطيت له.

كان شورا يودّ من صميم قلبه البقاء إلى جانبي. فقد مضت فترة طويلة منذ التقينا آخر مرة، إذ لم يكُ مسموحاً للأهل بغير زيارة واحدة كلّ شهر. لكنّه ما كان يريد، في الوقت ذاته، أن يغيب فيتيا عن نظره. فقد كان، من دون ريب، واحداً من مساعدي فيتيا المخلصين.

كان شورا يتحدث عن بطله قائلاً:

ـ ينبغي أن تري فيتيا يطلق النار، فهو لا يخطئ أبداً عين الثور. وتنثال الطلقات قريبة من بعضها حتّى تشكل ثغرة واحدة! وهو من علَّمني الرماية. ويا لسباحته! يجب أن تريه: إنه يسبح على ظهره، وعلى جانبه، وأي شيء آخر تريدين!

واقتادني الصغيران حتّى ضفّة النهر، وأفعمت الغبطة قلبي إذ رأيتهما يسبحان بصورة حسنة. وانطلق شورا يسبقني بقدر استطاعته. إنّه يضطجع على الماء فترة طويلة من دون

أن يأتي حركة، ثمّ يسبح مستخدماً ذراعاً واحدة، ثمّ يسبح حاملاً «قنبلة يدوية». ولم يكُ ذلك رديئاً في الحقيقة بالنسبة إلى فتىً في العاشرة من العمر.

وتلا ذلك سباق في العَدْوِ، فربحت زويا سباق المائة متر جرياً سريعاً. ركضت بسهولة وخفّة، وبشيء كثير من البهجة نوعاً ما، فكأنّ السباق ليس حقيقيّاً يجري في حضور حكمٍ صارم ورفاق قلقين، بل هو مجرَّد تسلية ليس غير.

وجاء الظفر الأعظم لشورا مع هبوط الظلمة.

رنَّ صوت فيتيا أورلوف قائلاً:

ـ شورا كوسمودميانسكي! حان وقت إشعال نار المخيم!

واختفى شورا، الجالس إلى جانبي، عبر الفضاء الرقيق قبل أن يتيسر لي الوقت كي أتطلع حواليّ.

كان شورا المسؤول عن إشعال نار المخيّم رغم كونه من بين أصغر فتيانه. لقد علَّمه أبوه، في الأيام الغابرة في غابات الرجّاج، كيف يشعل نار المخيَّم، فأتقن هذا الفنّ تماماً. كان يبحث عن الأغصان الأشدَّ جفافاً ويبوسة، ويصفّها بحذق ومهارة فوق بعضها، بحيث تنفجر مشتعلة بسرعة، برّاقة مرحة. أمّا النار الصغيرة التي كان شورا يؤرِّثُها أحياناً قرب دارنا فلا تقارن بتلك النار التي ستتأجَّج الآن في ساحة المخيم الكبيرة!

واستسلم شورا بكلِّيّته لعمله، فنسي كلّ شيء عن مقدمي، وعن أي شيء آخر على الأرض ـ جرّ الأغصان وكوَّمها، مهيِّئاً بذلك مستودعاً من الوقود في متناول اليد في أيّة لحظة. ولما خيّمت الظلمة، وتحلَّق الأطفال، أشعل كبريتاً لدى إشارة من فيتيا. والتهبت الأغصان الجافة سريعاً، وراحت ألسنة من اللهيب تمتدّ بأسرع مما في قدرة العين على الرؤية خلال الأدغال المظلمة الهشّة. وفجأة، اندفع بساط من اللهيب الوهّاج صوب السماء طارداً الظلمة المحدقة بنا.

كان يجب أن أرحل منذ زمن بعيد، فلم يبق ثمّة أحدٌ من الأهل في المخيَّم! غير أنّ زويا شدّت على يدي بإحكام، مردّدة:

ـ أرجوكِ، ابقي فترة أخرى! ما أجمل الجلوس قرب نار المخيَّم. وستتحققين من ذلك بنفسك. ليست المحطة بعيدة، والطريق سهلة. وسنمضي جميعاً لوداعك، وسيسمح لنا جريشا بذلك بكل تأكيد.

وهكذا بقيتُ. جلست مع الصغار قرب نار المخيّم، أرنو إلى النار مرة، وإلى الوجوه الفتيّة السعيدة ينعكس على صفحاتها التأجُّج القرمزي للَّهيب الضاحك الوثَّاب مرة أخرى.

قال رئيس الروّاد، الذي يدعوه الصغار جريشا بكل بساطة:

ـ حسناً، عمَّ سنتحدث اليوم؟

فتأكَّدتُ أنّهم لم يهيِّئوا برنامجاً خاصاً من قبل لهذا المخيم. فهم يتحدثون قلباً لقلبٍ عن الأمور التي تهمّهم أكثر من سواها. إذ ليس أفضل من ذلك الوقت للحديث عن هذا النوع من الأمور، من هذه الساعة الهادئة، حيث تتدلى خلفك الزرقة الشفافة لإحدى ليالي الصيف الهادئة، مصغيةً بانتباه ويقظة، وأنت تعجز عن انتزاع عينيك من النار، فتراقب الجمر كيف يعجُّ بالذهب المصهور، ومن ثمّ يزداد عتمةً تحت الرماد، وكيف تظلّ آلاف الشرارات تطير في الفضاء، وبعدها تختفي وتموت.

واقترح جريشا بطريقته الرزينة الوديّة:

ـ كنت أفكر أنّا نستطيع التوجه بالسؤال إلى والد ناديا ليَرْوي لنا اليوم...

ولم أسمع ماذا ستكون القصة. فقد غرقت كلمات جريشا الأخيرة في جوقة من الأصوات، «أجل! أجل! إروِ لنا! نرجوك!»، تدفُّ من كلّ ناحية. كان من الجليّ أنّ الصغار يعرفون الراوي ويحبّونه.

ـ إنه والد ناديا فاسيلييفنا. إنه رائع، يا أماه! وقد حارب في صفوف تشاباييف. وسمع لينين يخطب.

وتناهى إليَّ صوتٌ خفيف لطيف:

ـ لقد رويت لكم الكثير، ولقد مللتموني بالأحرى.

ـ أبداً، أبداً! ارو لنا مزيداً!

اقترب والد ناديا من النار، فتمكّنتُ من ملاحظة رأسه المدوّر الحليق، ووجهه الواسع المحترق بالشمس، ويديه العريقتين، اللطيفتين والعظيمتي القوة بكل تأكيد، يتدلَّى على بزّته وسام الراية الحمراء، وقد ذَهَبَ الزمن بلونه. وكان شاربه الأحمر المقصوص يفشل في إخفاء تكشيرته المحبَّبة، وعيناه تطلان من تحت حاجبيه الكثيفين المبيضَّين بحدةٍ وابتهاج.

كان والد ناديا واحداً من أعضاء الكومسومول الأوّل. وقد سمع لينين يخطب في مؤتمر الكومسومول الثالث، ولما شرع يروي لنا قصة تلك الحادثة العظيمة ساد السكون حوالينا، حتّى كنت تسمع أخفت خشخشة أو قعقعة تصدران عن الأغصان في النار.

ـ...لم تكُ خطبة تلك التي قرأها علينا فلاديمير إيليتش. بل قد حدثنا كأصدقاء. وجعلنا نفكر في أشياء لم تدخل رؤوسنا في الماضي أبداً. ولأذكر بكل وضوح كيف توجه إلينا بالسؤال: «ما هو أهم شيء الآن؟». وحسبنا أنّه سيقول: «القتال! سحق الأعداء!»... فقد كنا في عام 1920! وكنّا جميعاً نرتدي المعاطف السميكة أو معاطف البحارة ونحمل البنادق في أيدينا. وكان بعضنا قد رجع لتوِّه من المعارك، وآخرون سيخوضون غمارها غداً. لكنه نبر فجأة: «الدراسة! إنّ أهمّ شيء هو أن ندرس!».

كان والد ناديا يتحدّث بحنان ودهشة، فكأنه يُحيي من جديد تلك اللحظة الغارقة في البُعْد. وروى لنا كيف جلس الكبار، البالغون العشرين من العمر، على مقاعد الدراسة، وحملوا

كتب الأبجدية لينفّذوا أمر لينين. وروى لنا كم كان إيليتشنا رجلاً بسيطاً متواضعاً، وكيف كان يتحدث برفق وحرارة إلى أعضاء المؤتمر، وكيف كان يستطيع أن يجيب على أكثر الأسئلة إثارة للحيرة بكلمات بسيطة واضحة، ويبيِّن للمرء الشيءَ الأكثر قداسة، ويلهبه ويصبّ فيه القوة على أداء الأشياء الأشدّ صعوبة، ويفتح عينيه على الشيءِ الأروع جمالاً ـ مستقبل البشريّة الذي يتوجب على الإنسان أن يقاتِل ويدرس في سبيله.

ـ...وقال فلاديمير إيليتش إنّ الجيل البالغ في ذلك الحين الخامسة عشرة سيعيش حتّى يصبح أفراده أعضاءَ في المجتمع الشيوعي، وإنهم سيبنون ذلك المجتمع بأنفسهم... ولمن المهمّ جداً أن يقوم كلٌّ منكم، أيها الصغار، بدوره دائماً، وكل يوم ـ ولا فرق مهما كان هذا الدور صغيراً بسيطاً ما دام يشكّل جزءاً من القضية المشتركة العظيمة...

وفكّرت، وأنا أرنو إلى صغيريَّ: كيف كانت حياتهم ستكون قبلاً، في تلك الأوقات العصيبة المظلمة حين كنتُ، أنا نفسي، أنمو وأكبر؟ لشدَّ ما كانت الأشياء تكون صعبة إذن، ولشدَّ ما كنت سأجد أنا نفسي من صعوبة في تربيتهما. أمّا اليوم فلست أنا وحدي، أمهما، التي أثقّفهما وأعلّمهما: فالمدرسة تثقّفهما، ووحدة الروّاد، وكل شيء تقع عليه أبصارهما أو تلتقطه أُذناهما مما يحيط بهما. ومن يدري أيّ لهيب سيشتعل في المستقبل من شرارات نار المخيَّم هذه. وأيّ أحاسيس، وأية رغبات بذرها اليوم في قلوب الصغار هذا الرجل الذي عرف تشاباييف وسمع إلى لينين.

وروى لنا، بروّيةٍ وبطء، الأمورَ التي يتذكرها من الماضي البعيد المجيد، ومن ثمّ جَهَرَ فجأة:

ـ والآن، فلننشد أغنية!

وتحرَّك الصغار، يسيطر عليهم سحر تلك الأقاصيص التي سمعوا، ثمّ راحوا يقترحون واحداً تلو الآخر:

ـ أنشودة الشباب!

نشيد تشابابيف المفضَّل!

وتدفق في قلب الظلمة لحنٌ جميل لأنشودة كانت تتردَّد في كلّ مكان تلك الأيام:

والعاصفة تزمجر، والمطر يضرب،

والبرق يلمع في الظلمة،

والرعد يقصف من جديد...

ثمّ أنشدوا أغنية من سنوات الروّاد الأولى:

نار المخيم تحترق في الليل اللازوردي!

نحن روّاد، أبناء العمَّال.

وقريبةٌ هي حقبة السنوات الجميلة،

ونداء الروّاد هو: «كنْ على استعدادٍ دائماً!»

وتبعت ذلك أغنيات أخرى. التصقت زويا بكتفي، بينا هي تسترقُ النظر إليَّ بين فترة وأخرى بمظهر من يُضمر مؤامرة ما. قالت:

ـ لستِ آسفة على بقائك، ما؟ أرأيت روعة ذلك؟

كان أوان التجمُّع لتفقُّد المساء قد حان قبل فترة من الزمن، فتعلَّقت زويا بذراع شورا ونبرت:

ـ حان الوقت! تعال...

وتهامس فريق من الفتيان والفتيات الجالسين قريباً منّا، ثمّ راحوا يغادرون النار بهدوء، واحداً وراء الآخر. وأردت أن أنهض بدوري، سوى أنّ زويا همست:

ـ كلا، كلا، اجلسي هاهُنا. إنه فريقنا، وسترين ما سيحدث.

وبعد قليل سار الصغار جميعاً لتلاوة الأسماء. وسرتُ خلفهم، ثمّ سمعتُ بغتة:

ـ رياضة جيدة! يا للروعة! من صنعها؟

كانت نجمة ذات خمسة شُعب تتضوأ في منتصف ساحة المخيَّم، عند أقدام سارية العلم. ولم أتحقّق في البدء كيف صُنعت، لكنني سمعت بعد قليل:

ـ صنعوها من الحُبَاحِب. أترون، فالشرارات خضراوية اللون!

وقدَّم رؤساء الفريق تقاريرهم ثمّ أُنزل العلم، ونفخ في النفير نداءات طويلة تقول:

ـ النوم! النوم! إلى خيمكم!

وجاءتني زويا وشورا، ووجهاهما يشعّان:

ـ إنه فريقنا الذي فكَّر في صنع النجمة. جميلة، أليس كذلك؟ لكن يا أمّاه، لقد رفض جريشا أن نودعك. إنّ والد ناديا سيذهب في القطار أيضاً، ولن تخشي شيئاً برفقته.

ودعتهما، وسرت ووالد ناديا صوب المحطة. كانت أنوارها مرئيةً من المخيم نفسه، والطريق نفسها سهلة مستقيمة، وطبيعي أنّي لم أشعر بشيء من الخوف أبداً.

قال رفيقي:

ـ هم جماعة قمينة بالحب! وأحبُّ التحدث إليهم، فهم مستمعون رائعون. ونادتنا صفارة القطار من بعيد. فحثثنا خطانا.

أضاء لهب المخيم شتاء الصغيرين بطوله. فهما يتذكران ويتذكران المخيّم، والحديث حول النار، والنجمة المصنوعة من الحباحب.

وبرقت تلك الذكريات في مواضيعهما الإنشائيّة، فقد كتبت زويا عام 1935 في موضوع عنوانه «كيف قضيت الصيف» ما يلي:

«يستطيع المرء أن يفكّر حسناً قرب نار المخيّم، وإنه لجميل أن يسمع المرء، قرب نار المخيّم، إلى الأقاصيص تُروى. ثمّ يغني الأغنيات والأناشيد. وإن المرء ليتحقَّق بعد ذلك، من روعة الحياة في مخيم ما، فيودُّ توطيد صداقته أكثر فأكثر مع رفاقه».

يوميّات

تُرى، أيُّ صبيّ لا يحتفظ بسجلٍّ ليوميّاته! إنّ شورا البالغ التاسعة لم يشذّ عن تلك القاعدة. ولم أستطع الامتناع عن الضحك حين قرأت تلك اليوميات. كان شورا يكتب عادةً مثل هذه الأشياء: «نهضت في الثامنة هذا النهار. أكلت، شربت، وخرجت في نزهة. لم أتشاجر مع أحد هذا النهار». ولم تكن الأيام تختلف سوى في أمر واحد: «تشاجرت مع بيتكا»، «تشاجرت مع فيتكا»، «لم أتشاجر مع أحد هذا النهار». وما عدا ذلك فهي كحبّات اللوبياء في زهرتها.

أمّا زويا فكانت تُعنى بيوميّاتها باهتمامٍ وجدٍّ، تماماً كما تُعنى بأيّ عمل تأخذه على عاتقها. كانت مذكراتها مفصَّلة غير متباعدة الأيام. وما زلت أحتفظ بيوميّاتها لربيع عام 1936 وصَيْفِهِ.

لقد قلتُ سابقاً إنّ الصغيرين اعتادا الانطلاق في عطل الصيف إلى مخيّم للروّاد. وكانا يقضيان فترات رائعة هنالك حيث لم أكن أزورهما إلّا في النَّدْرى. كنا نفتقد بعضنا كثيراً كعادتنا حين نفترق... ولذا كنّا نتشوَّق كثيراً لقضاء الصيف مرة عند الجدة والجدّ في غابات الرجّاج، اللذين أرسلا يدعواننا مرات عديدة، بينا نَحْنُ نَحِنُّ كثيراً لقضاء الصيف معاً. وتحقّق حلمنا علام 1936 ـ لقد بدأنا نفكِّر في رحلتنا إلى غابات الرجّاج منذ حلول الربيع. ومنذ تلك الأيام الخوالي وأنا أملك دفتراً دقيقاً صغيراً ـ إنه يوميّات زويا.

وإليكم بعض ما جاء في صفحاته:

1 أيار

اليوم الأوّل من أيّار... إنّه عيد السعادة المرحة.

خرجت أمي في السابعة والنصف صابحاً للاشتراك في الاحتفال. كان الطقس مشمساً، بيد أنّ الريح تصخب وتنفخ مزمجرة عاتية. كنت جذلانة النفس لما بُعِثْتُ من غفوتي. فاغتسلت سريعاً، وطعمت شيئاً، ثمّ دلفت إلى موقف الحافلة الكهربائيّة أراقب المتظاهرين، وجميعهم يستحثّون الخطى صوب الساحة الحمراء... قضيت النهار بطوله في الشارع، وذهبت إلى المتجر طلباً للحلوى، ثمّ ركضت ولهوت في المروج الخضر... وقد أمطرتنا السماء بعد ذلك. ولما رجعت «مامي» من الاحتفال بدأت حفلتنا نحن الصغار، وقُدِّمت الهدايا إلى كلّ منّا.

3 أيار

لم تخرج أمّي إلى عملها هذا النهار، الأمر الذي فرحت له كثيراً... لقد نلت درجة «جيد» في الإملاء في المدرسة. لكنّني نلت درجة «ممتاز» في الأدب والحساب. لقد كان يوماً طيّباً على العموم.

12 أيار

ذهبتُ، حوالي الساعة التاسعة من هذا الصباح، إلى المتاجر سعياً وراءَ الحليب والخبز... وقد ابتاعت «مامي» مكتبة لنا. فجعلتْ هذه المكتبةُ الغرفةَ زاهية برّاقة جميلة وجليلة في وقت واحد. إنّ المكتبة مصنوعة من خشب الخيزران، وهي رائعة... لقد أُغرمتُ بها.

كان مزاج غريب يسيطر عليَّ: وددت القيام بنزهة في الشارع، حيث يمكنني الركض واللعب. وعند العشية، شرعوا يقتسمون حصص حديقة المطبخ. فنلت قطعة أرض تحت نافذتنا. ولقد نبشت حصّتي، وحلمت أنّ أمي ستبتاع شيئاً من البذور المتنوّعة ـ زهوراً وخضاراً ـ وعندئذٍ ستغدو حصّتي من الحديقة أجمل الحصص وأبهاها!

24 أيار

سيبدأ الامتحان غداً. كان الصباح دافئاً، طرياً... أطلعتني أمي على حاجاتنا من المتجر، وانطلقت إلى عملها. نهضت. ورتَّبت الغرفة، لكنَّ أمي رجعت بسرعة إذ أنهت عملها باكراً هذا النهار. وذهبنا معاً لنجلب اللبن أوّلاً ومن ثمّ زيت الغاز. لشدَّ ما نهوى الذهاب إلى السوق معاً! واشتدَّ الحرُّ عند الظهيرة. فلستَ تستطيع الجلوس إلّا في الظلال والأخيلة... وقد جلبوا لي نسختي من «بيونيرسكايا برافدا».

ليس لديَّ متّسع لقراءة الكتب، لكنّني وجدت الوقت لقراءة صحيفتي... يقولون إنّ قصراً للروّاد قد افتُتح في روستوف هذا اليوم. تالله ما أجمله! إنه البناء الأروع والأفخم! يضمُّ ثمانين غرفة ـ كلها من أجلنا نحن الصغار. وهو يحوي محطة هاتف للّعب. وفي غرفة ثانية تستطيع أن تجرَّ مفتاحاً ـ فينطلق قطاران يدوران في حلقة كبيرة. وهذان القطاران، من دون شك، ألعوبتان. لكنّهما شبيهان بالقطر الحقيقيّة. ويزعمون أنّ قطار مترو صغير سيُنشأ سريعاً في القصر، يشبه مترو موسكو كلّ الشبه، إلّا أنّه أصغر حجماً. وإذ ذاك يضحي في مقدور هؤلاء الأطفال الذين لم يَأتوا لموسكو أن يروا المترو رغم كلّ شيء.

وطبيعي أنّ «بيونيرسكايا برافدا» كانت تعجُّ بالموضوعات المتعلِّقة بالفحوص. كتبوا يقولون: «أجب بهدوء، وثقة، ووضوح تام!». الامتحانات! أنا لا أفكر في شيء آخر سواها! فأتصفَّح الدروس وأهيّئ نفسي. والشيء الأساسي هو ألّا أفرق بين الأستاذ والمساعدين الذين سيحضرون. ولسوف أجتاز الامتحان بكليّته حائزة على درجات «ممتازة»، ولن أقبل بشيء أقلّ من «جيد» على الإطلاق.

11 حزيران

سيخبروننا هذا الصباح عمَّن اجتاز الامتحان بنجاح، وكيف اجتزناه، وسيعطوننا الشهادات والجوائز:

استيقظت في الثامنة والنصف، وهرولت إلى المدرسة. كان الطلاب، جميعاً، يرفلون في أبهى حللهم وأنظفها. ووقتئذٍ، شرع المدير المختص يلقي تقريره. كانت السكينة قد لفَّت

القاعة بفيضها الصموت. وكان ثمة مجموعة من الكتب على الطاولة، مجلَّدة بالقماش الأحمر، منحوها للطلاب المجدّين. وعندئذٍ نادوني. لقد حصلت على «ممتاز» في اللغة الروسية والحساب، و«جيد» في الطبيعيّات والجغرافيا. ونال شورا علامات حسنة هو الآخر. نادوني إليهم، وأعطوني أجمل كتاب على الإطلاق: خرافات كيريلوف!

12 حزيران

خرجنا في العاشرة والنصف إلى الحدائق التي في الجوار. وانتظرنا الباص، ثمّ انطلقنا، وما إن وصلناها، حتّى هرعنا لمشاهدة فيلم «الوطن ينادي». وبُعَيْد ذلك التقينا بنيكيتا سيرجييفيتش كروشكوف في الحدائق، فحيّيناه وكنا مسرورين للغاية. وكانت تمثَّل لنا هنالك مسرحية خاصة بنا أيضاً. ومن ثمّ غَذَذْنا السير للتجول في الحدائق، وانحدرنا عن الربى والتلال، ودخلنا إلى المكتبة. وفي آخر المطاف قدّموا لنا الحلوى، ومن ثمّ قفلنا عائدين.

26 حزيران

لم أشعر، عند البكور، بتحمُّس أو نشاطٍ لعمل أي شيء. هببت من نومي كيفما كان، وجلست إلى العمل. كانت مامي قد عملت حتّى بُعَيْد منتصف الليل، ولمّا تزل غارقة في سُباتها. ولكيلا نزعج رقادها، خرجتُ وشورا في نزهة على القدمين. كان الطقس يزفر برياحه، إلّا أنّ الشمس تغمرنا ببهائها ودفئها. وكانت مياه البحيرة تشبه الحليب الطازج إلى حدٍّ بعيد ـ دافئة، نظيفة، حلوة. واستحمَمنا، وتسلقنا الشاطئ، وجعلنا ننشف على العشب. كنّا في حاجة إلى شيء حامض نلتهمه بعد الحمام، فمضينا إلى الحديقة. وهنالك أنشأنا نجمع بعض التفاح الصغير الحامض.

وفجأة، حوالي الساعة السابعة أو الثامنة، جاء ابن عمّنا سلافا. كان يكبرني بخمسة أعوام، لكنّنا كنّا متفاهمين تماماً. أريته أقاصيص كيريلوف الخرافية التي منحتني إياها المدرسة، وأطلعته على بعض تصاوير شورا. وقد امتدح تلك الصور كثيراً.

لا أفكّر، طوال يومي، إلّا في القرية. ولسوف نذهب إليها، آخر الأمر!

2 تموز

قضينا البارحة بطوله نهيّئ عدّتنا، حتّى إنّنا لم نذهب إلى الفراش الليل بكامله. وقرابة الرابعة والنصف مضينا (شورا، سلافا، مامي، وأنا) إلى محطة الترام. كنت حزينة لأنّ أمي لن تجيء معنا، وسعيدة في الوقت ذاته لأنّني في طريقي إلى القرية. فأنا لم أذهب إليها منذ خمس سنوات كاملة!

قضينا في القطار ليلاً ونهاراً كاملين. ولما بلغنا المحطة، استقللنا عربة أسرعت بنا إلى غابات الرجّاج (هذا هو اسم قريتنا). وما إن وصلنا حتّى قرع سلافا الباب، فقال جدي: «هيا، ادخل!». كان يظنّ الطارقَ سائق المحراث فاسيا الذي جاء لزيارته. وكانت جدّتي مصابة بألمٍ في صدرها. ولمَّا رأتنا طغى الفرح على محياها، فانقطع الألم... ونفحتنا بالمعجنات، والحلوى، والحليب الطازج، وذهبت غِبَّ ذلك أبغي الاستحمام، ولعبت مع البنات وتسلَّيت، ولقيت عند المساء في غرفة مطالعة القرية صديقتي الطيبة القديمة مانيا. كان ذلك نهاراً طيّباً! ولعبنا الألاعيب المرحة! آه، ما أروع هواء القرية! وغدوت للنوم في المطبخ على سرير جدي.

7 تموز

إني أخرج للنزهة، وأهرول في كلّ حدب وصوب، وأساعد جدتي في أعمالها. وأنا أحبّ إنجاز ما تطلب مني. كنت أرقب الدجاج في حقل الحنطة، وأستحمّ ثلاث مرات في اليوم، وأمضي إلى المكتبة. وقد قرأت الكثير من الكتب المثيرة: جوليفر في ليليبوت، المفتش العام لجوجول، مرج بيجين لتورجنيف.

إنّ الجدة تعطينا مأكولات طيّبة المذاق من بيض، ودجاج محمّر، ومعجّنات مختلفة ـ ونحن نبتاع من السوق الخيار والزبيب والكرز. وكانت تواجهنا بعض المصاعب في أكثر الأوقات.

فقد حدث يوماً (ولا أذكر متى على وجه الدقة) أن أضاع شورا سترته. وخرجنا نبحث عنها، لكن عبثاً!

وكنت أذهب، أحياناً، إلى النهر وأعود متأخرة. ووقتئذٍ كانت الجدّة تغضب عليَّ...

15 تموز

إنّي أضجر وأكتئب عندما لا أجد أحياناً عملاً أقوم به. ولكنّك هنا، في القرية، تضجر كثيراً من دون عمل بحيث قررت مساعدة الجدة ما وسعني. ولما أفقت من نومي، خطر لي أن أمسح الأرض، ولقد أحببت أن أفعل ذلك! وساعتئذٍ، صنعت بعض الشرائط من حرير أحمر قديم فكانت رائعة، لا تقلّ روعة عن شرائطي الزرق.

كان النهار حسناً رائعاً، إلّا أنّ المساء حمل معه رعداً قوياً ومطراً لذيذاً. وتابعتْ ومضاتٌ ألّاقةٌ ظهورها في السماء ـ إنه البرق. وأرعب الرعد الصاخب الحيوانات: فقد هربت عنزتنا الصغيرة من القطيع، فتدبرت جدتي أمرها حتّى وجدتها في حديقة أحد الجيرة. وقد كتبتُ هذا النهار بعضَ التحارير لموسكو: إلى أمي، وزميلتي إيرا...

23 تموز

تطلّعت اليوم، فرأيت نينا (ابنة عمي) قادمة بصحبة أخيها وأمها عبر حقل الحنطة المزروع بالكلأ العادي.

هم يعيشون على مقربة منّا ـ في قرية فيلموزا (36 كيلومتراً من غابات الرجّاج). ولكم كان سرورنا عظيماً لمجيئهم!

26 تموز

عندما جاءت نينا كانت غبطتي تفوق الوصف. لهونا وتحادثنا طويلاً، وقرأنا بعض الكتب، وتسلّينا كثيراً. أعطتنا الجدة لعبة حظّ وورق مسودة، فسررنا باللعب كثيراً. ولقد تخاصمت

اليوم مع نينا، غير أنّنا تصالحنا بعد ذلك، وقررت ألّا أتشاجر معها أبداً.

30 تموز

اضطجعنا في الصالة وغفونا. وجاءت جدتي وأهبَّتنا من النوم، فتذكرتُ وشورا أنّ علينا توديع نينا وليليك، والعمّة آنيا. كانوا عازمين على براحنا إلى فيلموزا. وجاءت عربة لتقلُّهم، فيما الشمس اللامعة تنهش على مهلتها فوق الأرض المستيقظة.

قلنا لهم وداعاً، وغادرونا... آه! ما أعظم أسفي لفراقهم!

ساعدت الجدة بعد الظهر في بعض الأعمال. كويت الغسيل، واستقيت الماء، وأنجزت عدة أشياء أخرى.

31 تموز

الظهيرة... الطقس حارّ جدّاً... وهنالك إشاعات تقول إنّ الماء في الجدول سيشرع بالغليان نهار الأحد.

الحرارة تخفُّ شيئاً فشيئاً، والوقت يشارف على المساء. ذهبت لجلب الماعز. إنها تعدُّ خمسة رؤوس: مايكا، شيرفوموركا، بارون، زوركا، والخامس لا اسم له ـ ماعز لا غير!

واستخلصت الجدة حليبها. فحملته إلى القبو. وذهبنا إلى الفراش.

1 آب

جدائل شعري قصيرة كلّ القصر. بيد أنّ جدّتي أخذت على عاتقها، منذ وصلت هنا، أن تضفرها بإحكام ودقة، فإذا بها تطول قليلاً فقليلاً... إنّ جدتي لعظيمة اللطف.

أتتنا، قرابة العشية، رسالة من أمي. كتبت تقول إنها عليلة. وإنّها قد تجيء إلى هنا. لكم آسف لمرضها! ستنال إجازتها منذ الخامس عشر من هذا الشهر، ومن ثمّة تقدم إلينا.

2 آب

تركتني الجدة هذه المرة أرتّب المنزل وحدي. لقد كبَّتُّ النار في المصطلى وخرجت. فارتكبتُ أخطاء كثيرة. وطهت لنا الجدة معكرونة وأمرتني أن أفقس فيها بعض البيض. وحين أردت وضع مقلاة المعكرونة على الدكّة، وضعتها على شُعبة الفرن بدلاً من ذلك، فانقلبت الشعبة. وإذا بالمعكرونة تطير في الفضاء! مسحت الأرض بسرعة، ومن ثمّ طهوت بعض المعكرونة الجديدة.

حوالي المساء خرجت وجدتي نستحمُّ. كانت بعض الإشاعات تقول إنّ النهار سيكون شديد الحرارة، وإنّ الماء في الجدول سيغلي ويفور. ولكن هذا غير صحيح. لقد كان النهار حاراً خانقاً حقاً، إلّا أنّ الماء في الجدول لم يغلِ أو يفُرْ.

5 آب

أعنتُ جدتي هذا النهار: مسحت الأرض، والنوافذ، والمقاعد الخشبية... وكويت الغسيل... أنا قلقة لمعرفة شيء عن صحّة والدتي.

11 آب

تساقطت أمطار قليلة... آمل ألا يكون الحصاد قد احترق. في حديقة مطبخ الجدة كثير من الخيار... واليقطين، والبطيخ، والملفوف، والتبغ، والبندورة، ونبات القنب. وفي المرعى العام شيء من البندورة واليقطين والبطاطا. وليس لدينا شيء من زهر عبَّاد الشمس. لم تكن الجدّة تدري بقدومنا. ولذا لم تزرع منها شيئاً. النهار خانق الحرارة. والهواء الحارّ القويّ يهيِّج الغبار ويخز العيون.

13 آب

كنا نتهيّأ لتناول الشاي، وإذا برسالة من أمي تصلنا بغتة. كتبت تقول إنها قادمة نهار الخميس، أي غداً مساءً. ولما قرأنا الرسالة طفحت قلوبنا بفيضٍ من السرور عظيم. ستجيء أخيراً، وتنال قسطاً من الراحة هاهُنا. أما جدي فقد غادرنا إلى طامبوف.

15 آب

في بكرة الصباح توالى قرعٌ هادئ على الباب. فوثبنا، شورا وجدتي وأنا، من السرير الدافئ. لقد أتت أمي! ما أشدّ غبطتنا! وشرعت جدتي تقلي الفطائر، وقد حملت أمي عدة هدايا لنا، ولم تستطع العمة أوليا القدوم، فأرسلت لنا الكثير من المأكولات الطيّبة!

17 آب

خرجنا، أمي وشورا وأنا، إلى حديقة المطبخ وجمعنا يقطينة وسبع بطيخات لا يكبر حجم الواحدة عن قبضة اليد. وصنعت الجدة من اليقطينة شيئاً من الحساء وجففت البزر.

حوالي المساء مضينا، شورا وأمي وأنا، نستحمّ. ما أحلى العيش هنا! ولكنه أجمل ثلاث مرّات بصحبة أمي!

19 آب

السماء تمطر. منحتني جدتي مجموعة من القُصاصات لأخيط منها مريلة لي.

22 آب

يا له من صباح كئيب مغموم! كنت وشورا كثيري الصخب. ولكنّنا عزمنا ألا نزعج مامي بعد اليوم أبداً!

24 آب

ما إنّ أفقت من نومي هذا الصباح حتّى أعطتني جدّتي صندوقاً عتيقاً مدهوناً، وأعطاني جدّي صورته. كنت فرحى بهاتين الهديّتين وسأحتفظ بهما ذكرى. نحن نفكّر كثيراً بموسكو.

«العصا الصغيرة البيضاء»

أجل، لقد كان ذلك صنيعاً رائعاً، برّاقاً خالياً من الهمّ. وها إنّ زويا وشورا قد كبرا الآن، بيد أنّهما ما زالا، كعهدي بهما منذ خمس سنوات يوم جئت إليهما من موسكو، يتواثبان خلفي ويلتصقان بي، وكأنهما يخافان أن أختفي على حين غرّة، أو أهرب منهما.

أمّا بالنسبة إليَّ، فقد كان الوقت الذي قضيته معهما متصلاً في يوم وحيد طويل ما زلت أذكره بوضوح وجلاء وكأنه البارحة فقط.

لست أدري من علَّم الصغيرين هذه اللعبة، أهي سلافا أم أنهما قرأا عنها في «بيونيرسكايا برافدا». وأيَّان كان منبعها، فجلُّ الأمر أنّها أمست لعبتهما المفضَّلة. كانت تدعى «العصا الصغيرة البيضاء». وكان يجب أن تلعبها في الأمسيات. عندما تتعاظم كثافة الظلمة، فإذا وضعت بعض الأشياء السوداء على الأرض لا تستطيع العين تمييزها سوى ما يشعُّ منها ويلمع. وينقسم ولداي وأبناء الجيران فريقين يختاران حكماً... ويقذف الحكم ـ ويكون عادة أقدر الجميع على ذلك ـ تلك العصا الصغيرة البيضاء بأقصى ما يستطيع من قوة، فيركض الجميع للبحث عنها، ثمّ يهرع وأجد العصا في الحال إلى الحكم. وكان يتوجب عليه القيام بذلك في خبث ودهاء وخفية بحيث لا يلاحظ خصومه عليه شيئاً. فهو يناولها إلى زميل له في فريقه، وهذا بدوره يمرّرها إلى زميل ثالث بحيث يعجز الفريق المنافس عن تخمين مع من توجد العصا. وإذا نجح أحد الفريقين في إعطاء العصا للحكم من دون أن يدرك الفريق الآخر ذلك، يربح نقطتين. وإذا كشف الخصوم من وجد العصا ولقطوه، يُمنَحُ كلا الفريقين نقطةً واحدة. ويظلّ اللعب جارياً حتّى يربح أحد الفريقين عشر نقاط.

وكانت زويا وشورا حذقين حذرين في هذه اللعبة، وكانا يصمَّان أذنيَّ وهما يدفقان الكلام جارفاً، يتحدثان إليَّ عن أهميتها. وكان سلافا يُضيف: «وإنها لمفيدة أيضاً. تعلّمنا كيف نكون أصدقاء مخلصين. فلا يُعنى الفرد بنفسه فحسب، فالفرد للجميع، والجميع للفرد».

وكان شورا يُنتَخب حكماً على الغالب: فإنّ له ذراعين قويّتين، وفي قدرته قذف العصا إلى شأوٍ بعيد، بحيث يصعب اكتشاف مكانها، وتطوّعت زويا مرة لقذف العصا فقال أحد الصبية:

ـ هذا ليس من عمل الفتيات!

ـ ليس من عمل الفتيات؟ فلْأجرّب!

والتقطت زويا العصا، ولوَّحت بيدها، ثمّ قذفتها في الفضاء... فهوت العصا غير بعيدٍ عن قدميها إلّا قليلاً. فاحمرَّت خَفَراً، وعضّت شفتها، وذهبت إلى الدار...

استوضحها سلافا، بعد أن عاد إلى الدار لدى انتهاء اللعب:

ـ لماذا ذهبتِ؟

فلم تعطه زويا جواباً...

ـ خجلتِ، هِيهْ؟ يجب ألا تخجلي! فإذا عجزتِ عن قذف العصا، فليكن شخصاً آخر يستطيع قذفها حكماً. أمّا أنت فتستطيعين اللعب مع الآخرين. ليس هنالك ما يسيء أو يكدّر! إنّ ذلك الاعتزاز بالنفس لشيء جميل، لكن حينما يكون قليلاً...

ومرّة ثانية لم تعطِ زويا جواباً... وشاركت في لعب الأمسية التي تلت وكأن شيئاً لم يحدث... فأحبّها الأطفال، ولم يذكّرها أحدهم بما كان منها نهار البارحة.

ولقد نسيت كلّ شيء من هذه الحادثة. إلّا أنّ سلافا دخل الدار ذات يوم، وجرَّني خلفه. درنا حول الدار، ثمّ عبرنا الحديقة الأمامية. قال:

ـ انظري، أيتها العمّة ليوبا!

على بعد مسافة قليلة، كانت زويا، وقد أدارت لنا ظهرها. لم أتبيَّن ماذا تفعل لأول وهلة. كانت تتأرجح وتقذف شيئاً ما، ثمّ تركض لالتقاطه. فتلتقطه، ثمّ تعود أدراجها إلى مكانها الأوّل، وتقذف به من جديد. وأحدَدْتُ إليها نظري: كان ذلك الشيء عصاً خشبيّة صغيرة. وانتحينا ناحية تقع خلف إحدى الأشجار بعيدين عن بصر زويا، ووقفنا صامتين، نراقبها تقذف العصا من دون تعب. ثمّ تركض فتلتقطها وتقذفها كرّة أخرى. وكانت، في البدء، ترمي العصا بذراعها فقط، ثمّ أخذت تتأرجح إلى الوراء ثمّ تندفع إلى الأمام بكامل جسدها، وكأنها تطير خلف العصا. وظلّت ترمي العصا، وفي كلّ مرّة تهوي هذه أبعد فأبعد، زمناً غير قصير.

قفلتُ وسلافا على رؤوس أصابعنا، وتبعتنا زويا بعد قليل. كانت حمراء الوجه، ترشح من جبينها نقاط من العرق متلألئة. واغتسلت، ثمّ قعدت تخيط. كانت تصنع مريلة من قطع ثياب فائضة. وتبادلتُ وسلافا النظرات، فتهانَفَ ضاحكاً، فرفعت زويا عينيها:

ـ ما الأمر؟

فاعتصم سلافا بالصمت.

ظللت طوال يومين متتاليين أبرح الدار بهدوء وخفّة في الوقت ذاته، وأراقب زويا ترمي إما بعض الأحجار أو القطع الخشبية. وبعد عشرة أيام، وكنّا عزمنا على الرحيل، سمعتُ زويا تقترح على الأطفال المتأصِّصين على وصيد بابنا:

ـ فلنلعب العصا الصغيرة البيضاء! وسأكون الحكم!

فتساءل شورا في دهش:

ـ أوَتُحاولين ثانية؟

لكنها لم تثر أي ضجيج، بل لوَّحت بذراعها وقذفت. ففغر المتحلِّقون أفواههم: إنّ العصا تمرق في الفضاء ثمّ تهوي بعيداً بعيداً...

وقال الجد على مائدة العشاء:

ـ يا للصغيرة الصخَّابة الوقحة! أتستأهل العصا ذلك التعب كله؟ ليس من ورائها أي نفع، لكنك أردتِ أن تغلبي الأطفال على أمرهم، ما؟

وكادت زويا أن ترمي بالجواب، ولكن الجدة سبقتها:

ـ ثمّة مَثَلٌ يقول «سأشقُّ دربي، وليكن ما يكون!».

وأضافت بعد ابتسامة حلوة:

ـ وهذا ما أشتهيه، ويهواه قلبي.

فدفنت زويا وجهها في صحنها، وجنحت إلى الهدوء. وافترَّ مرشفها فجأة عن ابتسامة مرحة، وأجابت بهذا المَثَل (إذ لم تكُ حفيدة مافرا ميخائيلوفنا عبثاً):

ـ قد يكون الشطُّ عميقاً، لكنَّ سمكتَه تكون وليمة!

فضحك الجميع...

الذبابة

الربيع...

ثمّة ريح دافئة تهبُّ، ملأى بشذا الأرض الرطبة المندّاة...

ما أطيب أن يستنشق المرء نفساً من الربيع! نزلت من الترام العاجّ بالناس قبيل محطتي، ولم تكُ بعيدة عن بيتنا، فسأمشي بقية الطريق.

ولمحت البِشْرَ يمرح على وجوه الجميع احتفاءً بالربيع. وكان السابلة يتبسَّمون، وتشعُّ عيونهم، وترنّ أصواتهم صاخبة مُحبَّبة.

وتناهت إليَّ في الطريق هذه الجملة العابرة:

ـ...إنّ تقدم الجمهوريّين في كوردوفا يسير بنجاح، أمّا في مقاطعة إيستريمادورا...

بلى، إنّ إسبانيا لتعمر قلب كلّ إنسان، وتتردَّد على شفتي كلّ إنسان في هذه الأيام. وإنّ كلمات دولورس إيبارّودي المجنَّحة: «ليفضل كثيراً أن نموت واقفين، من أن نحيا راكعين على ركبنا!» لتطير حول العالم. وتستفزُّ قلب كلّ إنسان شريف مفكِّر.

وتركض زويا، في البكور لدى استيقاظها، إلى صندوق الرسائل تجلب الصحيفة لتقرأ فيها آخر الأخبار عن الحرب الدائرة في خطوط إسبانيا الأولى.

وكان شورا... ولم يكُ بلغ الثالثة عشرة بعدُ ـ هذا ما كان يضايقه، وهذا ما كان يصدّه عن الانطلاق إلى مدريد. كان شورا ـ في كلّ عشية، بعد أن يقرأ في إحدى الصحف عن فتاة قاتلت بشجاعة في صفوف الجمهوريّين، أو يسمع شيئاً تحدث به المذياع عن إسبانيٍّ فتىً ذهب إلى الميدان رغم إرادة عائلته ـ يرمي على بساط البحث هذا الموضوع ذاته:

ـ ولقد اتّضح أنّه كان مقاتلاً عظيماً! لقد حطّمت قنبلة فاشية حصنهم مرة، وعطبت مدفعاً مضاداً للدبّابات. ولكن هذا الشاب ـ إيميتيريو كورنيجو كما يسمّونه ـ اختطف قنبلة يدوية وقفز خارج الخندق! ومن ثمّ أخذ يعدو ميمّماً شطر الدبابة، وقذف القنبلة عليها...! وانفجرت القنبلة تحت البرج، فإذا الدبابة تدوّم وتدوّم في أرضها...! وإذ ذاك جلب الآخرون صندوقاً من هذه القنابل... وأنشأ كورنيجو يقذفها واحدة تلو واحدة... وانقلبت دبابة ثانية... ومن ثمّ ثالثة... فاستدارت الدبابات الباقية وهرعت تتقهقر... هذا ما حصل! ويحسبون أنّ ليس في الحرب أفظع من الدبابة وأرهب:

ـ وما عمر كورنيجو هذا؟

فأجاب شورا:

ـ سبع عشرة سنة!

ـ وما عمرك أنت؟

كنت قاسية إذ طرحت هذا السؤال.

وزفر شورا زفرة عميقة.

ورنَّ صوت بجانبي أهبَّني من أفكاري:

ـ ماما! لِمَ تأخّرتِ؟ لقد تضايقنا من الانتظار!

ـ أتأخرت كثيراً؟ وعدت أن أكون في الدار السابعة تماماً...

ـ وهي الآن الثامنة إلّا عشر دقائق. لقد بدأت أقلق.

تناولت زويا ذراعي وأفجّت من خطواتها لتساير خطواتي. لقد نمت نمواً ملحوظاً في هاتين السنتين المنصرمتين. ويا سرعان ما ستضحي طولي! وفي بعض الأحيان، أجد من الغريب أن تكون لديَّ مثل هذه الابنة الكبيرة. أمسى فستانها جدّ قصير، وقميصُها المُفَوَّف يزداد ضيقاً. لقد حان أوان التفكير في قميص آخر جديد!

ومنذ اليوم الذي جئت فيه بالطفلين إلى موسكو عام 1931 لم نكن نفترق إلّا لماماً. فإذا ما غادر أحدُنا الدار، ولو لفترة قصيرة، كان يخبرنا إلى أين سيذهب ومتى سيعود. فإذا وعدت أن أرجع إلى الدار من عملي في الساعة الثامنة، كنت أعمل المستحيل إذن لأفي بوعدي. وإذا ما أخَّرَني عائقٌ ما، كانت زويا تحسُّ دبيب القلق في قلبها، وتخرج لملاقاتي عند موقف الترام تنتظرني ـ تماماً كما فعلت اليوم.

وإذا عاد شورا إلى البيت ولم يجد أخته، يبادر بالسؤال عنها:

ـ أين زويا؟ أين ذهبت؟ لِمَ تأخرت كثيراً؟

وكانت زويا تسأل، حتّى قبل أن تستقبلها الدار بين جدرانها:

ـ أين شورا؟

وكنت أنا، إذا صدف وقفلتُ إلى المنزل قبل ولديَّ، أحس بالغربة والضيق حتّى يصافح أذنيَّ صوت خطواتهما على درجات السلم. وكنت أقف، إبان الربيع، قرب النافذة المفتوحة وأنتظرهما... ليس عليَّ الآن سوى أن أغلق عينيَّ لأراهما. ها هما، معاً كعهدي بهما دائماً، يتحدثان بصخبٍ وضجيج عن شيء ما ـ وإذا قلبي يزداد دفئاً في التوّ واللحظة...

وتحمل زويا بلطف محفظة أوراقي وحقيبتي:

ـ لا ريب أنّك متعبة، دعيني أحملها.

كنّا نسير على مُهْلَتِنا، طروبين في عشية الربيع النضرة، نسرد على بعضنا كلَّ أمرٍ حدث لنا أثناء النهار.

وتعلن زويا:

ـ تقول الصحيفة إنّ الأطفال الإسبانيّين المهاجرين اقتيدوا إلى معسكر أرتيك للروّاد. وكاد الفاشيّون أن يغرقوا باخرتهم قبل أن يصلوا إلى هناك. كم أتمنى أن أرى أولئك الأطفال...! فكري فقط، ما أروع أن تجدي نفسك، بعد ضرب القنابل ذاك وما تبعه، في القرم على حين غرة! هل الطقس حلو دافئ هنالك الآن؟

ـ أجل، فالطقس دافئ في الجنوب في شهر نيسان. والبراعم تتفتح أكمامُها. أجل، انظري إلى نفسك فحسب.

ـ لقد بدأنا نزرع الحديقة حوالي المدرسة. وقضيت نصف النهار في الهواء الطلق حتّى صوَّحتني الشمس. ينبغي لكلّ واحد أن يزرع شجرة. كنت أزرع شجرة حور، فأنا أهوى رؤية الثلج ينهار عن شجرة حور. وإنّ للحور رائحة حلوة محبَّبة، أليس كذلك؟ رائحة رطبة، وحادة نوعاً ما... حسناً، وصلنا إلى البيت! فاغسلي وجهك سريعاً، وسأسخّن الغداء.

مضيت لأغتسل، وكنت أعرف ماذا تفعل زويا من غير أن أنظر إليها. كانت تُشعل الفرن لتسخّن الحساء، وهي تغدو وتروح في الغرفة في مشّايتها من دون صوت، ثمّ مدت الطاولة بسرعة ومهارة. وبدت الغرفة نظيفة، والأرض مغسولة تفوح برائحة رطبة. وعلى النافذة، في إناءين طويلين، غصنان من الصفصاف يشبهان زهوراً من الفضة.

كانت نظافة البيت وأناقته من صنع زويا وحدها. فجميع أعباء البيت، من تنظيف وشراء الحاجيات، تقع على كاهلها. وفي الشتاء كانت تترك الفرن مشتعلاً. وكان شورا يقوم بواجباته أيضاً: فهو يحمل الماء، ويقتطع الحطب، ويذهب إلى المخزن ليجيء بالكاز. لكنه

ما كان يعبأ بـ«التوافه». فهو، مثل كثير من الصبيان، مقتنع أنّه لا يليق بجنسه أن يمسح الأرض، ويركض إلى المخازن: «إنّ أيّة فتاة تستطيع ذلك!».

وهذا هو:

انصفق الباب على مصراعه مقرقعاً، وبرز شورا على العتبة: متورِّد الخدّين، ذراعاه ملطّختان بالطين حتّى المرفقين، و- يا لله - إنّ عينه مسودَّة من جديد.

أوضح لنا مبتهجاً:

- كنا نلعب! سعدتِ مساء، يا أمِّي! هل اغتسلت؟ هذا مقعد لك. سأغتسل الآن.

وقضى زمناً طويلاً يطرطش الماء ويشخر، وهو يروي لنا في الوقت ذاته قصة مباراة كرة القدم بغبطة فائقة، حتّى ليحسب المرء أنّه لا يُعنى البتة بأي شيء آخر في هذا العالم.

سألت زويا:

- متى ستنجز ترجمتك الألمانيّة؟

- أفلا يمكن للمرء أن يأكل أوّلاً؟

وشرعت أهيّئ الطعام، فتناول الصغيران عشاءهما. وجرى الحديث عن حديقة المدرسة وكيف ستكون. أصغيتُ وتأكدت أنّ الصغيرين على أتمّ استعداد ورغبة لزرع الحديقة بجميع أنواع الأشجار التي سمعا عنها.

- لماذا تقولين إنّ النخيل لن ينمو؟ لقد رأيت في مجلة «أوجونيوك» صورة تمثل بعض أشجار النخيل محاطة بالثلج. وهذا يعني أنّها تتحمّل البرد.

وأعلنت زويا بهدوء:

ـ تصوّري، يقارن شتاء القرم بشتائنا.

ثمّ استدارت صوبي:

ـ ماما، أجئتني بشيء أقرأه؟

فأخرجت «الذبابة» من حقيبتي صامتة. فاحمرَّت زويا فرحاً:

أوه، شكراً!

وراحت تقلّب صفحات الكتاب بوقار، عاجزة عن مقاومة تلك الرغبة. لكن ذلك لم يدمْ سوى لحظة واحدة. وضعت الكتاب جانباً، ونظفت الطاولة بسرعة، وغسلت الآنية الخزفية، ثمّ جلست إلى دروسها.

وبعد شيء من الهمهمة والزفرات («أفلا يمكن أن أفعل ذلك غداً صباحاً») جلس شورا إلى جانبها.

بدأت زويا بما تجده أكثر صعوبة ـ الحساب. وفتح شورا كتاب الألمانيّة، تاركاً مسائل الحساب إلى جانبه: فهو يجدها سهلة جداً.

وأغلق شورا كتابه بعد نصف ساعة من الزمن بصوت عالٍ، ثمّ دفع كرسيه إلى الخلف صاخباً:

ـ انتهيتُ! أمّا المسائل فيمكنها الانتظار حتّى غداً صباحاً.

كانت زويا غارقة في عملها بحيث لم ترفع رأسها. كانت «الذبابة» موضوعة إلى جانبها، وهي كتاب ظلت تطلبه مني منذ زمن طويل، وكنت أعرف أنّ زويا لن تبدأ قراءته حتّى ولو انتهت من دروسها.

قلت:

ـ دعني ألقِ نظرة على ترجمتك، يا شورا. هم... أهذا هو ما تسميه حال الماضي؟

ـ أجل، إنه لمزعج.

ـ انظر... هاهُنا يجب أن تضع «كان» عوضاً عن «يكون». وانظر هذه: «جارتن» هو اسم علم، أليس كذلك؟ فلم وضعته بحرف صغير؟ ثلاثة أخطاء. اجلس، أرجوك، وانسخْها من جديد.

وأنفذ شورا بصره من النافذة وزفر. إنّ رفاقه يقيمون على درجات السلَّم ينتظرون نزوله. لم يكُ الوقت قد تأخَّر بعد، فباستطاعتهم اللعب كَرَّةً أخرى... لكن الحقائق هي حقائق: ثلاثة أخطاء... هذا ما لا تمكن المجادلة فيه! وجلس شورا إلى الطاولة من جديد، وهو يطلق تنهيدة استسلام.

أفقت في الليل، يداخلني شعور يقول إنّ شيئاً في الغرفة ليس كما يجب أن يكون. وكنت على حق. كان ضوء الطاولة مضاءً ومغطىً بجريدة: وزويا، وقد أراحت خدّيها على يديها، منحنية على «الذبابة». وكان وجهها، ويداها، وصفحات الكتاب، مندَّاةً بالدموع.

وإذ شعرتْ بنظرتي، فقد رفعت عينيها وتبسَّمت بصمتٍ من خلال عَبَراتها. لم نقل شيئاً، بل كنّا، كلانا، نفكر في اليوم الذي قالتْ لي فيه زويا مُعنِّفةً:

ـ تصوَّري. أنت كبيرة، وتبكين!

الفتاة في الثوب الزهريّ

أغصان شجرةِ جُرْدٍ سود، وعشّ زرزور تحت سماء ربيعيّة صافية. لم يكُ ثَمَّ شيءٌ آخر في الصورة، إلّا أنّني نظرت فيها طويلاً، بينا غمرتني موجة دافئة من الفرح والأمل. ذلك لم يكُ رسم شجرة، وسماء، وعش زرزور فحسب ـ كان فيها شيء يستحيل التصوير من دونه؛ الموهبة، والفكر. والقدرة على رؤية الطبيعة وفهمها.

وهذه صورة ثانية: جيادٌ تعدو، وسيوف ترتفع مهدّدة متوعّدة في أيدي خيّالة أشدّاء. ثمّة حركة حقيقية هاهُنا... وثمة مسودَّة أخرى: البحيرة المألوفة في حديقة تيميريازيف. وهذه غابات الرجّاج ـ العشب الريان الطويل، والتموُّجات الفضيّة لجدولنا الصغير الجذلان...

أنا وحيدة في البيت، وعلى ركبتيَّ دفترٌ من الورق المقوَّى يضمُّ رسوم شورا.

كان رسم شورا يتحسَّن عاماً بعد عام. وكنّا، غالباً، نزور متحف صور تريتياكوف. ولم أكُ أريده أن يتعلَّم الرسم فحسب، بل أردته أن يفهم الرسم ويعرفه.

وأذكر جيداً زيارتنا الأولى لمتحف تريتياكوف. رحنا نتجوَّل في بطء من غرفة إلى غرفة. ورويت للصغيرين المواضيع التاريخية والأساطير التي ألهمتْ الفنانين. وظلَّ الصغيران يطرحان الأسئلة من دون كلل. إنّ كلّ شيء يسرّهما ويُبهجهما. وذهلت زويا، إذ إنّ «عرّاف» فروبيل ظلَّ يحدّق فيها من جميع الزوايا. وراحت العينان السوداوان الكبيرتان، الخبيرتان بكل شيء، تتبعاننا بثبات.

ودخلنا غرفة سيروف. واتجه شورا صوب «الفتاة والخوخ» ـ وجمد على تلك البقعة. كانت الفتاة السوداوية الشعر، ذات الوجنتين المتورّدتين الناعمتين، ترنو إلينا متفكرة، ويداها تضطجعان براحةٍ على غطاء المائدة الأبيض. وكان المرء يستطيع أن يتصوَّر، عبر النافذة وراءها، حديقةً كبيرة مظلّلة مزروعة بأشجار الليمون العتيقة، وممرّاتٍ نَما العشب فيها،

تؤدي إلى مكان بعيد... وقفنا زمناً طويلاً نتطلَّع إلى الصورة، وأخيراً، لمستُ شورا بلطف في كتفه وقلتُ بهدوء:

ـ هيا!

فترجَّى في صوت خفيض:

ـ لحظة أخرى.

وهذا ما كان يحدث له في أغلب الأحيان: يصعقه إحساسٌ قويّ عميق. وقد حدث مثل هذا الأمر مرة في سيبيريا حين وصلنا غابة حقيقيّة للمرة الأولى، وعمر شورا لا يتجاوز الأربع سنوات. وكذلك كانت حاله الآن، وقفت إلى جانب ولدي أرنو إلى الفتاة المتأمّلة الهادئة في الثوب الزهري، أحاول أن أخمّن ماذا صعقه بمثل تلك الشدة. كانت رسومه تفيض بالحركة والصخب أبداً ـ إذا تمكّن المرء من القول إنّ فرشاة أو قلماً يستطيعان أن ينقلا الضوضاء: خيول تعدو، وقطارات مندفعة، وطائرات مصعّدة. وكان شورا نفسه نصّاباً صغيراً يهوى أن يركض ويصيح، ويلعب كرة القدم. فما الذي أبهجه في فتاة سيروف، في تلك اللوحة التي تتنفس السكينة المطمئنة الرابطة الجأش؟ وفيمَ أمسى على حين بغتة مغلوباً على أمره بذلك الشكل، على غير عادته تماماً؟

ولم نلقِ انتباهنا، ذلك النهار، إلى شيء آخر. رجعنا إلى البيت، فظلّ شورا يستوضح طيلة الطريق: متى عاش سيروف؟ وهل بدأ يرسم منذ طفولته الباكرة، ومن علَّمه؟ ريبين، ذلك الذي رسم «قوزاقيّو زابوروزيي يكتبون ردَّهم على السلطان التركي»؟

حدث ذلك منذ زمن غارقٍ في البُعْدِ، وكان شورا في العاشرة من عمره تقريباً. وبدأنا منذ ذلك الحين نزور متحف تريتياكوف، ونتفرّج على صور أخرى لسيروف، وسوريكوف ـ منتشيكوف الحزين في المنفى في قرية بيريوزوفو، سوفوروف المُلْهَم، بويارينا موروزوفا، ومناظر ليفيتان الطبيعية الكئيبة المؤثِّرة، وكلّ ما يضمّ المتحف. وظهر أوّل منظر طبيعي

في رسوم شورا للمرة الأولى بعد مقابلته الأولى لآثار سيروف، ومن ثمّ قام بمحاولته الأولى لرسم زويا.

رجا أخته بلطفٍ غير معهود:

ـ اجلسي أرجوك، سأحاول رسمك.

وكانت زويا تجلس. بطولِ أناةٍ، تكاد ألّا تأتي بحركة. وكان ثمّة مشابهة مع الأصل، حتّى في تلك الرسوم الأولى غير الناجحة ـ مشابهة لا تُدرَك إلّا بصعوبة، لكنّ مما لا ريبة فيه أنّ عيني زويا كانتا تطلّان عليَّ من صفحة الورق: عينان ثابتتان، جديّتان، متأمّلتان...

وها أنا الآن أتأمل رسوم شورا. ماذا سيكون مستقبله يا ترى، وأي نوع من الرجال سيصير؟

كان شورا يحب الرياضيات كثيراً. فقد ورث عن أبيه حبّ التكنيك، وكانت له يدان من ذهب: فهو يعمل كلّ شيء بهما ـ وينجح في كلّ ما تلمسه يداه. ولم تعتوِزْني الدهشة حينما علمت برغبته في أن يكون مهندساً. كان يصرف جميع ما في جيبه على مجلة «العلم والتكنيك»، ولم يكُ يقرأ العدد من الغلاف حتّى الغلاف فحسب، بل كان أحياناً يجرِّب أعمالاً على هدي إرشادات المجلة.

وكان شورا يضع قلبه في عمله على الدوام. صدف مرّة أن مررت بمدرسة الصغيرين لأُلقي نظرة على الحديقة. وكان العمل في فورته: كانوا يحفرون، ويزرعون أشجاراً وأدغالاً صغيرة. وكان الفضاء يرنُّ بصدى الأصوات. ووضعتْ زويا، متورِّدةً شعثاء الشعر، مجرفتَها لحظة ولوَّحت لي، وكان شورا، برفقة فتىً آخر يكبره سنّاً، يحملان محفَّة. وكان يصعب أن يتصور المرء كيف يمكن لتلك المحفَّة أن تحمل هذه الكمية العظيمة من تراب الأرض!

صاحتْ به فتاة طويلة العود، شقراء الشعر، قوية الطلعة:

ـ حذارِ، يا كوسمودميانسكي، سوف تجهد نفسك!

وسمعت شورا يتوقَّف، ويجيب مغتبطاً:

ـ لا تصدِّقي ذلك! فذلك لا يحدث قط إنْ وضعتِ قلبَك في عملك. هذا ما أخبرني به جدِّي. العمل لا يُنهكك إلّا حينما تخافين منه، وإذا لم تضيّعي قوَّتك فستزدادين بأساً!

وقال تلك العشية على المائدة، نصف هازلٍ نصف جادّ:

ـ أمّي، لربما أستطيع الذهاب إلى أكاديميّة تيميريازيف وقتما أبرح المدرسة. فأنا خبير بحفر الأرض. ما رأيك؟

وعدا ذلك، فشورا يبغي أن يصبح رياضياً. كان وزويا يتزحلقان على الثلج شتاءً، ويستحمّان في بحيرة تيميريازيف صيفاً. وكان يبدو مصارعاً حقيقيّاً، فهو يلوح في الخامسة عشرة من العمر ولمّا يجاوز الثالثة عشرة بعد. وكان يفرك جسده بالثلج شتاءً، ويبدأ السباحة في الربيع أبكر من الجميع، وينتهي في آخر الصيف حين يرتعش أشجع السبَّاحين لدى رؤية الماء فقط. وأما حين يكون ثمَّة مباراة في كرة القدم، فشورا ينسى إذن طعامه ودروسه.

وبالإضافة، ورغم هذا كله، لَيتراءى أنّ حلم شورا العميق هو أن يُضحي فناناً. وكان يغتنم كلّ دقيقة زائدة فيرسم فيها. وكان يحمل من المكتبة، ويسألني أن أحمل له، تاريخ حياة ريبين، وسيروف، وسوريكوف، وليفيتان.

كان يقول بصوت مرتعب:

ـ اسمعي هذا. لقد اعتاد ريبين أن يرسم كلّ يومٍ مُذْ كان في التاسعة، ولم يُخلف يوماً واحداً في حياته قَطّ! فكِّري فقط! وحينما جرح يده اليسرى فعجز عن حمل لوحة الألوان، ربطها إلى جسده وتابع العمل كأن لم يحدث شيء. يا للصلابة!

وتأمّلتُ رسوم شورا، فكنت أتعرَّف حيناً على دكّتنا المفضَّلة في الحديقة وحيناً آخر على دغل الزعرور المنتصب إلى جوار بيتنا ـ وكان شورا يحب الاستلقاء تحته في عشيات الصيف. وهذي عتبتنا حيث يجلس حتّى ساعة متأخرة من الليل مع رفاقه بعد الفراغ من اللعب، وهاهُنا حقل ملعبهم لكرة القدم.

إنّ شورا في هذه الأيّام يرسم إسبانيا كثيراً: سماوات ذات زرقة لا تُصدَّق، وأحراج زيتون فضيّة، وتلال حمر، والأرض الملفوحة بالشمس مثلَّمةً بالأخاديد، محفورة بثغرات أحدثتها القنابل، ملطَّخة بدماء المناضلين الجمهوريّين... وبدا لي أنّ شورا، يوم فُتح معرض سوريكوف في متحف تريتياكوف في الشتاء المنصرم، قد قضى جُلَّ وقته هنالك في سبيل الألوان المائية الإسبانية. وبدا أنّ سوريكوف أضحى أعزَّ عليه لأنه سافر إلى إسبانيا، فرأى تلك الأرض البعيدة ورسمها.

لكن، ما هذه؟... واجهة بناية عالية ذات نوافذ لا حصر لها تبدو مألوفة لديَّ... أجل، إنها المدرسة رقم 201! وحواليها تلوح حديقة المستقبل: أشجار بتولا، وأشجار قيقب، وسنديان، و...نخيل!

الرهان

إنّ زويا وشورا قد كبرا الآن تماماً. لكن ثمة فترات، رغم ذلك، يبدوان فيها جدّ صغيرين في عينيَّ.

غفوتُ سريعاً ذات عشية، ثمّ نهضت في الحال وقد تملّكتني رعشة. كنت أسمع شيئاً يُصوِّت كوقع قبضة من الحصى تنهال على زجاج النافذة. إنه المطر ينثال على النافذة ويضرب على الزجاج. جلستُ في سريري، فرأيت شورا جالساً في فراشه هو الآخر.

استوضحنا في صوت واحد:

ـ أين هي زويا؟

كان سريرها فارغاً. وعلى حين فجأة، فكأنه جواب على سؤالنا، دفَّت عدة أصوات مكتومة وصدى ضحك من على السلَّم، وفُتح باب غرفتنا في هدوء، وعلى الوصيد انتصبت زويا وإيرا، وهي صبية في عمر زويا تعيش في الدار الصغيرة التي تلي بابنا.

ـ أين كنتما؟ من أين جئتما؟

فخلعت زويا معطفها في سكينة، وعلّقته، وبدأت تخلع حذائيها المبلّلين بالمطر.

وانفجر شورا:

ـ أجل، أين كنتما؟

وعند ذلك أخذت إيرا، وكانت شديدة الانفعال حتّى ترقرقت الدموع في عينيها إذ ضحكت، ثمّ انهالت قطرات على وجنتيها، تروي لنا ما حدث.

حوالي الساعة العاشرة من ذلك المساء قرعت زويا نافذة إيرا. ولما خرجت إيرا أخبرتها زويا عن مناقشة جرت بينها وبين الفتيات. لقد قلن إنّ زويا تفرق من السير عبر حديقة تيميريازيف في مثل تلك العشية الغارقة في السواد، بينا ما فتئت زويا تردّد: «أنا لست خائفة»... ولقد تراهنَّ: تذهب الفتيات بواسطة الترام إلى موقف يدعى أكاديميّة تيميريازيف، أما زويا فينبغي لها أن تمضي إلى هناك راجلة. قالت زويا: «سوف أضع علامات على الأشجار». فأثبتت لها الفتيات: «سوف نصدقك من دون هذا». لكنهنّ خفن في آخر لحظة، وشرعن يقنعن زويا بالعدول عن الرهان. كان الطقس في الخارج بارداً مظلماً، وقد راحت السماء ترسل رذاذاً من المطر.

قالت إيرا، ضاحكة باكية:

ـ غير أنّها لم تزدد إلّا شجاعة. فانطلقت. وركبنا نحن الترام. ثمّ انتظرنا وانتظرنا، لكنها لم تأتِ. ثمّ نظرنا، فإذا هي قادمة... تضحك ملء قلبها...

رنوتُ إلى زويا في دهشة. كانت تعلّق جوربيها المبلّلين ليجفّا قريباً من المصطلى. قلتُ:

ـ حسناً، أنت تعرفين أنّي لم أتوقّع منك ذلك. صبية كبيرة مثلك وفي مثل هذه...

فأكملت زويا مبتسمة:

ـ الحماقة؟

ـ أجل، أرجو ألّا تغضبي لهذا القول، فلم يكُ ذلك على شيء من الذكاء.

وانفجر شورا:

ـ ذلك يكون طبيعيّاً لو أنّي ذهبتُ أنا.

فتذمّرت إيرا:

ـ وأرادت أن ترجع على قدميها أيضاً. وكان علينا أن نغريها بأي شيء كان لتعود معنا في الترام.

فصحتُ، وقد لمحت كيف كانت إيرا مبلّلة:

ـ انزعي ثيابك، يا إيرا! ودفّئي نفسَك!

فاعترفت إيرا:

ـ كلا، يفضل أن أذهب إلى الدار. لسوف تغضب أمي أيضاً...

ولما بقينا لوحدنا سادنا الصمت زمناً. كانت زويا تبتسم مغتبطة، لكنها لم تفتح الحديث. قبعت هادئة تجفّف وتدفئ نفسها قرب المُصطلى.

قال شورا في النهاية.

ـ حسناً، لقد ربحت الرهان. فما هو الثمن؟

فأجابت زويا، وفي صوتها رنّة أسف طبيعي:

ـ أوه، لم أفكّر في هذا. كان بيننا رهان، لكنّنا لم نقلْ على ماذا...

فنبر شورا:

ـ حسناً، يا لك من غريبة حقاً! كان يُحسن أن تفكري فيَّ: إذا ربحتُ فأعطوا شورا كرة قدم جديدة، أو شيئاً من هذا النوع. أفلا يمكنك التفكير في أخيك؟

وهزَّ رأسه في توبيخ ساخراً، وأضاف بصورة جديّة:

ـ لكن لا بأس، فأنا لم أتوقّع منكِ شيئاً مثل هذا. ما الذي أوحى لك بفكرة البرهنة على جرأتك هكذا؟ أنا نفسي أعرف أنّ ذلك غير معقول!

فردّت زويا:

ـ أتظنّني لا أرى رأيك؟ إلّا أنّني أردت من كلّ قلبي بثَّ الرعب في قلوب الفتيات. فانطلقت عبر الغابة، وكانت النتيجة أنّ الخوف تملَّك أفئدتهنَّ!

وضحكت، فلم نتمالك نفسينا، شورا وأنا، من مشاركتها الضحك.

تانيا سولوماخا

بدأت الحديث في الأمور المالية مع الطفلين في وقت مبكر جداً.

ففي عام 1937، على ما أذكر. افتتحنا حساباً للتوفير وأودعنا فيه بخشوع الروبلات الخمسة والسبعين الأولى. وكنا كلما تمكّنا من ادّخار قليل من المال في نهاية الشهر، حملته زويا إلى مصرف التوفير، وإن لم يتجاوز المبلغ الخمسة عشر أو العشرين روبلاً.

وقد ظهر الآن مصروف آخر في لائحتنا: المصرف رقم 159782، حيث يرسل مواطنو الاتحاد السوفييتي المال المجموع لنساء الجمهورية الإسبانية وأطفالها.

كان شورا أوّل من فكّر في الأمر: أستطيع وزويا أن نوفّر شيئاً من ثمن طعام الصباح.

فقلت:

ـ كلا، لن نمسَّ طعام إفطارنا. أما إذا تغيَّبت عن لعبة أو لعبتين من مباريات كرة القدم ـ فسيكون ذلك أفضل...

واحتفظنا بلائحة للأشياء الأكثر ضرورة: فزويا لا تملك قفازاً، وحذاء شورا قد اهترأ، وخفّاي ملأتهما الثقوب. وخلاف ذلك فقد نفدت دهانات شورا، وزويا في حاجة إلى خيطان لأشغال التخريم والتطريز. وكانت اللائحة تثير جدالاً بيننا على الدوام: فالطفلان يصرّان على ابتياع ما أحتاج أولاً.

كانت الكتب المصروف المفضَّل لدينا.

أيُّ سرور يتملك المرء وهو يجول داخل إحدى المكتبات، يبحث بين الكتب الموضوعة على الرفوف، ويرجع إلى الخلف، ويقف على رؤوس أصابعه وقد مال رأسه إلى جانب واحد،

ويقرأ العناوين على ظهور الكتب المصفوفة على طول الرفوف العالية، ومن ثمّ يتطلع فيها على مهل ليتحقق من جدارتها وأهميتها.

وأخيراً يرجع إلى البيت يحمل صرَّة ثقيلة ملفوفة! ويوم كان كتاب جديد يزين مكتبتنا (وكانت العادة أن يوضع في الزاوية، قريباً من رأس زويا) فهو فرحة عظيمة عندنا. فنظلّ نرنو إلى الضيف الجديد مرة تلو أخرى. وكنا نقرأ الكتاب الجديد بالتتابع، وفي بعض الأحيان نقرؤه بصوت عالٍ في عشيّات الآحاد.

قرأنا مرة كتاباً يضمُّ مجموعة من الأقاصيص الحقيقية عنوانه «نساء في الحرب الأهلية»، في العشيات وبصوت عالٍ. ولأتذكر أني جلست أرفأ الجوارب، بينا شورا يرسم بالزيت، وزويا تفتح الكتاب لتقرأ. قال شورا على غير انتظار:

ـ لا تقرئي القصص بالتتابع، بل افتحي الكتاب كيفما اتفق، وسنبدأ بأول قصة نقع عليها.

ولست أعرف بالضبط ما الذي أدخل هذه الفكرة إلى رأس شورا، سوى أننا تبنَّينا مشروعه وكانت أول قصة قرأناها بعنوان: «تانيا سولوماخا». كانت حوادثها تدور حول معلمة قريةٍ، وهي تحوي ملاحظات كتبها أشخاص ثلاثة: أخوها، وجريشا بولوفينكو أحد تلاميذها، وأختها الصغرى.

روى لنا أخوها طفولتها، كيف ترعرعت، وكيف أحبَّت القراءة. وكان ثمة مكان توقفت فيه زويا عن القراءة وشخصت نحوي. كانت السطور تروي كيف قرأت تانيا مرة الـ«ذبابة» بصوت عالٍ، لقد أنهت تانيا قراءة القصة في ساعة متأخرة من الليل، وقالت لأخيها: «أفتحسبني لا أعرف لماذا أعيش؟ لأحسَّ أني أستطيع وَهْبَ دمي، قطرة بعد قطرة، كي يعيش الناس حياةً أفضل».

وبعد تخرُّجها من المدرسة التكميلية، بدأت تانيا تُعلِّم في قرية من قرى الكوبان. وفي عشية الثورة شاركت في منظمة بلشفية سرّية، وكانت خلال الحرب الأهلية ملتحقة

بفصيلة الحرس الأحمر.

وفي شهر تشرين الثاني من عام 1918، دخل البيض قرية كوزمينسكوي حيث كانت تانيا مريضة بالتيفوس. وطوَّحوا بالفتاة المريضة في السجن، وعذبوها آملين أن تخون رفاقها.

وروى جريشا بولوفينكو كيف ذهب ورفاق صفِّه إلى السجن. كانوا يبغون رؤية معلّمتهم ومساعدتها. فشاهدوا كيف أخرجت تانيا إلى الساحة، مزرقّة الجلد دامية الجروح، ثمّ وضعت مستندة إلى جدار، وشُدِهَ الصبيان لرؤية وجهها الهادئ الرزين، الذي ما كان يُعبِّر عن الخوف، أو الصلاة، أو الاسترحام، أو حتى الألم من العذاب الذي قاست وطأته. وشخصت إلى الجمع المتراكم بعينين واسعتين.

وعلى غير انتظار، رفعت يدها ونبرتْ في صوت واضح عالي الجرس:

«تستطيعون ضربي ما شئتم، تستطيعون قتلي، لكن السوفيتيين لم يموتوا ـ إن السوفيتيين أحياء يرزقون، ولسوف يعودون!».

وضربها رقيب قوزاقي بعقب البندقية فجُرحت كتفها وسالت الدماء منها. ورمى القوزاق السكارى بأنفسهم عليها، يرفسونها ويضربونها بأعقاب بنادقهم. وزعق الجلَّاد القوزاقي في وجهها: «سوف أجعلك تستجدين الرحمة!»، فأجابت تانيا، وهي تمسح الدماء المنسابة على وجهها: «لن تستطيع ذلك أبداً! ولن أستجدي منك شيئاً على الإطلاق!».

وقرأت زويا كيف تعذبت تانيا، مرة بعد مرة، يوماً بعد يوم، وانتقم البيض لأنفسهم منها لأنها ما كانت تبكي، ولأنها ما كانت تستجدي الرحمة، ولأنها كانت تبدو شجاعة في وجوه معذبيها...

وضعت زويا الكتاب جانباً، ونهضت، وخطت صوب النافذة، ووقفت هنالك فترة طويلة من غير أن تستدير أو تلتفت. نادراً ما كانت تبكي، وما كانت تحبّ أن يرى الآخرون دموعها.

والتقط شورا، الذي تخلى عن «ألبومه» بعد أن رسم فيه ما سمح له الوقت منذ بدء القراءة، التقط الكتاب وتابع القراءة. كتبت رايا سولوماخا، شقيقة تانيا، تقول: «وهذا ما وصلني من أخبار عن موتها، اندفع القوزاق صبيحة السابع من تشرين الثاني إلى السجن. وشرعوا يضربون المساجين بأعقاب البنادق، ويقتادونهم خارج الزنزانة. واستدارت تانيا عند الباب صوب أولئك الذين تخلّفوا في الزنزانة وقالت، وصوتها يرنُّ صداه:

«وداعاً، أيها الرفاق! أتمنى ألَّا يكون هذا الدم المتناثر على الجدران قد هُدِر عبثاً! إن السوفييتيين قادمون!».

«وفي الصباح الجليدي الباكر، في المرج العام، قتل القوزاق بسيوفهم ثمانية عشر بطلاً. وكانت تانيا آخر الساقطين. لقد احتفظت بكلمتها، فلم تستجدِ الرحمة من جلاديها».

ولأذكر أن زويا لم تكُ الوحيدة التي بكت من تلك القوة المدهشة والصفاء الخالص في خلق تانيا.

إيرادهما الأول

قدم شقيقي لرؤيتنا ذات عشية. وبعدما تناولنا الشاي، وثرثر مع الطفلين، اللذين كانا أبداً يغتبطان للقياه أشد الاغتباط، ساده الصمت فجأة، وطرق صندوقه الواسع، المحزوم بشدة، ونظر إلينا نظرةً ذات مغزى، فأدركنا سريعاً أن لديه شيئاً خاصاً لنا.

استوضحت زويا:

ـ ماذا تحمل معك، أيها العم سيرجي؟

فلم يجب على الفور. وفتح حقيبته ببطء، وقد غمزها فكأنه يخبئ مؤامرة ما وأخرج بعض الرسوم وراح يتفحَّصها، فيما نحن ننتظر بنفاد صبر.

قال سيرجي أخيراً:

ـ هذه الرسوم يجب أن تُنسخ. ما هي علامتك في الرسم، يا شورا؟

فردت زويا:

ـ إنه ينال درجة «ممتاز».

ـ حسناً إذن، يا ولدي شورا، إن لديَّ عملاً لك. إنه عمل طيب بالنسبة إلى رجل، وسوف تساعد العائلة. هذه حقيبة أدواتي، ويرجع تاريخها إلى أيام دراستي، لكن الأدوات جيدة، وكل شيء مرتب وفي مكانه. إن لديك حبراً صينياً، ما؟

فقالت زويا:

ـ أجل، وورقاً شفافاً أيضاً.

ـ حسناً، ذلك رائع! اقترب مني، وسأشرح لك الأمر. ليس العمل بمعقّد، لكنّه يحتاج إلى دقة وإتقان عظيمين، وسوف ينمّي مواهبك.

جلست زويا قريباً من عمها. أما شورا ـ وكان واقفاً وظهره إلى المصطلى ـ فلم يتحرك من مكانه ولم ينطق بحرف، ورماه سيرجي بنظرة، ثمّ انحنى على الرسوم وراح يشرح العمل.

لقد فهمنا، شقيقي وأنا، جوهر القضية.

كان ثمة ميزة واحدة في شخصية شورا تقلقني كثيراً: ألا وهي عناده، ولأضرب مثلاً، كان شورا يهوى الموسيقى، وكانت له أُذنٌ موسيقية جيدة، وكان يعزف على قيثار والده منذ زمن بعيد. وكان يحدث أحياناً أنّه يعجز عن التقاط اللحن سريعاً. فإذا قلتُ له: «أخطأت هنا، هكذا يجب أن يكون اللحن». يصغي شورا إليَّ، ثمّ يجيب في برودٍ عظيم: «لكنني أحبه أكثر على هذا الغرار»، ويتابع العزف على طريقته الخاصة. ويعرف تماماً أنني على صواب، وسوف يعزف اللحن بتوقيع مضبوط في المرة التالية، أمّا هذا المرة فلن يفعل. وكان يتبع في حياته طريقة صارمة: كان يتبنّى جميع الأحكام، كبيرها وصغيرها، بحرية واستقلال ـ ليس من يستطيع أن يلفت نظره إلى ماذا يفعل، فهو رجل بالغ، يعرف كل شيء ويفهم كل شيء من تلقاء نفسه!

ويظهر أن اقتراح عمّه بدا له اعتداءً على حريّته المحبوبة، على حقوقه في إدارة نفسه. وبينا سيرجي يشرح ماذا يجب عمله وكيف، كان شورا يرهف السمع بانتباه وصمتٍ عن بعد. أما سيرجي ـ فلم يُعرْ شورا أدنى اهتمام.

ولما صار أخي قريباً من الباب، أعلن من دون أن يعني أحداً بكلامه على التخصيص:

ـ إنّي في حاجة إلى الرسوم في مدّة أسبوع واحد.

تناولت زويا كتاب الفيزياء. وبدأت أنا، كعادتي، أصلح وظائف تلاميذي. وفتح شورا كتاباً، وبقيت الغرفة ملتفَّة بهدوئها فترة طويلة بعد خروج شقيقي. لكن زويا نضهت لحظتئذٍ،

وتمطّت، ثمّ هزت رأسها (كان من عادتها أن تردَّ إلى الوراء خصلة سوداء من شعرها تسقط أبداً على حاجبها الأيمن). وأدركت أنها انتهت من وظائفها المنزلية.

قالت زويا، وبدأت تنشر الرسوم على المائدة:

ـ حسناً، حان وقت العمل، في استطاعتنا إنهاء نصف العمل الليلة، أليس كذلك، يا أماه؟

فأغلق شورا كتابه، ورنا إلى أخته، وقال بعبوس:

ـ اجلسي، وتابعي قراءة «جامعاتي»... (كانت زويا، في تلك الفترة، تقرأ تاريخ حياة جوركي في ثلاثة مجلدات). في مكنتي أن أرسم أفضل منك. وسأتدبر أمري من دونك.

غير أن زويا لم تصغِ له. وشغلا معاً المائدة كلها برسومهما، فاضطررت إلى الانزواء في أقصى الحافة بدفاتري. وسرعان ما غرق الطفلان في عملهما. ومثلما يحدث غالباً عندما تنهمك في الخياطة أو الغسيل أو التنظيف ـ أو عندما تقوم بأي عمل لا يتطلب من الإنسان سوى يد ماهرةٍ وعينٍ ساهرة ـ راحت زويا تهمهم بلطف:

آه، لحفيف العشب الأخضر المزرق!

آه، يا لعشب السهب الأخضر المزرق!

تلك الأعمال البعيدة،

ستخلد إلى الأبد.

رغم أن الرعد أخلد إلى السكون!

وأرهف شورا أذنيه في صمت. ثمّ شاركها الغناء، في هدوء بادئ ذي بدء. ثمّ جمّع قواه واختلط صوته بصوت زويا، وطفق الاثنان ينشدان بصوت نقي واضح. وأنهيا الأنشودة

المستحدثة عن الفتاة القوزاقية التي سقطت في المعركة وهي تقاتل قطّاع الطريق، وبدأت زويا أغنية جديدة، كنا نحبها جميعاً، وكان أناتولي بتروفيتش اعتاد الترنُّم بها كثيراً:

الدنيبر العريض يزمجر ويخرخر،

والريح الغاضبة تمزّق الأوراق،

والغابة تضطجع عريضةً صاخبة،

والمياه تتدفَّقُ في أمواجٍ متوعِّدة.

وهكذا ظلّا يشتغلان وينشدان، وكنت أسمعهما من دون أن أعيرهما أذنيَّ: ما كانت الكلمات تصلني، بل الإيقاع العذب، والعاطفة التي يترنمان بها. وكنت سعيدة، سعيدة جداً.

وفي بحر أسبوع حمل شورا العمل المنتهي إلى عمه، ورجع وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة، وتحت إبطه حزمة من الرسوم الحديثة.

ـ لقد أحبَّ ذلك! وسنتناول المال في غضون أسبوع. أسمعتِ هذا، يا أمّي! مالُنا، زويا وأنا، كسبناه من تلقاء نفسينا:

فسألتُ:

ـ ألم يقل العم سيرجي شيئاً آخر؟

فرماني شورا بنظرة ثاقبة، وضحك:

ـ وقال أيضاً: «هذه هي الطريق، يا صغيري!».

وبعد أسبوعٍ واحد، وقد استيقظت لتوّي في البكور، بصرتُ بزوجين من الجوارب وياقة من الحرير الأبيض جميلة جداً على مقعدٍ قريب مني ـ لقد ابتاع الطفلان هذه الأشياء لي

من إيرادهما الأول وكانت هنالك أيضاً، في مغلَّف صغير، بقية المال.

وبعد زمنٍ طويل، وأنا في طريق عودتي إلى الدار، كثيراً ما سمعت الولدين ينشدان. ولمَّا اجتزت السلم، كنت أعرف أنهما منهمكان من جديد في رسومهما.

فيرا سيرجييفنا

سارت حياتنا برقة وهدوء، من دون أن يقع أي حدث خاص غير مألوف ـ وعلى الأقل، هكذا قد يكون تراءى للغريب. كان كل يوم جديد يشبه، في الظاهر، اليوم الذي سبقه: المدرسة والعمل، والمسرح أو حفلة موسيقية من حين لآخر، ثمّ الدروس، والكتب، وراحة قصيرة من جديد ـ هذا كل شيء. وفي الحقيقة، ذلك لم يكن كل شيء في حالٍ من الأحوال.

إن كل ساعة تمرّ في حياة الطفل أو المراهق لها أهميتها. ثمة عوالم جديدة تتفتَّح أمامه باستمرار فهو يبدأ يفكر باستقلال ولا يسلّم بشيء من دون جدل. إنه ينعم النظر في كل شيء، ويقرّر من ثمّ ما هو جيد وما هو رديء، ما هو سامٍ ونبيل، وما هو وضيع وسافل، ما هو صداقة حقيقية، وإخلاص، وعدل، وأي هدف أو غاية له في الحياة. وفي كل ساعة، وفي كل دقيقة، توقظ الحياة فيه أسئلة جديدة متكاثرة، وتجبره على البحث والتفكير. وتكون ردود أفعاله صارمة عميقة.

منذ زمن بعيد والكتاب لم يعد مجرَّد وسيلة صرفة للراحة أو التسلية. كلا، إنه صديق، وناصح، بل قائد. واعتادت زويا أن تردّد منذ طفولتها: «جميع ما تقول الكتب صحيح!»، وهي اليوم تمعن النظر في الكتاب ساعات بطولها، تجادله وتتوقع من الكتاب أن يجيب على جميع أسئلتها.

قرأنا بعد انتهائنا من قصة تانيا سولوماخا كتاب نيقولاي أوستروفسكي الذي لا يُنسى على مرّ الأيام: «كيف سقينا الفولاذ». وقرأنا عن بافل كورشاجين، وعن حياته النقية الملهمة ـ وهو كتاب لا يفشل أبداً في ترك أثره العميق في عقل القارئ الفتى. وقد خلَّف هذا الكتاب تأثيراً لا يُمحى في عقلَي ولديَّ وفؤادَيهما.

إن كل كتاب جديد لهو حدث هام بالنسبة إلى الطفلين، فهما يتحدثان عما قرأاه فكأن ذلك من صميم الحياة الواقعية، ويتجادلان بحرارة عن الشخصيات التي يحبانها أو يكرهانها

من صميم قلبيهما.

إن الالتقاء بكتاب جيّد ـ كتاب حكيم، وقوي، وشريف ـ هو أمر هام في عهد الصبا! والبشر الواقعيون، من دون ريب، لا يقلون أهمية عن ذلك. وقد تصادف شخصية تقرِّر في بعض الأحيان مجرى حياتك في المستقبل.

وكانت المدرسة تعني، دائماً، شيئاً كثيراً في حياة طفليّ.

كانا يحبّان أساتذتهما ويحترمانهم، ويتحدثان خاصة بالثناء عن المدير إيفان ألكسييفيتش يازيف.

كانت زويا تردّد في أغلب الأحيان:

ـ إنه رجل طيب وأستاذ عادل. ويا له من بستاني! لنستطيع تسميته بمنشورين.

وكان شورا أبداً يهوى الحديث عن دروس الرياضيات، وعن كيف يجعلك نيقولاي فاسيليفيتش تفكر وتبحث عن الجواب، وعن كيف يقبض دائما على أولئك الذي يجيبون على أسئلته جُزافاً أو يتعلمون القاعدة بصورة آلية محضة.

ـ وهو لا يقدر، بكل بساطة، أن يطيق الببغاوات! لكنه إذا أدرك أن أحدهم فهم ـ فتلك قضية مختلفة. وإذا أخطأت مرة أو مرتين، فهو يقول: «لا بأس، لا تُعجِّل، فكّر برهة». فيصبح الحصول على الجواب الصحيح أيسر عندئذٍ!

كان شورا وزويا يتحدثان دائماً بحرارة خاصة عن قائدة صفهما إيكاترينا ميخائيلوفنا: «إنها لطيفة جداً، وهي أبداً تدافع عنا لدى المديرة».

وفي الواقع، كنت أسمع غالباً أن أحدهم إذا كان مشاغباً في الصف أو وقع في مأزق ما، فإنّ إيكاترينا ميخائيلوفنا أول من يتشفَّع عن تصرفاته.

كان تُدرِّس الألمانية. وما كانت ترفع صوتها أبداً. لكنّ صفها كان أبداً هادئاً جداً. كانت متساهلة، ومع ذلك لم يخطر لأحد من طلابها أن يهمل وظائفه. كانت تحب الأطفال، وكانوا يبادلونها الحب. ولهذا السبب ما كانت تعترضها المصاعب في نطاق دروسها، ولا في نجاح تدريسها.

وبدأ دور جديد في حياة زويا وشورا يوم شرع صفّها يدرس اللغة والأدب الروسيين على يدي المعلمة فيرا سيرجييفنا نوفوسيلوفا.

كانت زويا وشورا بخيلَين جداً في الإفصاح عن شعورهما. وكانت هذه الصفة تتضح أكثر فأكثر بمقدار ما يتقدَّم السنُّ بهما. كانا يتجنبان الكلمات الفخمة فكأنها الطاعون، ويقتصدان من تعابير الحب، والحنان، والسرور، والغضب، والنفور، وما شابه. وكنت أطلع على شعور طفليّ وإحساساتهما من عينيهما، ومن صمتهما، ومن طريقة زويا في السير من زاوية في الغرفة إلى زاوية أخرى حينما تتأثر أو تجرح كرامتها.

وذات مرة ـ كانت زويا تغازل الثانية عشرة وقتئذٍ ـ شرع أحد الصبيان يعذّب كلباً ويضايقه في الشارع قريباً من نافذتنا. كان يرميه بالحجارة، ويشدّ له ذيله، ثمّ يضع قطعة من المقانق تحت أنفه مباشرة، وما إن يحاول الكلب خطف القّطعة الطيبة المذاق حتى يُبعدها الصبي عنه ثانية. وشاهدت زويا ذلك كله من خلال النافذة، فركضت مسرعة صوب الشارع من غير أن تلبس معطفها (كان الخريف بارداً)، وانقلبت سحنتها بحيث خشيت أن تطوّح نفسها على الصبي تصيح به، وربما تضربه بقبضتها. لكنها لم ترفع من جرس صوتها أبداً.

سمعتها تقول، وهي تركض هابطة السلَّم:

ـ كفى، أنت لست صبياً، أنت شقي وغد!

قالت ذلك في هدوء، لكن باحتقار بليغ بحيث تغضَّن الصبي، ومن ثمّ انسلَّ من دون أن ينطق بحرف...

كانت زويا تقول عن شخص ما: «إنه شخص طيب»، وكان ذلك يكفي كي أعرف أنها تكنُّ لهذا الشخص أعمق الاحترام.

لكن زويا وشورا لم يحاولا إخفاء إعجابهما بفيرا سيرجيفينا.

كانت زويا تهمهم دائماً:

ـ آه، لو تعرفينها!

ـ حسناً، حدثيني عنها! ماذا تحبين فيها؟

ـ لست أستطيع شرحاً... حسناً، لربما أستطيع. انظري، عندما تدخل الصف وتشرع تحدثنا عن شيء ما، نفهم جميعاً أنها لا تتابع الدرس لأنه يدخل في برنامج ذلك النهار، بل كانت تحسّ، هي نفسها، أن ما ستقول مهمّ وذو فائدة عظيمة. وما كانت تريدنا أن نحفظ جميع الأمور عن ظهر قلب، بل أن نفكر ونفهم. ويقول الصغار إنها تستفزنا غالباً لتمزيق الناس في الكتب إلى قطع متناثرة. وذلك صحيح، فهي تسألنا: «أحببتموه، لمَ أحببتموه؟ وكيف كان يجب أن يتصرَّف في رأيكم؟»، وما كنا نلاحظ أنها تجنح إلى الصمت، وأننا نحن الذين نتكلم، ويثب أحدنا أول الأمر، ثمّ يتبعه آخر. ونتجادل، ونغضب، ومن ثمّ، وقتما يقول الجميع ما يشاؤون، تتدخل هي في الأمر ببساطة وهدوء، وكأنها تحدث ثلاثة أشخاص، لا ثلاثين شخصاً. ويتوضح لنا كل شيء بسرعة: من هو المحق، ومن هو المخطئ. وإن المرء ليشتاق أن يقرأ جميع الأشياء التي تتحدث عنها، وبعد أن يصغي إليها، يحسّ أنّه قرأ كتاباً بطريقة جديدة كل الجدة، إذ إنّه يدرك أشياء كثيرة لم ينتبه إليها من قبل... ومن ثمّ، يجب أن نشكرها لأننا نعرف موسكو معرفة حقيقية الآن. فقد سألتنا في أول درس لها: «هل ذهبتم إلى متحف ليو تولستوي؟ هل ذهبتم إلى متحف أوستانكينو؟». ترى أي مكان لم نزره وإياها! لقد غدونا إلى المتاحف جميعاً! وفي كل مرة، كانت تمنحنا شيئاً نفكر فيه.

وأَضاف شورا:

ـ أجل، هذا صحيح، إنها شخص طيب جداً، طيب جداً!

إلا أنّه يتضايق مع ذلك من مثل هذه الكلمات العاطفية، وكان يمتدح أبداً معلمته بصوت أجش فظ، إما كي يغطي ضيقه أو يعطي كلماته ثقلاً أعظم، الأمر الذي لم يكُ سهلاً بالنسبة إليه. لكن عينيه وتعابير وجهه تقول بكل وضوح ودون أدنى تردد: إنها رائعة!

وحينما بدأ الصف يقرأ لتشيرنيشفسكي فهمتُ تماماً ماذا يعني بإيقاظ الاهتمام في الأدب، والكاتب، والتاريخ.

* * *

سألني مرة صاحب المكتبة الذي كان يقدم لي الكتب المطلوبة من زويا:

ـ هل ابنتك طالبة في كلية؟

كانت اللوائح دائماً طويلة متنوِّعة. أي شيء لم تقرأه زويا عن كومونة باريس! كان ثمة آثار تاريخية وتراجم للشاعرين الفرنسيين العاملين ـ بوتييه وكليمانت. وقد قرأت عدداً أكثر من الكتب عن الحرب الوطنية عام 1812. وألهب مخيلتها كوتوزوف وباجراتيون والمعارك التي خاضا غمارها، فكانت تردد مسرورة عبارات من رواية تولستوي «الحرب والسلم» عن ظهر قلب. وحين كانت تهيئ لكتابة تقريرها عن إيليا موروميت ـ بطل الأسطورة الشعبية ـ كتبت قائمة طويلة من الكتب النادرة التي فتشتُ عليها بمشقة وصعوبة في المكتبات المختلفة.

ولم يكُ عمل زويا الجدي بالجديد عليَّ، فأنا أعرف أنها لا تستطيع سوى الانطلاق رأساً إلى الينبوع الأعمق، إلى قلب القضية بالذات، بحيث تدفن نفسها دفناً بين طيات الموضوع الذي تدرسه. لكنه لم يسبق لها، قبل قراءة تشيرنيشيفسكي، أن تعمّقت في قضية بمثل هذه الكلية وهذا الانطلاق. كان اليوم الذي تعرَّفت فيه تشيرنيشيفسكي من أهم أيام حياتها.

قالت لي زويا، يوم عادت إلى البيت من الدرس الذي تحدثت فيه فيرا سيرجييفنا عن حياة تشيرنيشيفسكي:

ـ أريد أن أعرف «كل شيء» عنه، يا أماه! وليس عندنا في المدرسة من مؤلفاته غير «ما العمل؟». أرجوك التفتيش عما تحتوي مكتبتكم. أريد الحصول على أكبر عددٍ ممكن من المعلومات عن سيرة حياته، وعن مراسلاته وذكريات معاصريه. أريد أن أكون قادرة على أن أتصور كيف كان يعيش.

وانقلبت زويا فجأة من فتاة صامتة إلى فتاة ثرثارة. والظاهر أنها كانت تودُّ المساهمة في كل فكرة، وكل اكتشاف، وكل ضوء جديد يشعُّ من الأشياء التي قرأت.

كانت تطلعني على تاريخ حياة قديم لتشيرنيشيفسكي، وتقول:

ـ يقولون هنا إنه لم يهتم في سنوات دراسته الأولى بأي شيء سوى الدراسة. لكن انظري إلى الشعر اللاتيني الذي طلب من ابن عمه أن يترجمه: «فلتنتصر العدالة أو ليُمحَ العالم!» أو هذه: «فليضمحلَّ النفاق أو لتسقط السماء!». أيمكن أن يحدث ذلك مصادفة!... وهاهُنا، من رسالة إلى الناقد الأدبي أ. ن. يبين: «أن تعمل لا لمجدٍ زائل، بل لمجد خالد لوطنك، ولخير البشرية ـ أي شيء يمكن أن يكون أسمى من هذا وأحب؟»... ماما، لن أزعجك أكثر مما فعلت، لكن أصغي إلى هذه الجملة فقط، إنها ملاحظة في يومياته: «سأمنح حياتي بكل سرور في سبيل انتصار اعتقاداتي! في سبيل انتصار الحرية، والمساواة، والأخوة، والازدهار، في سبيل إبادة الفقر، والخطيئة! فإذا اقتنعت بعدالة معتقداتي، وأن هذه المعتقدات ستنتصر، فلن آسف أبداً إذا لم أرَ اليوم الذي ستنتصر فيه وتحكم، وسيكون الموت نفسه شهياً حلواً، وليس مراً حاداً، لو اقتنعت بذلك فقط...». وتصوري أن ثمة من يقول بعد ذلك إنه لم يكن يُعنى سوى بالدراسة!

وبدأت زويا تقرأ «ما العمل؟»، فهي لم تستطع انتزاع نفسها من الكتاب بعد ذلك. كانت مستغرقة فيه حتى الدرجة القصوى، بحيث نسيت، للمرة الأولى في حياتها على ما أظنّ،

أن تسخن الغداء في ساعته المعهودة، وكادت لا تراني حين دخلت الغرفة. ظلت برهة من الوقت تحملق فيَّ بعينين غائرتين لا تبصران، ثمّ عادت فانحنت على الكتاب من جديد. وأشعلت مطهى الكاز من دون أن أزعجها، ووضعت الحساء، وحملت الدلو لصبّ الماء في حوض الغسيل. وفي تلك اللحظة تحركت زويا، ثمّ قفزت، واختطفت الدلو مني وهي تجمجم:

ـ سأفعل ذلك بنفسي!

سعيتُ وشورا، تلك العشية بعد الطعام، إلى فراشينا. ولما استيقظت في ساعة متأخرة من الليل كانت زويا عاكفة على القراءة. فنهضت، وتناولت الكتاب منها في لطف، ووضعته على الرف، ورنت زويا إليَّ بضراعة وتوسُّل.

قلت، وأنا مقتنعة أن قولي هذا هو الشيء الوحيد الذي يقنعها:

ـ ليصعب عليَّ النوم والنور مضاء، ويجب أن أنهض باكراً في الغداة. ولم يستطع شورا في الصباح امتناعاً عن مضايقة شقيقته:

ـ أتعرفين، يا أمي، أن زويا غرقت في ذلك الكتاب توَّ عودتها من المدرسة نهار البارحة. ورأيت أنها ضاعت عن هذا العالم. لأتوقع أنها ستشرع عن قريب تنام على المسامير مثل راخميتوف.

ولم تقل زويا شيئاً، لكنها رجعت مساءً وقد حملت كتاباً يتضمن أقوال جورجي ديميتروف عن راخميتوف ـ كيف أضحى الكاتب الروسي البطل أنموذجاً للعامل البلغاري الفتى الذي يخطو خطواته الأولى في الحركة الثورية. لقد كتب ديميتروف كيف جاهد في فتوته كي يصبح حازماً، قوي الإرادة، صلب العود مثل راخميتوف، وكيف جاهد ليخضع حياته الشخصية في سبيل القضية العظمى ـ ألا وهي النضال في سبيل تحرير الكادحين.

وكان موضوع رسالة زويا التالية ـ «حياة تشيرنيشيفسكي». قرأت وبحثت من دون أن تعرف الملل عن المزيد من المواد، وما أكثر ما نبشت حقائق لم أكُ أعلم عنها شيئاً.

وصفت زويا إعدام تشيرنيشيفسكي المدني (يعني الاستهزائي) ببلاغة موجزة. الصباح الندي المضبّ، والمشنقة بقائمتها السوداء وسلاسلها، واللوحة السوداء بكلماتها البيض «مجرم سياسي»، التي علقوها في عنق تشيرنيشيفسكي.

ثمّ كانت ثلاثة أشهر من الطواف المضني، ومئات الفراسخ الطويلة اللامتناهية وآلافها. وأخيراً كادايا ـ المنفي السيبيري القصي حيث جربت الحكومة القيصرية أن تطفئ «الشعلة البرّاقة للعلم المضطهد».

وعثرت زويا في أحد كتبها على صورة بالحبر، أو بالأحرى مسودّة صورة، رسمها أحد المنفيين السياسيين للكوخ الذي عاش فيه تشيرنيشيفسكي. وحركت حماسة زويا أخاها شورا، فنقل تلك المسودة على دفترها، ونجح في تأدية الشيء الرئيس فيها: اليأس الآخذ بخناق الصقع المهجور البارد. إن الخط القاسي للأفق، والمستنقع، والأراضي البور الموحلة، والغابة الصغيرة الرقيقة، وصلبان القبور ـ إن هذا كله بدا وقد سحقته السموات الواطئة المتبسّلة، وكذلك فإن ثقلاً مخيفاً يسحق الكوخ الصغير عينه، هذا الكوخ الذي لا يتوقع المرء خلف جدرانه شيئاً من الدفء، أو الراحة، أو الهناء...

وراحت السنوات تجرر أذيالها في دهشة... حياة كئيبة مغمومة. وبدت الرسائل التي كتبها نيقولاي جافريلوفيتش تشيرنيشيفسكي إلى زوجه وأطفاله وكأنها لا تُصدَّق، رسائل عامرة بالدفء، والنور، والحنان، والحب، رسائل تحتاج إلى شهور طويلة لتمرَّ عبر الليل والثلج.

وهكذا مرت سبع سنوات طويلة. ويا للرسالة الشهيرة التي كتبها تشيرنيشيفسكي ليلة الإفراج عنه إلى زوجه أولجا سوكراتوفنا!

«يا رفيقتي العزيزة، يا فرحي، يا حبي الوحيد وفكرتي الوحيدة... أكتب إليك في ذكرى زواجنا، يا فرحي العزيز، أشكرك كثيراً لأنك حملت النور إلى حياتي... وفي العاشر من آب سوف أكفُّ عن أن أكون كسولاً عديم الفائدة لك وللأطفال. أعتقد أني سأجد مع الخريف مكاناً في إيركوتسك، أو قريباً منها، وسيكون في مقدوري العمل كالأيام السابقة... وسرعان ما يسير كل شيء على ما يرام... منذ هذا الخريف...».

كانت كل كلمة تتنفس بالثقة والرجاء في لقائهما القريب. وعوضاً عن ذلك كان المنفى إلى فيليوسك، وثلاثة عشر عاماً طويلاً آخر من الوحدة والانفراد! وطال الشتاء القارس الجليدي نصف عام ـ وكل شيء فيما حوله، المستنقعات والتوندرا. تلك كانت أقسى سنوات السجن، المحرومة حتى من أمل الإعتاق. لم يكن ثَمَّ رجاءٌ أمامه. ليس سوى الوحدة، والليل، والثلج...

ومن ثَمّ جاء إلى تشيرنيشيفسكي زعيمٌ يدعى فينيكوف، وسلَّمه اقتراحاً من الحكومة بإرسال عريضة يطلب الصفح فيها، ووعداً بأن تكون المكافأة الإفراج عنه والعودة إلى وطنه.

قال تشيرنيشيفسكي:

ـ لماذا أطلب الصفح؟ هذا هو السؤال... ليخيّل إليَّ أني نفيت لأنَّ رأسي ورأس رئيس الشرطة شوفالوف كانا من نسيج مختلف، وهل يستطيع المرء أن يطلب الصفح لهذا؟ أشكرك على مشقّتك... إنني أرفض أن أطلب الصفح رفضاً باتاً...

ومرة ثانية، راح الزمن يجرّ أذياله. وكانت الحياة تنساب بعيداً يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة...

كان فكره نشيطاً قوياً. فكرٌ يحنُّ إلى العمل والإبداع، فكرٌ يستطيع التكهُّن بالمستقبل! وإن يديه هما اللتان سطرتا تلك النداءات الساخطة الحماسية إلى الفلاحين الروسيين. وإن

صوته هو الذي استحثَّ هرتزن كيلا يدعو إلى الصلاة في مجلته «الجرس»، بل أن ينادي روسيا إلى حمل الفأس لقد كرَّس حياته كلها لشيء واحد، وجاهد دائماً في سبيل هدف واحد ـ أن ينال المظلوم الحرية. وقد كتب إلى امرأته مرة يقول: «أنا لست ملكاً لنفسي، بل قد كان نيكراسوف يودع الحياة ـ وكانت الأخبار ضربة قاصمة لتشيرنيشيفسكي. كتب إلى بيين: «إذا كان نيكراسوف ما يزال يتنفّس حين تستلم رسالتي، فقل له إني أحبه كثيراً ككائن إنساني، وإني أشكره على عطفه اللطيف عليَّ، وإني أقبِّله، وإني مقتنع أن شهرته ستكون خالدة، وأن حب روسيا له، هذا الشاعر الأكثر نبلاً والأكثر تلألؤاً بين شعراء روسيا، أن حبها له خالد... إني أبكي له...».

واستغرقت الرسالة ثلاثة أسابيع حتى وصلت ـ وبلغت نيكراسوف وما زال حياً. فقال الرجل الذي يغادر الحياة: «أخبروا نيقولاي جافربلوفيتش أني أشكره كثيراً. لقد تعزّيت الآن: فكلماته أعزّ على قلبي من كلمات أي إنسان آخر...».

ورجع تشيرنيشيفسكي، بعد عشرين عاماً من الأشغال الشاقة والنفي، إلى ربوعه في الوطن. كان يطفح نفاد صبر وعنفواناً. واندفع، من غير أن يقف في مكان ما، ومن غير أن يمنح نفسه ساعة من الراحة طيلة رحلته الشاقة الطويلة. وبلغ أخيراً استراخان، وهنا انهالت عليه ضربة قاسية أيضاً: إن تشيرنيشيفسكي محروم من فرصة العمل. أي إنسان وأية مجلة يجرؤان على نشر مقالات «مجرم سياسي»؟ وكان الخمول مرة ثانية، وكان السكون والفراغ مرة ثانية من حواليه...

وقبل موت تشيرنيشيفسكي بفترة من الزمن زاره كاتب يدعى كورولنكو. يقول كورولنكو هذا إن نيقولاي جافريلوفيتش قد رفض أن يكون موضع الرثاء: «كان يملك دائماً زمام نفسه تماماً، فإذا تعذب، وهل كان يمكن ألا يتعذب بصورة وحشية، فقد تعذب دائماً بكبرياء، بينه وبين نفسه، من دون أن يشارك أي إنسان في حزنه المرير».

قرأت زويا علينا رسالتها بصوتٍ عال. فقلنا لها، شورا وأنا، ما كنا نفكر فيه:

ـ جيّدة جداً!

ونَبَرَ شورا، وهو يراوح في الغرفة وينادي:

ـ ولسوف أرسم، ذات يوم، صورة كبيرة... وسأسميها «إعدام تشيرنيشيفسكي المدني».

فأضافت زويا بسرعة:

ـ هذا ما كتبه هرتزن. لقد كتب: «أفلن يرسم أحدهم صورة ـ تشيرنيشيفسكي تحت المشنقة»؟ وقال إن تلك الصورة ستفضح ـ كيف كتب ذلك؟ ـ ستفضح الأنذال الذين يشنقون الفكر الإنساني.

فتابع شورا:

ـ أستطيع أن أرى ذلك كله: الفتاة التي ألقت بالورد إليه، والضابط الذي صاح: «وداعاً!». وأستطيع أن أرى تشيرنيشيفسكي نفسه في تلك اللحظة، حين كسر الجلّاد السيف فوق رأسه... لقد أرغموا تشيرنيشيفسكي على الركوع، لكن لا بأس، فأنتم تستطيعون أن تروا من تعابير وجهه أنه لم يستسلم، وأنه لن يستسلم أبداً!

ولم أكد أصل حتى عتبة الباب في اليوم التالي حتى صاح شورا:

ـ ماما، لقد نادت فيرا سيرجييفنا زويا! وفكري، سألتها عن حياة تشيرنيشيفسكي وأعماله!

ـ حسناً؟

ـ «ممتاز!»، «ممتاز!»، لقد أصغى الصف بكامله وقد فغروا أفواههم. وفعلت أنا مثل الآخرين، رغم أني أعرف القصة جيداً! وكانت فيرا سيرجييفنا مسرورة جداً!

وقالت زويا درجة «ممتاز» على رسالتها أيضاً.

قلتُ:

ـ إنها تستحق ذلك.

فنبر شورا:

ـ تماماً، من دون نقصان!

وقد يحسب المرء أن درجة «ممتاز» ستعني انتهاء عمل زويا. لكن الأمر لم يكُ كذلك. لقد كانت معرفتها بتشيرنيشيفسكي، حياته وكتبه، تعني الشيء الكثير بالنسبة إلى زويا فقد أضحى تشيرنيشيفسكي بالنسبة إليها أنموذجاً رفيعاً للفكر والعمل. وكان ذلك هو نتيجة جهد زويا في أطروحتها.

«ممتاز» في الكيمياء

كانت زويا تحفظ دروسها بشكل جيد رغم أنها تجد بعض المواضيع صعبة عليها. وكانت تظل ساهرة أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل تدرس الرياضيات والفيزياء، ولا تسمح لشورا بمساعدتها أبداً.

وهذه صورة مألوفة. الوقت مساء. وشورا قد أنهى دروسه منذ زمن بعيد، وزويا ما تبرح جالسة إلى الطاولة.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ مسائل الجبر. العملية تأبى الحلّ.

ـ فلْأُبَيِّنْ لك.

ـ كلا، سأفكر فيها لوحدي.

وتمرّ نصف ساعة، ثمّ ساعة كاملة. ويقول شورا غاضباً:

ـ سأذهب إلى فراشي. إليك الجواب. انظري لقد وضعته على الطاولة.

لكن زويا لا تدير رأسها أو تلتفت. فيهزُّ شورا كتفيه وينزلق في فراشه. وتظل زويا جالسة فترة طويلة، فإذا هددها النوم بالتغلُّب عليها رشت وجهها بالماء البارد، وعادت فجلست من جديد إلى الطاولة. إن جواب العملية يقبع أمامها. وما عليها سوى أن تمدَّ يدها... لكن زويا لا تلتفت جهته أبداً.

وتنال في اليوم التالي درجة «ممتاز» تلك من جهد وضنىً.

وكان شورا، وهو القدير جداً والسريع في فهم الأمور، يحضّر دروسه غالباً بإهمالٍ وعدم اعتناء، ويرجع إلى البيت بدرجة «حسن». وكانت كل درجة «حسن» ينالها شور تُغِّمُّ زويا أكثر مما تحزنه هو.

ـ إنه عمل، أفلا تفهم ذلك؟ ليس لك الحق بالتصرُّف بعملك على هذا الشكل!

فيقطب شورا سحنته ويتنهد. وأحياناً كان ينفجر:

ـ حسناً، أتحسبين أني لا أقدر على فهم هذه الحكمة العظيمة كلها؟

ـ إذا كنت تقدر فبرهن على ذلك. ليس بكافٍ أن تتطلّع في الكتاب ثمّ ترميه، حينما تبدأ بقراءة شيء، فاقرأه حتى نهايته! وعندئذ يمكنك أن تتحدث عن مقدرتك. إني أكره الذين ينهون أعمالهم كيفما اتفق. ذلك مما تعافُه النفس!

* * *

زويا، ما بالك عابسة؟

فردّت زويا كارهة:

ـ حصلتُ على «ممتاز» في الكيمياء.

فارتسم على وجهي تعبير من الدهشة بحيث لم يتمالك شورا نفسه عن الضحك بصوت عالٍ.

سألتها، عاجزة عن تصديق أذني:

ـ أتعنين أنك آسفة لحصولك على درجة «ممتاز»؟

فقال شورا، بينا ظلت زويا صامتة بعناد:

ـ أنت ترين، إنها تعتقد بعدم جدارتها لتلك الدرجة، وأنها لا تفهم الكيمياء تماماً.

كان ثمَّة استهجان عظيم في صوت شورا.

أراحت زويا ذقنها على راحتي يديها، وحوّلتْ نظرها من شورا إليَّ بعينين سوداوين تعيستين. قالت:

ـ شورا على حق، فأنا لم أحسّ السرور من تلك الدرجة «ممتاز». فكرت وفكرت، وذهبت في النهاية لرؤية فيرا ألكسندروفنا، وقلت لها: «لست أعرف درسك بصورة ممتازة». فشخصت إليَّ، ثمّ أجابت: «ما دمت تتكلمين هكذا، فذلك يعني أنك ستبلغين الدرجة سريعاً. فلنقل إني منحتك ممتاز مقدماً».

وأوضح شور غاضباً:

ـ ولا ريب أنها حسبتك تتظاهرين بذلك ليس غير.

فهبت زويا واقفة، وقد احمرَّت وجنتاها:

ـ كلا، لم تحسب شيئاً!

فتدخلتُ قائلة، بعدما رأيت زويا وقد جرحتها كلمات شورا وآذتها:

ـ إذا كانت فيرا ألكسندروفنا حكيمة وعادلة، وتعرف كل شيء عن تلاميذها، فهي لن تفكر بمثل هذا عن زويا.

وفي ذلك المساء عينه، حين غادرت زويا الدار لبعض أغراضها، عاد شورا ففتح حديث علامة الكيمياء. بدأ يقول في وقار غير عادي:

ـ أماه، أنا لم أضايق زويا اليوم للاشيء.

وقف وظهره إلى النافذة، وراحتا يديه تستريحان على حافة النافذة، وحاجباه مقطبان، وبدت بين حاجبيه تغضّناتٌ غضبى منحرفة.

وانتظرت البقية، مدهوشة نوعاً ما.

ـ أنت ترين، يا أماه، أنَّ زويا تتصرف في بعض الأحيان بطريقة لا يفقه لها أحدهم معنىً. ولتأخذ هذه العلامة الآن. حسناً، إن أي تلميذ في الصف يكون مسروراً إذا حصل على «ممتاز»، وليس من يفكر في التمعُّن فيما إذا كان يستحقها أم لا. لقد منحتك معلمة الكيمياء هذه العلامة، وهذا ما حصل، كلا، فزويا تطلب من نفسها أكثر مما ينبغي لها! أو خذي مثلاً آخر ما حدث منذ يوم أو يومين، لقد كتب بوريا فومينكوف موضوعاً جيداً. وأدرك أنه أخطأ فيه عدة أخطاء، ولذلك كتب في نهايته، مستشهداً بأبيات من بوشكين:

«مثل شفتين من الياقوت لا تبتسمان

لستُ أحبُّ حديث قومي

من دون عدة أخطاء نحوية».

فضحك الجميع، غير زويا التي وبّخته ولامته. قالت إن ذلك عمله، إنتاجه، وليس شيئاً يثير الضحك...

وتابع شورا بحرارة:

ـ إن ما يحيرني هو أنها تتصرَّف بشكل يثير السخرية والضحك، لكن أحداً لا يجرؤ على التفكير هكذا عنها في المدرسة.

ثمّ صحَّح أقواله، وقد تبيَّن نظرتي إليه:

ـ كان ذلك الفتى يمزح... يحاول أن يثير شيئاً يبعث على الضحك قليلاً. ولا ضرر في ذلك، كما تعلمين، غير أن زويا تسقط عليه في الحال وتروح تلقي موعظة. لست تتصورين مبلغ الشغب الذي حدث في الصف نهار البارحة! كان في البرنامج إملاء، وسألت إحدى البنات زويا عن طريقة تهجئة كلمة صعبة. وتصوري فقط، رفضت زويا أن تحيّيها! وحينما قرع الجرس انقسم الصف، نصف ونصف، وحدثت معركة تقريباً: صاح بعضهم إن زويا رفيقة سيئة، وصاح الآخرون إنها تصرَّفت حسب الأصول...

ـ وماذا صحت أنت؟

ـ أنا... أنا، لم أصح شيئاً. لكن، فكري، لو كنت في مكانها لما رفضت تقديم المساعدة لصديق.

وقلتُ، بعد لحظة من صمت:

ـ اسمعْ، يا شورا، حينما واجهت زويا المصاعب في حل مسائلها الرياضية، وكنت أنت قد أنهيتها منذ زمن طويل، فهل يا ترى سألتك المساعدة؟

ـ كلا، لم تفعل.

ـ تذكر كيف جلست حتى الساعة الرابعة صباحاً، تحاول حل مسألة الجبر المعقدة.

ـ حسناً؟

ـ حسناً، أعتقد أن الشخص القاسي على نفسه والصارم بحقها، يملك ملء الحق في أن يكون صارماً تجاه الآخرين. وأنا أعرف أن أغلب الأطفال يعتبرون التلقين مقدساً. وكان ذلك هو القانون السائد يوم ذهبتُ إلى المدرسة. لكنه قانون قديم رديء. ولست أحترم أولئك الذين يعيشون على التلقين والنقل. وأحترم زويا لأنها تملك الشجاعة في عرض أفكارها.

ـ حسناً، إن بعض الأطفال يقولون إن زويا مستقيمة وتعلن عن أفكارها صراحة. ويقول بيتيا إنه إذا لم يفهم شيئاً، فزويا لا ترفض أن تشرح له ذلك الشيء، لكن التلقين أثناء الامتحان عمل غير شريف. إنما ذلك كله سواء...

ـ سواء؟

ـ سواء، خالٍ من روح الرفقة.

ـ إذا رفضت زويا المساعدة والشرح، فهذا يعدّ خلواً من روح الرفقة، يا شورا. لكن أن ترفض تلقين شخص ما، فهذا، في رأيي، هو روح الزمالة، إنه عمل شريف ومستقيم.

وأدركت أن شورا لم يقتنع. ظل واقفاً إلى النافذة زمناً طويلاً، يقلب صفحات كتاب، وتبينت أن جداله مع نفسه لمَّا يزلْ مستمراً.

* * *

ورغم هذا، فقد تركت قصة شورا وقعاً مزعجاً.

كانت زويا فتاة رشيقة مرحة، تحبّ المسرح كثيراً، فإذا صدف وذهبت إليه من دوننا، فهي دائماً تصف لنا ما شاهدته وسمعته بوضوح وحرارة، بحيث أشعر وشورا وكأننا شاهدنا المسرحية بأم أعيننا. وكان تحسُّس زويا للفكاهة لا يهجرها إلّا في النَّدرى. كانت ومضاتٌ من الفكاهة التي لا تُقهر تشع في ملء رزانتها المألوفة، وهي ومضات ورثتها عن والدها، وعندئذ كنا نضحك المساء بطوله، ونحن نتذكر حوادث مسلية متنوعة... وأحياناً تكون زويا تتحدث بصوتها المألوف، فإذا هي تغير صوتها وملامح محياها على غير انتظار، من غير ظلٍّ للابتسام على شفتيها... وأدركُ وشورا الشخصَ الذي تعني، فتظل تضحك حتى تنحدر الدموع على وجنتينا.

وأستطيع رؤية زويا تحني ظهرها بعض الانحناء، وتهدل شفتيها، وتقول برصانة بين فترات من الصمت:

ـ لا تتكدروا مني، يا أعزّائي، لكنني أستطيع أن أخبركم بهذا... أنتم صغار بعد، ولن تصدقوا ذلك، لكن إذا ركضت قطة قاطعة الطريق، فذلك يعني أن المصاعب ستقع...

وتنبثق أمامنا، كبيرة كالحياة، صورة امرأة عجوز، جارتنا في المسكن القديم، ويصيح شورا:

ـ أكولينا بوريسوفنا!

وتعبس زويا، وتقول بحدّة، في صوت مرتجّ:

ـ ما هذا التشويش والشغب؟ كفّوا عنه حالاً! وإلا اضطررت لعمل اللازم.

ونضحك، ونحن نتذكر حارسة المدرسة في غابات الرجّاج.

كانت زويا تحبّ الزوّار كثيراً، وتشعر بارتياح عظيم لدى جلوسها مع الكبار. وعندما يزورنا العم سيرجي، أو شقيقتي أولجا، أو إحدى زميلاتي في العمل، فزويا لا تعرف عندئذٍ في أي مكان تجلسهم، أو ما هي الأشياء الحسنة التي يفضل أن تعزمهم عليها. وتركض هنا وهناك مهتاجة، تعزمهم على طهوها الخاص، وتتألم كثيراً حينما يغادرنا الزوار لضيق فراغ أوقاتهم. أما في المدرسة فتبدو زويا على الدوام، مع الآخرين من عمرها، متحفظة غير أنيسة. وهذا ما أقلقني. سألتها مرة:

ـ لماذا لا تربّين صداقات؟

فردَّت زويا:

ـ ألست صديقتي؟ أليس شورا صديقاً؟ ألستُ صديقة إيرا؟

وصمتت، ثمّ أضافت مبتسمة:

ـ إنّ شورا صديقٌ لنصف طلاب الصف. وليس في وسعي أن أفعل مثله.

وحيدة مع نفسها

ـ زويا، ماذا تكتبين؟

ـ لا شيء على التعيين.

هذا يعني أن زويا منكبَّة على دفترٍ سميك مربع ذي غلاف من قماش الشِّيت ـ إنه دفتر يومياتها.

إن زويا لا تتناول دفترها في هذه الأيام إلّا نادراً، وهي لا تكتب كثيراً.

سأل شورا:

ـ فلنلقِ نظرة!

فهزَّت زويا رأسها.

ـ إذن، أنت لا تريدين أن يراه شقيقك؟ حسناً إذن!

وغضب شورا، وكانت نغمة تهديده، بالطبع، مزاحاً، فكأنَّ فيها شيئاً من الغيظ.

أجابت زويا.

ـ سيقرؤها شقيقي، ثمّ يشرع يضحك مني.

وتوجهت إليّ بعد قليل، قائلة بلطف:

ـ تستطيعين قراءتها، إذا شئت.

كانت يوميات غريبة، لا تشبه البتة تلك اليوميات التي احتفظت بها زويا وهي في الثانية عشرة. فهي لا تصف أية حوادث خاصّة، بل تكتب الحادثة في كلمات قليلة، أو على شكل جملة تقتبسها من أحد الكتب، أو شطر من الشعر... سوى أني كنت أرى، خلف كلمات الآخرين وشِعرهم، فيمَ تفكر ابنتي، وماذا يقلقها.

وقد وجدت هذه السطور:

«الصداقة تعني مقاسمة كل شيء، كل شيء من دون استثناء! وتعني الأفكار والخطط المشتركة، ومقاسمة الأفراح والأتراح. وليخيَّل إليَّ أن ما يكتبون في الكتب عن أناس ذوي أخلاق متضادة يتصادقون ويتآلفون غير صحيح. فكلما كثرت الأشياء المشتركة، كان ذلك أفضل. لأحب أن تكون لي صديقة أستطيع ائتمانها على جميع أسراري. أنا صديقة إيرا، ورغم كوننا في سن واحدة تقريباً يتراءى لي دائماً أنها أصغر مني!».

وكانت هذه السطور من نيقولاي أوستروفسكي:

«إن الحياة هي أثمن ما يملك الإنسان، وهي لا تعطى له كي يعيشها سوى مرة واحدة. وينبغي له أن يعيش بحيث لا يحسّ أسفاً معذباً على السنوات التي ضاعت من دون هدف، فإذا ما عاش هكذا يستطيع أن يقول، وهو يموت: إن حياتي كلها، وقواي كلها، قد أعطيت لأنبل قضية في العالم بأجمعه ـ ألا وهي النضال في سبيل تحرير الجنس البشري».

وكانت أيضاً هذه الكلمات ـ أهي لزويا أم لا، لست أدري:

«إن ذلك الذي لا يقدّر نفسه كثيراً لأفضل مما يحسب بكثير».

وكانت هذه السطور:

«احترم نفسك، لكن لا تُكوِّن رأياً رفيعاً عنها. لا تغلق على نفسك وتقبع في صدفتك، ولا تكنْ أحادي الجانب... ولا تصبح بحيث لا يحترمك الناس أو يقدّروك. اعملْ ما في وسعك لتكمِّل

نفسك، ولسوف تحصل على مزيد من الثقة».

وأغلقت الدفتر، وقد داخلني شعور غريب مختلط، لقد أعطتني صفحاتها ومضة من فكرة مُبرعمة مستوضحة ـ فكأن أحدهم يفتش عن دربٍ ما، ويرى تلك الدرب القويمة، ثمّ يضيعها ويجدها من جديد. تلك كانت مرآة واسعة صافية تنعكس على صفحتها كل حركة من حركات القلب والفكر.

وقررت ألّا أقرأ مذكرات زويا بعد ذلك أبداً، لمَن الخير للإنسان أن يبقى وحيداً مع نفسه فترةً من الوقت، وأن ينظر في ذاته، وأن يفكر في الأمور لوحده، بعيداً عن الأعين المتطفِّلة، حتى ولو كانت عينَي الأم. قلتُ لزويا:

ـ شكراً لك على ائتمانك إيّاي. لكن المذكرات ملكُك، وليس يحقُّ لكائن من كان الاطِّلاع عليها.

عهد القائد

في صيف عام 1938 بدأت زويا تعدّ نفسها للانتماء إلى الكومسومول. كانت تقرأ القواعد والأنظمة مرَّات ومرّات، وتطلب إلى شورا امتحانها لترى إن كانت تتذكَّر كل شيء تستوعبه.

وثمة حادثة لا يمكن لي أن أنساها ترتبط بتلك الفترة.

قال شورا ذات يوم:

ـ أماه، انظري إلى هذه الجريدة القديمة! إنها صفراء اللون. انظري التاريخ: 1924.

كانت الجريدة «البرافدا»، وتاريخها ـ 30 كانون الثاني 1924. وتناولت الجريدة في صمت، فومض في ذاكرتي في شبه البرق: ذلك اليوم الجليدي من شهر شباط، وغرفة مطالعة القرية تعجُّ بالناس، وفي ذلك الصمت العميق المسيطر يرتفع صوت أناتولي بتروفيتش يقرأ على الفلاحين عهد ستالين.

سألتُ:

ـ من أين جئت بهذه الصحيفة؟

ـ أخبرتْني أني أستطيع وضع أدواتي المدرسية في درج والدي، ففتحته، فوجدت فيه جريدة مطوية، نشرتها و...

ـ أجل، لقد خبّأتُها هناك. أردتُ زويا أنْ تقرأَها يوم تكبر، ولم تكُ قد بلغت الشهر السادس من عمرها يومذاك.

قالت زويا:

ـ إذن، هي جريدتي؟

ونشرت الجريدة، الجريدة التي أمست هشّة لتقاوم العهد عليها، في عناية على الطاولة، وانحنت عليها، وبدأت تقرأ...

قال شورا:

ـ اقرئيها بصوت مرتفع.

ورنت الكلمات من جديد، الكلمات التي بقيت صافية في ذهني منذ ذلك اليوم البعيد:

«إن بلادنا تنتصب كصخرة هائلة وسط محيط من البلاد البورجوازية، تتدفق عليها الأمواج المتدافعة مهدِّدَة بإغراقها وجرفها. ولكن الصخرة ما زالت راسخة، فما هو مصدر قوتها؟».

كانت زويا تعرف تلك الخطبة تماماً، لكنها قرأت تلك الكلمات المألوفة بنغمة مختلفة كل الاختلاف: إن صحيفة الجريدة الصفراء لشاهدة على تلك الأيام، إنها تحمل إليك عظمة تلك الكلمات بقوة خاصة.

قرأت زويا ببطء:

ـ إننا نقسم لك، يا أيها الرفيق لينين، أننا سنحقق إرادتك، هنا أيضاً، بكل شرف وإخلاص.

وفي اليوم التالي حملت زويا إلى البيت من المكتبة خطبة جوزيف ستالين التي ألقاها في الاجتماع التذكاري في مدرسة الكرملين الحربية. وأذكر أني سُررت لأن معرفة زويا بآثار ستالين قد بدأت على تلك الطريقة الخاصة. كانت الأفكار العميقة في خطب ستالين إلى جانب الأمثلة التي تحتويها واضحة مقنعة، فهي نيِّرة بالنسبة إلى المبتدئين الشباب بحيث انطلقت كلمات قائدنا باستقامة إلى قلب فتاة في الخامسة عشرة وعقلها.

وأجدُ من الصعوبة عليَّ أن أتذكر تلك الكتب المسطَّرة في القائمة الطويلة التي نشرتها أمامنا تلك الجريدة التذكارية العتيقة. وقرأت زويا تقرير ستالين إلى المجلس الثامن عشر للحزب الشيوعي البلشفي في الاتحاد السوفييتي، ومن ثمّ تقريره إلى المجلس الثامن فوق العادي للسوفييتات في الاتحاد السوفييتي عن مشروع الدستور. وكان من المهمّ جداً عندها أن تختبر مدى فهمها لما كانت تقرأ، حتى تستطيع أن تقول لنفسها ـ أجل، إن هذا كله واضح قريب مني.

ثمّ ظهرت ملاحظة جديدة في يومياتها. وأطلعتني عليها. كانت عدة أسطر من كتاب هنري باربوس المسمى «ستالين».

«إن الرجل الذي ترسم صوره الجانبية على اللوحات الحمر، إلى جانب كارل ماركس ولينين، هو الرجل الذي يعتني بكل شيء وبكل إنسان، الرجل الذي خلق ما هو موجود ويخلق ما يجب أن يوجد... كن من تكون، فأنت في حاجة إلى هذا الرفيق، وكن من تكون، فكلّ ما هو جيد في حياتك يرتاح في يدي هذا الرجل الذي لا ينام، والذي يعمل في سبيل الجميع، الذي يحمل رأسَ عالِم، ووجهَ عامل، وثيابَ جنديٍّ عادي».

توجَّه شورا إليَّ بالحديث حينما فتحت المدرسة أبوابها في الخريف:

ـ إني أرى الآن أن صفنا يحترم زويا. ثمة عدة طلاب آخرون يستعدون للكومسومول أيضاً، وهم يأتونها أبداً ويمطرونها بأسئلتهم. وما كانت لجنة الكومسومول تستطيع أن تسبغ عليها صفات أفضل: واعية، يمكن الاعتماد عليها، وأهل للثقة، وكل شيء آخر ترغبين فيه. وفي الاجتماع العام، وكان اجتماعاً مهيباً، روت لهم زويا تاريخ حياتها. وقد طرحوا عليها أسئلة لا حصر لها، ومن ثمّ شرعوا يناقشون طلب انتسابها. وقال الجميع: من دون استثناء، إنها رفيقة شريفة، ومستقيمة، وطيبة، تقوم بكل عملها الاجتماعي، وتساعد أولئك الذين يتخلَّفون...

ولأذكر أن زويا، حين كتبت تاريخاً لحياتها، أنهته في صفحة واحدة، وأنها كانت مضطربة مبلبلة.

صاحت:

ـ ليس لديّ شيء أكتب عنه. وُلِدْتُ، وذهبت إلى المدرسة، وها أنا الآن أتعلّم... لكن، ماذا فعلت. لم أفعل شيئاً!

وفي ذلك اليوم، على ما أذكر، لم يكُ شورا أقلّ هياجاً من أخته نفسها. فأنا لم أره على مثل تلك الحال من قبل أبداً. أنتظر زويا خارج بناء لجنة المنطقة. كان ثمَّة عدد كبير من طلبات الانتساب. وجاء دور زويا في النهاية تقريباً.

قال لنا شورا بُعَيد ذلك:

ـ ما كنت أقوى على الانتظار إلّا بصعوبة:

أنا الأخرى لم أستطع الانتظار إلّا بصعوبة، فرحت أنفذ بصري باستمرار من النافذة لأرى إذا كانا آتيَين، لكن الليل أسدل ستوره، فلم أتمكن من تمييز أي شيء كان.

ثمّ انطلقت إلى الشارع، واتخذت سمتي متمهّلة صوب بناء لجنة المنطقة. ولم أكد أخطو عدة خطوات حتى اندفعا صوبي يلهثان ويضطربان.

صاحا في صوت واحد:

ـ مقبولة! لم يبقَ سؤال من دون جواب!

رجعنا إلى الدار، وشرعت زويا، وقد احمرَّت غبطة، تسرد عليَّ جميع ما حدث:

ـ كان سكرتير لجنة المنطقة شاباً كثير المرح، وطرح عليّ وابلاً من الأسئلة: ما هو الكومسومول؟ ثمّ سألني عن حوادث إسبانيا، وماذا أعرف من مؤلَّفات كارل ماركس. فقلتُ إني لم أقرأ سوى «البيان الشيوعي». وسألني في الختام: «ما هو، في رأيك، الشيء الأكثر أهمية في القوانين؟». ففكرت، وأجبتُ: «الشيء الأكثر أهمية هو أن عضو الكومسومول يجب أن يكون مستعداً للتضحية بكل قواه في سبيل الوطن، وأن يضحِّي بحياته إذا لزم الأمر». هذا هو الشيء الأكثر أهمية، أليس كذلك؟ سوى أنّه قال: «حسناً، ما رأيك في الدراسة وإنجاز واجباتك كعضو في الكومسومول؟»، فدُهشت، وأجبت: «حسناً، هذا أمرٌ مفروغٌ منه». ثمّ أبعد الستارة جانباً، وأشار إلى السماء وقال: «ماذا يوجد هناك؟». ودُهِشتُ من جديد، وأجبت: «لا شيء!». فقال: «لكن، ألا ترين كم يوجد فيها من النجوم الرائعة المبعثرة؟ إنك لم تلاحظي وجودها أوَّل الأمر، وذلك كله لأنها أمرٌ مفروغٌ منه. وتذكَّري أمراً آخر؛ إنَّ كل شيء جيدٌ وكبير في الحياة مصنوعٌ من أشياء صغيرة تافهة. إيَّاك ونسيان هذا!». لقد أجاد في كلامه، أليس كذلك.

فأجبتُ وشورا في صوت واحد:

ـ أجاد كل الإجادة!

واسترسلت زويا:

ـ ثمّ سألني إذا قرأت خطاب لينين في المؤتمر الثالث للكومسومول، فأجبت: «بالطبع قرأته!»، فاستوضح: «أتذكرينه جيداً؟»، فقلت: «عن ظهر قلب، على ما أعتقد». فقال: «حسناً، إن كنت تعرفينه عن ظهر قلب، فأخبريني عن أهم مقطع فيه». فقلت: «وهكذا فإن الجيل البالغ من العمر الخامسة عشرة في الوقت الراهن، والذي سيعيش بعد عشرة أعوام أو عشرين عاماً في المجتمع الشيوعي، يجب أن يقترب من جميع واجباته في الثقافة بحيث إنّ الشبان، في كل يوم، وفي كل قرية، وفي كل مدينة، ينخرطون في إيجاد حلّ عملي لمشكلة ما من مشاكل العمل المشترك، حتى المشكلة الصغرى، وحتى المشكلة الأبسط».

فسألتها وقد أيقنت أنها ستعجز عن الإجابة:

ـ زويا، هل تذكرين أول مرة سمعت ما قال فلاديمير إيليتش في المؤتمر الثالث؟

لكنني كنت مخطئة.

أجابت زويا من دون تردد:

ـ كان ذلك في المعسكر الصيفي، إلى جانب نار المخيمات...

ومن ثمّ جلسنا وتناولنا الشاي، بينا ظلت زويا تستعيد أشياء من حوادث النهار. قالت، ونحن في طريقنا إلى الفراش:

ـ لأشعر كأني تغيّرت بطريقة ما وأضحيت شيئاً مختلفاً، شخصاً جديداً. فقلت، عاجزة عن إخفاء ابتسامتي:

ـ حسناً، فلْنتعارف في مثل هذه الحال.

إلّا أنني أدركت من عينَي زويا أنها لا تستطيب المزاح في ذلك الوقت، فأضفتُ:

ـ إني أفهم، يا زويا.

المنزل في شارع ستاروبيتروفسكي

قال ألكسندر هرتزن مرة:

«ليس ثمة ما يسمو بالشبيبة مثل اهتمام يقظان قوي بالإنسانية».

وحين أتذكر كيف كان طفلاي ورفاق صفهما يتعلمون ويتثقفون، فإني أفكر: أجل، هذا هو الشيء الذي يجعل فتوتهم ملهمة جميلة. إن كل قضية تحدث في بلادنا أو خلف تخومها تهمهم بصورة مباشرة، وتصبح قضيتهم الشخصية.

وكانت زويا وشورا ينموان مع بلادهما ـ لا كمتفرجين، بل كمشاركين فعَّالين في كلّ أمرٍ يحدث حولهما. إن بناء معملٍ جديد، وفكرةٍ جريئة لعالم سوفييتي، ونجاح الموسيقيين السوفييتيين في مباراة دولية ـ إن هذا كلّه يكوِّن جزءاً من حياتهما، غير منفصل عن مصيرهما الشخصي. كانا يفكران في مثل هذه الأشياء، العزيزة والغالية على قلبيهما، ويتجادلان بشأنها طويلاً في المدرسة والبيت. وتلك كانت ثقافتهما.

ولم تفهم زويا أقوال سكرتير لجنة المنطقة فحسب، بل إن هذه الأقوال احتلَّت مسكناً في ذكرياتها، وأضحت كل كلمة نطق بها ذلك اليوم، يوم ولادتها الثانية، قانوناً بالنسبة إليها لا تحيد عنه.

كانت زويا تنجز واجباتها على الدوام بدقّة ووعي يبعثان على الدهشة. لكنها اليوم تضع كل درهم من قوتها، وتسخِّر قلبَها وروحها، في كلّ عملٍ تكلَّف به. فهي تعرف الآن بيقين تام أن عملها يؤلف جزءاً من العمل المشترك الكبير الذي رسم خطوطه فلاديمير إيليتش لينين.

وسرعان ما انتخبت زويا، بعد انتسابها إلى الكومسومول بفترة قصيرة، منظماً لفرقة من الكومسومول، وما أسرع أن وضعت لائحة بواجبات الكومسومول. وكان شعارها: «ينبغي

لكلّ من يسمي نفسه عضواً في الكومسومول أن يكون له عملٌ كعضوٍ في الكومسومول». واستوضحت كلَّ واحدٍ عن اهتمامه، وعن العمل الذي يرغب أن يشارك فيه. وأعلنت، وهي تحدثني: «وعندئذٍ سيجري العمل بشكل أفضل». وكانت تعرف أغلب الأجوبة سلفاً لأنها كانت تلاحظ رفاق صفها جيداً. وكانت قائمة الواجبات طويلة مفصَّلة: فأحدهم مسؤول عن أعمال المدرسة، وآخر عن التربية البدنية، وثالث عن ورق الجدران... كان ثمة عملٌ لكل فردٍ. وكان على زويا وبعض أعضاء الكومسومول الآخرين تعليم بعض النسوة الأمّيات في إحدى دور شارع ستاروبيتروفسكي.

أخبرت زويا:

ـ ذلك عمل صعب شاق. وسيطول كثيراً، ولن تستطيعي أن تتراجعي عنه بطريقة حسنة. هل فكرت في ذلك؟

فانفجرت زويا:

ـ ماذا تقولين، يا أماه؟ أتراجع عنه؟ عندما نبدأ عملاً مرة...

وانطلقت زويا، في أول عشية استطاعت أن تتحرّر منها، إلى شارع ستاروبيتروفسكي وأخبرتنا عندما رجعت أن تلميذتها عجوز لا تستطيع القراءة أو الكتابة، ولكنها تريد أن تتعلَّم.

قالت زويا:

ـ فكري فقط، ما كانت تستطيع حتى كتابة اسمها بوضوح، فهي غارقة في أعمالها حتى عنقها ـ أعمال البيت والأطفال. لكنها ستدرس، وأنا واثقة. وكانت مسرورة جداً لرؤيتي، ونادتني «يا محبوبتي...».

واستعارت زويا مني كتاباً عن قواعد تعليم الناس القراءة والكتابة، وجلست حتى ساعة متأخرة من الليل تقرأ فيه. وبدأت تزور تلميذتها مرتين في الأسبوع، وما كان ثمة شيء ـ لا المطر، أو الثلج، أو التعب ـ يمنعها عن ذلك.

كان شورا يقول:

ـ لو وقعت هزة أرضية، فهي ستذهب بكل تأكيد. ولو حدث حريق عظيم، فستقول إنها لا تستطيع ترك ليديا إيفانوفنا من دون درس.

ورغم أن الاستياء والسخرية كانا يترددان في صوته أحياناً، فهو ينطلق غالباً للقاء زويا عقب دروسها، إذ كان الخريف رطباً كئيباً، وكنا نقلق لعودة زويا وحيدة في العتمة والطين. وكان شورا يهوى الانطلاق لملاقاة أخته ومرافقتها في العودة إلى البيت. فلتحسّ زويا أن يكون لها أخٌ ـ محامٍ، وعاضدٌ، ورجلٌ في العائلة!

إنّ شورا، العريض الكتفين والقوي العضلات، أطول من زويا الآن. وكان يحبّ أن يردّد:

ـ انظري إلى عضلاتي!

وتردُّ عليه زويا بكبرياء سعيدة دهشة:

ـ أجل، يا أمي، تحسَّسي عضلاته ـ فهي كالجليد!

وحملت معي ذات يوم ثلاث بطاقات لحفلة موسيقية في قاعة المعهد الموسيقي الكبيرة. وكانوا يعزفون السمفونية الخامسة لتشايكوفسكي. وكانت زويا تحبّها حبّاً جمّاً، وتؤكّد لنا أنها كلما سمعت هذه السمفونية حملت لها موسيقاها بهجةً جديدة.

قالت لي مرة:

ـ كلما كانت الموسيقى مألوفة، عظم تأثيرها عليك. لقد تأكّدت من ذلك عدة مرات.

بدت زويا عظيمة السرور لمّا جئت بالبطاقات. وعلى حين غرة، لاح أنها بدأت تزمجر سراً. وضعت سبابتها على شفتيها وراحت تعضها برقة، كما تفعل دائماً حينما تتذكر فجأة شيئاً أفلت من ذاكرتها. صاحت:

ـ لكن، يا أمي، إنه نهار الثلاثاء. ولا يمكنني الذهاب، فأنا أذهب إلى بيت ليديا إيفانوفا أيام الثلاثاء.

فانفجر شورا ساخطاً:

ـ يا للهراء! يا للفاجعة إذا لم تذهبي مرة!

لا فائدة. لست أقوى على احتمال التفكير بأنها تنتظرني من دون جدوى.

ـ سأذهب وأخطرها أنك لن تجيئي.

ـ عندما تبدأ عملاً مرة، يجب أن تنهيه. تنتظرني لأعطيها درسها، بينا أذهب أنا إلى الحلفة الموسيقية؟ كلا، لا أستطيع هذا.

ولم تحضر زويا حفلة تشايكوفسكي.

ظلَّ شورا يردّد في مزيج من السخط على أخته والاحترام الاضطراري لها:

ـ إليك هذه الشخصية!

عشية رأس السنة

كانت عشية عام 1939 الجديد.

قفلت زويا إلى البيت من المدرسة وأخبرتني أن فتيات صفها كتبن لبعضهنّ بعضاً تمنيات رأس السنة. وينبغي للفتاة منهنَّ أن تحرق الورقة المكتوبة عليها أمنيتها، ومن ثمّ تبتلع رمادها وساعة الكرملين تعلن انتصاف الليل.

وتهكم شورا:

ـ يا لهؤلاء الفتيات!

وضحكت زويا:

ـ لعلّي لن أبتلع رمادي. لست أظن طعمه سيكون طيّباً. لكن لا بأس من قراءتها.

وأخرجت من جيبها ورقة صغيرة، مطوية بعناية فائقة. وقرأتها بصوت عال:

«زويا، لا تحكمي على الناس بهذه الصرامة كلها. ولا تتأثري من الأشياء كثيراً. اعلمي أن سائر الناس تقريباً أنانيون. متملّقون، منافقون، وأنك لا تقدرين على الاعتماد عليهم. لا تكترثي بكلماتهم. هذه هي أمنياتي إليك بمناسبة السنة الجديدة».

كانت زويا تزداد عبوساً لدى كل كلمة، ولما انتهت من قراءة الأمنية طوَّحت بها جانباً، وقالت:

ـ إذا كان المرء يرى الناس على هذا المنوال، فلِمَ يعيش إذن؟

وانهمكت زويا سريعاً في استعدادات حفلة رأس السنة الراقصة التنكرية. وقررت الفتيات ارتداء الأزياء الوطنية للاتحاد السوفييتي. وفكرنا زمناً طويلاً في الثوب الذي سنخلعه على زويا.

اقترح شورا:

ـ لباس فتاة أوكرانية. فهي تملك عينين طيبتين، وحاجبين لا بأس بهما. فلم لا تكون فتاة أوكرانية سوداوية الحاجبين؟ وهي تملك قميصاً مطرزاً وتنورة. ولا تحتاج سوى إلى عقود ووشاحات.

وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء، ونحن وحيدان، خاطبني شورا:

ـ أصغي، يا أماه، يجب أن نبتاع لزويا بعض الأحذية الجديدة. فجميع فتيات الصف يملكن أحذية ذات أنواع خاصة من الكعوب ـ ليست عالية جداً ولكنها ذات...

فألهمته:

ـ كعوب وسط.

ـ نعم، وزويا تلبس أحذية كأحذية الصبيان.

ـ يجب ألا تتحدث عن هذا الأمر هذا الشهر، يا شورا.

ـ لكنني لا أحتاج إلى قميص جديد ولست أريد القبعة.

ـ قبعتك لم تعد لائقة.

ـ لكن، يا أميمَة، أنا صبي وزويا فتاة. وقد كبرت أيضاً، وذلك يعني الكثير بالنسبة إليها.

والحقيقة أن ذلك كان يعني الكثير بالنسبة إليها.

وأذكر أني عدتُ إلى البيت مرة فألفيت زويا أمام المرآة، تجرِّب ثوباً من ثيابي. ولما سمعتْ خطواتي التفتتْ سريعاً وسألت، وابتسامة خجول تمرح على شفتيها:

ـ كيف أبدو؟

كانت تهوى تجربة ثيابي، ويغمرها سرورٌ عظيم كلما ابتعت شيئاً جديداً. ولم تكُ تطلب مني أن أبتاع لها شيئاً جديداً. فهي أبداً قانعة بما أخيط لها بنفسي. ورغم ذلك فشورا على حق: فهي لا تقدر على الاستمرار هكذا:

وحسبنا سوية المبلغ اللازم، ومضت زويا، بعد جدال حار عنيف معنا، واشترت زوجاً من الأحذية المتوسطة الكعوب.

واشترينا أيضاً حلّة لرأس السنة محلّاة بعصائب ووشاحات. وغسلنا قميص شورا وكويناه، وكسوناه بربطة عنق جديدة. وانطلق ولداي إلى المدرسة، نشيطين منفعلين. ووقفت زمناً طويلاً قرب النافذة، أراقبهما يغيبان عن بصري.

كانت عشية منوّرة هادئة بصورة مدهشة. وفي الخارج كانت قطع الثلج الوبرية تتساقط على مهلٍ. وسيمرّ شورا وزويا عبر السكون المُثلج ويغطسان رأساً في الحشد الصاخب الملوَّن، فتيّين مستبشرين، وتمنيت لهما، من أعمق أعماق قلبي، أن تكون أعياد رأس السنة كلها بالنسبة إليهما مشرقة، بهية، سعيدة.

ولم يرجعا إلى الدار حتى الصباح الباكر، كانت ثمة حفلة في المدرسة، تفعمها الموسيقى، «الرقص حتى تنطرحي تعباً»، على حدّ تعبير شورا.

ـ لعبنا الورق، وظل فتى يكتب لزويا أنها ذات عينين جميلتين. لقد فعل ذلك حقاً! وفي النهاية انفجر ينظم شِعراً! إليك، اسمعي هذا!

ونهض شورا، واتخذ وقفة خاصة، وقرأ هذه الأبيات وهو يمنع نفسه عن الضحك بصعوبة جمّة:

«أنت فتاةٌ صافية العينين ـ

وقلبي يوشك أن يموت!

وروحك كلُّها، عميقة عظيمة،

تشعُّ من عينَيكِ».

وضحك ثلاثتُنا كثيراً.

وقُرَيب انتهاء الشتاء حدثَ أنَّ تلك الفتاة التي كتبت لزويا تمنّياتها في رأس السنة تحدّثها عن الأنانية البشرية وعن كيف لا يستطيع المرء الاعتماد على الناس، قد انقطعت عن تدريس تلميذتها الأُمِّيَّة في البيت.

شرحتْ الأمر لزويا، التي كانت منظِّمةَ فريقها:

ـ إنها رحلة طويلة جداً، وقد أعطوني عملاً بيتياً ضخماً يجب أن أنجزه! وليس لديَّ وقت لذلك العمل، فخذيه عني.

واسودَّت عينا زويا غضباً حينما حدثتَنا عن ذلك:

ـ ذلك شيء لا أقوى على فهمه. لقد قبلتْ العمل ثمّ انقطعتْ عنه! ولم تفكّر قَطّ أنها بعملها هذا ستجعل الآخرين أيضاً يقتدون بها. أتسمّي نفسها فتاة في الكومسومول؟ ولنفرض أنها قد تلتقي بتلك المرأة في الطريق ـ كيف يمكنها أن تتطلّع في وجهها؟ وفي وجه جميع طلاب الصف؟

لم تنقطع زويا عن إعطاء دروسها أبداً. وحدث ذات ثلاثاء أن أصيبت بوجعٍ مؤلم في رأسها، لكنها تجاهلته وذهبت إلى درسها. وكنا نطَّلع سريعاً، أنا وشورا، وبتفصيل دقيق، على مدى نجاح تلميذة زويا.

ـ إن ليديا إيفانوفنا تتذكّر جميع الأحرف تماماً...

ـ إن ليديا إيفانوفنا تقرأ أجزاء من الكلمة...

وأخبرتنا زويا آخر الأمر بلهجة منتصرة:

ـ إن ليديا إيفانوفنا تستطيع القراءة الآن بطلاقة. أتذكران كيف كانت عاجزة عن توقيع اسمها؟ إن كتابتها تتحسن باستمرار.

وقالت زويا تلك الليلة، وهي منطلقة إلى سريرها:

أنت تعرفين، يا أمي، أني ظللت طيلة الأسبوع أفكر في ذلك الحديث الطيب الذي حدث لي. ثمّ ومض في خاطري في لمح البصر: إن ليديا إيفانوفنا تستطيع القراءة! لقد فهمت الآن لماذا أصبحتِ معلمة!

أيام كئيبة

كان أن انقلب خريف عام 1940، على غير انتظار، خريفاً كئيباً للغاية بالنسبة إلينا.

كانت زويا تمسح الأرض. وغمست الممسحة في الدلو. وانحنت، ثمّ أغمي عليها فجأة. هكذا وجدتها، مغمىً عليها فكأنها ميتة، حين رجعتُ إلى الدار من عملي. واندفع شورا، الذي دخل الغرفة في الوقت نفسه، ليطلب الإسعاف. فجاءت السيارة وحملت زويا إلى مستشفى بوتكين. وهنالك كان تشخيص المرض: «التهاب السحايا».

كان ذلك وقتاً عصيباً على شورا وعليّ. قبعنا طيلة أيام وليالٍ بطولها نفكر في شيء واحد: هل ستعيش زويا؟... كانت حياتها في خطر. وكان الأستاذ الذي يعالجها يحمل تعبيراً كئيباً مضطرباً وهو يتحدث إلي. وبدا لي أن ليس ثمة أمل البتة.

كان شورا ينطلق عدة مرات إلى المستشفى في اليوم الواحد. وأمسى وجهه، وهو النقي الضاحك أبداً، مضطرباً حزيناً.

وانتحى مرض زويا طريقاً عصيبة. أعطوها حقنة في القناة الشوكية ـ تلك كانت عملية مبرحة.

ذهبنا مرة، بعد واحدة من تلك الحقن، لنطمئن على حال زويا، رَنَتْ الممرضة إلينا بغرابة وقالت:

ـ سيتحدث الأستاذ معك بعد برهة.

فارتعشتُ برداً.

ـ ماذا حدث لها؟

سألتُ ذلك بصوت لا ريب أنّه كان شديد الذعر، لأن الأستاذ ـ وكان خرج لتوّه ـ عاجلني بهذه الكلمات:

ـ لا تقلقي الآن، فكل شيء على ما يرام! إنها على الدرب إلى الشفاء، وكل شيء على ما يرام. فابنتك فتاةٌ شجاعة حقاً. وهي ذات صلابة جبارة، فلا تئنُّ ولا تبكي.

ورمَى شورا بنظرةٍ، واستوضحَ برقة:

ـ وهل أنتَ من هذا النوع أيضاً؟

أجازوا لي، في ذلك اليوم، رؤية زويا للمرة الأولى. كانت مضطجعة بهدوء عاجزة عن رفع رأسها. جلست قربها، وأمسكت بيدها، غافلة عن الدموع المتحدّرة على وجهي.

قالت زويا بهدوء، لكن بجهدٍ:

ـ لا تبكي، أشعر بتحسُّن.

وفي الحقيقة أن المرض كان يستكين فأسعفني ذلك كما أسعف شورا كثيراً. فكأن الألم الذي قبض على أنفسُانا بقسوة طوال تلك الأسابيع قد سمح لنا بالتحرُّر فجأة، مخلِّفاً في مكانه شعوراً من الانهماك الشديد. لقد أمسينا، خلال مرض زويا، متعبين فاقدي القوى، متعبين أكثر مما تعبنا طيلة حياتنا السابقة. كان يلوح أن حملاً وازناً، ربض على أكتافنا فترةً طويلة، قد رُفع الآن بغتة، لكننا احتجنا إلى القوى بادئ الأمر لنقوِّم ظهرينا ونتنفّس.

قالت زويا، بعد أيام عدة:

ـ احملي لي شيئاً أقرؤه من فضلك.

وسمح لي الطبيب بعد فترة من الوقت أن أحمل لها كُتُباً، فسُرَّت زويا كثيراً. وكان الحديث لمّا يزل صعباً عليها، وقد تعبت بسرعة، لكنها أخذت تقرأ رغماً عن ذلك كله. وحملت لها

قصّتَي أركادي جايدار: القدح الأزرق، ومصير الطبّال.

أنبأتني، بعدما قرأت القدح الأزرق:

ـ يا للقصة الرائعة! لم يحدث فيها أي شيء مثير، لكنك تعجزين عن انتزاع نفسك منها.

كان شفاؤها بطيئاً. ورضوا أول الأمر أن تجلس، ثمّ أجازوا لها بعد فترة بالمسير.

وتصادقت مع جميع مرضى العنبر. قالت لي مرة إحدى العجائز، وكان سريرها يلي سرير زويا:

ـ سنأسف كثيراً على فراق ابنتك. إنها محبوبة جداً. وفي قدرتها إدخال الغبطة على القلب حتى في أسوأ الحالات.

وكان الطبيب الذي يعالجها يمزح دائماً:

ـ سأكون مسروراً لو تبنَّيتُ زويا كابنةٍ لي!

كانت الممرضات سعيدات مع زويا كل السعادة، يعطونها كتباً، بينا يحمل لها الأستاذ الصحف، فبدأت تقرؤها، حينما ازدادت قوة، بصوتٍ عال للمرضى في العنبر.

وسُمح لشورا بزيارة زويا. إنهما لم يلتقيا من زمن بعيد. وحينما وقعت أبصارها على أخيها، نهضت من فراشها، واحمرَّت حتى جذور شعرها. أمّا شورا، فتسمّر في العنبر مثلما يفعل دائماً بين الغرباء: وراح يتطلع إلى جيران زويا في رعب، واحمرَّ وجهه بحيث تفصَّد العرق من جبهته، فمسح وجهه بمنديله، وخطا أخيراً حتى وسط العنبر، لا يعرف أين يتوجه.

واستحثَّته زويا:

ـ تعالَ إلى هنا، يا شورا، واجلسْ بقربي. أسرعْ، وارْوِ لي ماذا يجري في المدرسة. ولا تبدُ مرتبكاً.

ثمّ أضافت هامسة:

ـ ليس من يشخص إليك.

وجرَّ شورا نفسه، وردَّ على سؤال زويا ـ «ماذا يجري في المدرسة؟ اروِ لي، أسرعْ» ـ بأنْ سحب من جيب سترته كتاباً صغيراً طُبعَت على غلافه صورة لينين الجانبية، وهو يشبه كل الشبه ذلك الذي حصلت عليه زويا في شباط عام 1939. نبرت زويا:

ـ بطاقة كومسومول!

ـ لم أخبرك بذلك حتى تكون مفاجأة لك. لقد عرفت أنك ستغتبطين بذلك.

وتناسى شورا ما يحيط به من أمور غير مألوفة، وانهمك يشرح لأخته بتفصيل عن الأسئلة التي طُرحت عليه في الاجتماع العام، وماذا قالوا له عن لجنة المنطقة، وكيف سأله السكرتير: «هل أنت شقيق زويا كوسمودميانسكايا؟ إني أذكرها، لا تنسَ أن تُقرِئها تحياتي!».

في البيت من جديد

كان شورا قد رسم كثيراً من اللوحات خلال مرض زويا. كان يرسم حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي بعض الأحيان يرسم صباحاً قبل الذهاب إلى المدرسة، ثمّ يسلِّم الصور ويقبض المال، لكنه لم يعطني منه شيئاً كما كان يفعل في الأيام الغابرة.

ولم أستفسره سبباً لذلك، عارفة أنّه سيتحدث عمّا سيفعل بذلك المال في الوقت المناسب. ولم أكُ مخطئة، فقد أعلن يوم كنا سنذهب للعودة بزويا:

ـ إليك، يا أماه، إليك هذه الدراهم لتبتاعي بها ثوباً جديداً لزويا، فكرت أن أشتريه بنفسي، لكنه يفضل أن تفعل ذلك بنفسها. فلتختَرْ ما يحلو لها.

خرجت زويا من العنبر لملاقاتنا، شاحبة الوجه نحيلة العود، لكنَّ عينيها كانتا تشعان وتبرقان. واعتنقتني وشورا، الذي رنا حواليه سريعاً ليرى إن وقع بصر أحدٍ علينا.

قالت زويا بعجلة، فكأنها تخاف أن يعيدوها إلى العنبر:

ـ هيا، أريد الذهاب إلى البيت!

وانطلقنا والبِشْرُ يعلو وجوهنا، وكنا نتوقف بين حين وحين حتى لا تتعب. غير أن زويا أرادت الإسراع. وظلت ترنو إلى كل شيء بعينين جائعتين، مثل شخص حبس مدة طويلة. وكانت تضيِّق فرجة عينيها وهي ترنو إلى الشمس الباردة المشرقة وتبتسم. وكنت أرى أنها تهتزُّ طرباً لطقطقة الثلج تحت قدميها، والأشجار المزغبرة بالجليد، والشعاعات المضيئة المتراقصة بمرحٍ في الفضاء. وتبدَّت على وجنتيها التماعةٌ زهرية اللون باهتة.

وفي البيت راحت تدور في الغرفة، تلمس كل شيء بيديها: أصلحت من وضع وسادتها، وربَّتت على غطاء المائدة وطرف الخزانة، وقلبت صفحات كتاب أو كتابين، فكأنها تتعرَّف

إلى تلك الأشياء العادية من جديد. ثمّ اتجه شورا صوبها. كان صارماً وخجولاً في وقت واحد.

قال، وهو يمدُّ إليها المال:

ـ هذا لكِ، لتبتاعي به ثوباً جديداً.

فأجابت زويا في شجاعة:

ـ أشكرك كثيراً.

ولم تجادل أو تحتجَّ كعادتها وقتما نقترح ابتياع شيء جديد لها. وأدركنا من سيماها أنها مسرورة متأثرة. أمرها شورا:

ـ اضطجعي الآن، فأنت منهوكة!

فامتثلت زويا، مطيعة ممتنّة.

وبينا كنت منهمكة في تهيئة ذهاب زويا إلى المصحّ، لم تواظب هي على دروسها في المدرسة، بل بقيت في البيت تقرأ في كتُبها.

قلت لها في حذر:

ـ لأحبُّ كثيراً أن تنتظري الدورة الثانية. يجب ألّا تواظبي على الدرس بجدٍّ بعد.

فأجابت زويا، وهي تهزُّ رأسها بعناد:

ـ كلا، هذا لن يحدث! بعدما أعود من المصحّ سأشرع في الدراسة كالنمر (وضحكت بضعف، بعدما استعملت أحد تعابير شورا). وسأدرس في الصيف أيضاً. يجب أن أعوِّض ما فاتني، وإلّا يا للعار! أيكون شورا أصغر سناً وينهي مدرسته قبلي! كلا، ذلك لن يحدث أبداً!

كانت زويا مغتبطة بالحياة مثل رجلٍ نجا من خطر مميت.

وكانت تغنّي منذ الفجر حتى الليل: وهي تصفّف شعرها أمام المرآة، أو تمسح الأرض، أو تخيط... وفي أغلب الأحيان تنشد «أنشودة كراتشين» لبتهوفن، وكانت تحبّها كثيراً:

الطبول تقرع، والناي يغني،

وحبيبي يقود رجاله إلى العِراك،

والفصيل ينطلق حسب إيعازه،

أواه، كيف يحترق قلبي في صدري!

* * *

أواه، لولا حاجتي إلى الخوذة والسيف في اليد،

لكنتُ أدافع عن وطني الأم!

وأيّان يسيرون سأنطلق في أعقابهم.

انظر، هوذا خط الأعداء يلوح،

ما أعظم الفرحة إذ تكون جندياً شجاعاً!

كان صوت زويا يرنُّ بفرحة الحياة. وحينما تغني يلوح أن الأسطر الرتيبة «لمرتفعات الجبل» عارمة بالبهجة الهادئة والرجاء:

لا غبار على الطريق،

ولا ورقة تهتزُّ في الوادي،

انتظرْ قليلاً، أرجوك،

فسوف تستريح على كلّ حال.

وكان شورا، خلال تلك الأيام، يُجلس زويا إلى جوار النافذة ويرسمها.

قال ذات مرة، متأملاً:

ـ أتدريان، قرأت مرةً أنّ سوريكوف كان يهوى، منذ طفولته، دراسة وجوه الناس ليرى موقع عيونهم، وكيف تتألف قسماتهم. وقد اكتشف أنَّ الوجه الجميل هو الذي تتناسق قسماته بعضُها مع بعض. وأنت ترين، قد يملك أحدُهم أنفاً أفطس، وعظاماً في الوجه ناتئة، لكنه إذا تناسقت هذه الملامح مع بعضها، فالوجه يكون جميلاً.

واستوضحتْ زويا ضاحكة:

ـ وهل أملك أنفاً أفطس؟ أهذا ما تقصده؟

فأجاب شورا خجلان، وقد أفعمت صوته رقّة غير معهودة:

ـ كلا، أنا أعني أن وجهك متناسق. كل شيء فيه متلائم مع بعضه: الجبهة، والعينان، والفم...

أركادي بتروفيتش

ما أسرع أن غادرتنا زويا إلى المصحّ. لم يكُ هذا المصح بعيداً جداً ـ في سوكولنيكي، وانطلقت لرؤيتها في أول يوم عطلة.

قالت زويا، مندفعة صوبي، حتى قبل أن تقول مرحباً:

ـ ماما! أتعرفين من يرتاح هنا؟

ـ من؟

ـ جايدار! الكاتب جايدار! ها هو آت!

كان ثمّة رجلٌ عريض الكتفين، طويل القامة، ذو وجه صريح، يبدو صبيانيّاً نوعاً ما، قادماً من الحديقة.

نادته زويا:

ـ أركادي بتروفيتش! هذه أمي، تعالَ واجتمع بها.

صافحت يده الكبيرة القوية، واستقبلتُ عينيه المرحتين الضاحكتين، وتراءى لي على الفور أني تخيّلت مؤلف «القدح الأزرق» و«تيمور وفرقته» مثل هذا الرجل. قلت:

ـ منذ زمن بعيدٍ بعيد، والصغيران وأنا نقرأ كتبك الأولى. كانت زويا تتساءل دائماً عن شخصك، وأين تعيش، وهل في مقدورها رؤيتك.

فأوضح جايدار ضاحكاً:

ـ ليس فيَّ ما يستأهل الرؤية كثيراً، أليس كذلك؟ إني أعيش في موسكو، وأرتاح في ساكولنيكي، وهي تقدر على رؤيتي طيلة النهار!

وناداه شخص ما، فابتسم لنا، ومضى.

قالت زويا، وهي تقودني إلى بقعة ما عبر ممرّ يعجُّ بالثلج:

ـ أتدرين كيف تعارفنا؟ كنت أتجول في الحديقة، وتطلعت بغتة فبصرت برجل كبير ضخم، يصنع رجلاً من الثلج. لم أعرفه أول الأمر، وإن ما أدهشني حقاً هو أنّه بدا مهتماً بذلك العمل الاهتمام كله، غارقاً فيه بكلّيته، مثل طفل صغير. وكان يخطو إلى الخلف ليتفحَّص ذلك العمل... فجمَّعت أطراف شجاعتي، وأسرعت نحوه، وقلت: «إني أعرفك أيضاً، وأعرف جميع كتبك: كتاب الجبر لكيسيليف، كتاب الفيزياء لسوكولوف، وكتاب المثلثات لريبكين».

فضحكت: إن كيسيليف، وسوكولوف، وريبكين هم مؤلفو كتب زويا المدرسية. ومن ثمّ قالت زويا:

ـ فلنتمشَّ قليلاً، سأريك ماذا بنى: حصناً كاملاً.

وفي الحقيقة، كان ذلك أشبه بالحصن: إن سبعة شخصيات من الثلج تنتصب في أقصى الحديقة في صف واحد. كان الشخص الأول مارداً حقيقياً، أما الآخرون فيصغرون تدريجاً، وكان أصغرها رجلاً من الثلج جالساً خلف دكة مصنوعة من الثلج أيضاً. وإلى الخلف منه أكواز من الصنوبر وريش طيور.

أوضحت لي زويا ضاحكة:

ـ إنها حصن للأعداء. وقد ضربه أركادي بتروفيتش بقنابل من الثلج وساعدناه جميعاً. ما كنت تستطيعين البقاء بعيدة عن المعركة، فقد كان ذلك مسلياً جداً...

وأنهت زويا حديثها بصورة غير متوقعة:

ـ تعرفين، يا أماه، أني كنت أفكر دائماً أن رجلاً يكتب مثل تلك الكتب المجيدة يجب أن يكون جيداً هو نفسه، وقد تبيَّنت الآن أن ذلك صحيح.

أضحى أركادي بتروفيتش وزويا صديقين حميمين، وكانا يتزحلقان على الثلج معاً، وينشدان أغنيات في العشيات، ويتحدثان عن الكتب التي قرآها، وتلت زويا عليه أشعارها المفضَّلة، وقد أخبرني حين اجتمعنا مرة ثانية:

ـ ابنتك تقرأ جُوته بصورة رائعة.

وأوضحت زويا، مدهوشة نوعاً ما:

ـ أتعرفين ما قال لي حينما سمعني أقرأ جوته؟ قال: «اهبطي على الأرض، على الأرض!»، ولكن، ماذا عنى بذلك؟

وفي مرة ثانية، قبيل مغادرته المصحّ بوقت قصير، أنبأتني زويا:

ـ سألته البارحة، يا أماه: «أركادي بتروفيتش، ما هي السعادة! أرجوك ألا تردَّ عليَّ كما رددت على «شوك وجيك» في كتابك، بقولك إن كلاً منا يفهم السعادة على طريقته الخاصة. ثمّة سعادة واضحة ضخمة مشتركة لسائر الناس، أليس كذلك؟»... وفكَّر قليلاً، ثمّ أعلن: «هنالك، من دون ريب، مثل هذه السعادة. إنها شيء يعيش الناس الحقيقيون ويموتون من أجله. لكنها تتطلب وقتاً طويلاً حتى تتحقّق في العالم». وقلت آنذاك: «أوه، لو أنها تجيء فقط!»... فأجاب: «لسوف تجيء بكل تأكيد!».

رجعت بعد عدة أيام لأعود بزويا إلى البيت. وصحبنا جايدار حتى البوابة، وصافحنا مودّعاً، ثمّ قدم لزويا كتاباً:

ـ إنه من تأليفي، وهو ذكرى.

وكان على الغلاف صبيّان يتعاركان: أحدُهما نحيل، في بذلة زرقاء، والآخر سمين، في بذلة رمادية. إنهما شوك وجيك. فشكرته زويا مسرورة مرتبكة، ثمّ مرقنا من البوابة. ولوَّح جايدار بيده وظل واقفاً يرنو إلينا. وحينما التفتنا للمرة الأخيرة، رأيناه يدبُّ على مهلته على طول الممرّ في اتجاه البيت.

وتوقفت زويا فجأة:

ـ ماما، لربما كتب لي شيئاً!

وفتحت الكتاب مضطربة، فكأنها عاجزة عن جمح شتات فكرها، كان قد خَطَّ على الصفحة الأولى بحروف كبيرة واضحة هذه الكلمات التي نعرفها جيداً:

«ما هي السعادة؟ ـ إن كل واحد يفهمها على طريقته الخاصة، بيد أن الجميع يعرفون ويفهمون أنهم كي يبلغوها فلا بد لهم أن يكونوا شرفاء، وأن يشتغلوا جيداً، وأن يسهروا على هذه الأرض الشاسعة التي تدعى بلاد السوفييت، وأن يحبّوها من صميم قلوبهم!».

قالت زويا بهدوء:

ـ هذا جوابه على سؤالي.

وبعد عودتنا من المصحّ بأيام عدة، ذهبت زويا إلى المدرسة، ما كانت تطيق أن تبقى في صفّها سنة أخرى.

رفقاء المدرسة

قالت زويا متفكّرة:

ـ كانوا مسرورين جداً لرؤيتي في المدرسة، مسرورين جداً... وحذرين جداً، فكأنني... فكأنني مصنوعة من زجاج قد ينكسر في أية لحظة. وفي الحقيقة، إن الشعور بعنايتهم رائع جداً.

وعادت زويا مرة من المدرسة بصحبة فتاة مدورة الوجه، ذات وجنتين مورَّدتين؛ صورة حية عن الصحة. إنها كاتيا أندرييفنا، إحدى رفيقات ولديَّ في المدرسة.

قالت مبتسمة، وهي تصافحني:

ـ مرحباً، كيف حالك؟

وقالت زويا:

ـ لقد تطوَّعت كاتيا لتعليمي الرياضيات.

ـ أفلا يستطيع شورا ذلك؟ فيمَ تزعجين كاتيا؟

فردت كاتيا بلهجة جدية:

ـ تعرفين، يا ليوبوف تيموفييفنا، أن ليس لشورا قابلية للتعليم. ونحن اجتزنا مرحلة طويلة من دون زويا، ويجب أن نشرح لها ذلك كله تدريجياً وبشكل منظم. أما شورا... فقد سمعت كيف يشرح الأمور: واحد، اثنان، ثلاثة، وهذا كل شيء. وهذا لا يفيد.

ـ حسناً طالما أنّه لا يملك قابلية للتعليم...

فنبرت زويا:

ـ لا تضحكي، يا أماه. فشورا، في الحقيقة، لا يقدر على شرح الأمور كما ينبغي. أما كاتيا...

وما أسرع أن اكتشفت أن كاتيا بارعة في ذلك حقاً. فهي لا تتسرَّع، ولا تنتقل من خطوة إلى ثانية إلّا بعدما تتأكد أن زويا استوعبت كل شيء. وقد سمعت زويا مرة تخاطبها:

ـ أنتِ تضيِّعين وقتاً كثيراً عليَّ.

فردّت كاتيا بحرارة:

ـ ماذا تقولين؟ إنني أستوعبه، أنا نفسي، تماماً فيما أشرحه لك، بحيث لا أجد حاجة للرجوع إليه في البيت. وهكذا تكون النتيجة واحدة.

وكانت زويا تتعب بسرعة. فلا تتهرب كاتيا من ذلك. بل تدفع الكتاب جانباً وتقول:

ـ وأنا أحسُّ التعب أيضاً. فلنتحدث عن شيء آخر فترة من الزمن.

وكانت تخرجان من البيت أحياناً، وتتمشيان قليلاً، ثمّ ترجعان وتجلسان إلى عملهما.

قال شورا مازحاً ذات مرة:

ـ أتنوين أن تصيري معلمة؟

فأجابت كاتيا بصورة جدية:

ـ أجل، إني أنوي...

ولم تكُ كاتيا الفتاة الوحيدة التي تزور ولديَّ. كانت إيرا تمرُّ بنا. وثمة بعض الفتيان: فاينا نوسينكوف المتواضع الخجول، وبيتيا سيمونوف الذي لم يكُ يحب شيئاً بمقدار حبه

لمباراة كرة القدم ولجدلٍ عنيف، وأوليج بالاشوف النشيط المرح، وهو فتىً جميل جدّاً ذو جبهة نبيلة نقية، وكان يورا برودو يمرُّ بين الحين والحين، شاب طويل نحيل، ساحر الملامح قليلاً، وهو طالب في شعبة ثانية من الصف ذاته. وحينئذٍ كانت غرفتنا ترجِّع أصداء الضجيج والضحك. وتنحي الفتيات كتبهنَّ جانباً، وإذ ذاك ينفجر النقاش في كل أمرٍ مستجدٍ. كانت إيرا تقول:

ـ أتعرفون، يا جماعة، أن تاراسوفا ليست الوحيدة التي تقوم بدور آنا كارنينا، فهنالك إيلانسكايا أيضاً.

وفي الحال يقرقع جدال حاد يدور حول أية واحدةٍ من الممثلتين قد فهمت تولستوي بصورة أعمق وأصدق من الأخرى.

وجاء أوليج مرة، وهو الحالم أبداً بأن يصير طياراً، من السينما رأساً، حيث شاهد فيلماً تدور حوادثه عن شكالوف. وكان مفتوناً به. ظل يكرر ويعيد:

ـ يا له رجلاً! لم يكن طياراً فوق عادي فحسب، بل رجلاً رائعاً! رجلاً يحب المزاح كثيراً. وحينما طار عبر القطب الشمالي إلى أميركا عام 1937، سأله محررو الصحف هنالك: «أغنيٌّ أنت، أيها السيد شكالوف؟»، فأجاب: «نعم غني جداً. وأملك مائة وسبعين مليوناً!». فلهث الأميركيون: «مائة وسبعون مليوناً؟ روبلات؟ أم دولارات؟». واستعاد شكالوف هدوءه، وقال: «مائة وسبعون مليوناً من الناس يعملون لأجلي، مثلما أعمل لأجلهم».

فضحك الأولاد.

وفي مرة ثانية قرأ علينا فانيا شعراً بعنوان «الجنرال» مهدىً إلى ذكرى ماتيه زالكا الذي قتل في إسبانيا. ولأذكر تلك العشية جيداً: جلس فانيا إلى الطاولة، وقد اتَّخذ وجهُه طابع التفكير، وتحلَّق الآخرون حوله، بعضهم على السرير، وبعضهم على حافة النافذة:

البردُ قارسٌ هذه الليلة على الجبال.

وهو مضعضع من كثرة الاستطلاع طيلة عدة أيام.

إنه يدفئ يديه المتعبتين الباردتين

فوق لهيب نار المخيم الأصفر.

قِدْرُ القهوة تغلي بهدوء وتئزّ

والجنود المنهكون يغطّون في النوم.

وشجر النار الأراغوني يشقشق،

وتخشخش أوراقه الكسول.

وبغتة بدا للجنرال أنّ أغصان شجر الغار تنتشر.

هل، يا ترى، فوق رأسه،

يهمس شجر ليمون بلادِه هنغاريا؟

كانت قراءة فانيا بسيطة، خالية من الأخطاء فيما يبدو، وكنا نستطيع، جميعاً، سماعَ قلبٍ عظيم يضرب بهوىً وعاطفة بين الأسطر القصيرة. وأمست نظرة فانيا متوترة حادة بصورة غير طبيعية، فكأن الفتى نفسه يرنو بفخار وحزن إلى تلك الليلة الأراغونية الكئيبة البعيدة:

ووطنه الأم بعيد بعيد،

لكنه يحسّ، أيّان ذهب،

أن السماء الهنغارية تسبح فوقه،

والأرض الهنغارية ترسو تحت قدميه.

إن العلَم الهنغاري القرمزي

يلتهب في يده،

وأيّان حارب، فهو يحارب

في سبيل أرضه الهنغارية.

وغير بعيد، في موسكو،

سمعت من أفواه كثيرين، كانوا يبكون،

أنّ قنبلة ألمانية أصابته

في معركة ويسما، فمات.

فرفضتُ تصديق تلك الإشاعة،

فأنا أعرف أنه يحارب في إسبانيا،

ولسوف يستقبل، قبل أن يطويه الموت،

في عاصمته بودابست من جديد.

وبينا تطير، في سماء إسبانيا البعيدة،

تلك الجوارح الألمانية،

إيّاكم وتصديق تلك الإشاعات.

المتحدِّثة عن موت الجنرال، لأنهم يكذبون.

إنّه حيّ. إنه في بقعة ما قريبة من ويسكا،

حيث يغطُّ الجنود المنهكون في النوم،

وإلى الأعلى منه، يشقشق شجر الغار

ويخشخش بأوراقه الكسلى.

وبغتة بدا للجنرال

أنَّ أغصان شجر الغار تنتشر.

هل، يا ترى، فوق رأسه،

يهمس شجر ليمون بلاده هنغاريا؟

وتوقف فانيا. فلم يتحرك أحد أو ينطق بحرف. كنا قد جُرفنا جميعاً، كما لو بفعل ريح حارة، بانفعال تلك الأيام، حين كان كل قلب يترجّح تحت وقع حوادث إسبانيا، وحين كانت كلمات «مدريد»، و«جادا لاجارا»، و«ويسكا» عزيزة مألوفة، وقلوبنا تضرب بسرعة لدى كل نبأ يأتي من تلك الجبهات البعيدة.

واقتحم شورا الصمت بقوله:

ـ آه، ما أعظم ذلك:

وعلى الفور، انهالت الأسئلة من كل جانب:

ـ من كتب هذا؟ من أين جاء؟

ـ كتب عام 1937، وقد وجدته في إحدى المجلات. جيد، أليس كذلك؟

وتوسل الفتيان جميعاً:

ـ فلننسخ ذلك!

وأعلن فانيا:

ـ إسبانيا... ثمة ضربة واحدة أسوأ منها منذ ذلك الحين ـ سقوط باريس.

وتابعت زويا:

ـ أجل، فأنا أذكر ذلك اليوم الصيفيّ جيداً. جاءتنا الجريدة، وقرأنا فيها ـ لقد سقطت باريس! وكان ذلك راعباً، مخجلاً!

وقال فانيا ببطء:

ـ وأنا أذكر ذلك اليوم أيضاً. ما كنت تستطيع أن تصدق أن الفاشيين يتجوّلون في باريس... باريس تحت حذاء النازي! باريس رجال الكومونة!

وقال بيتيا سيمونوف برقة:

ـ أتمنى لو كنت هنالك! لكنت حاربت دفاعاً عن باريس مثلما فعل رجالنا في إسبانيا ـ حتى آخر قطرة من دمي!

ولم يدهش أحدنا لكلامه البتة.

نبر شورا، وهو يصعِّد تنهيدة عظيمة:

ـ لقد حلمت بالقيام بذلك العمل أيضاً: أول الأمر في إسبانيا، ثمّ القتال ضد الفنلنديين البيض، وقد فاتني كل شيء...

وأصغيت إليهم، وقلت في خاطري:

ـ يا للقوم الطيّبين الذين يكبرون!

وتعرَّفت في ذلك الشتاء إلى رفاق صفّ زويا وشورا بصورة حسنة، وكنت أعرف فيهم غالباً تلك الميزات التي أعرفها جيداً في صغيريَّ. وحدثت نفسي: هذا ما يجب أن يكون. فالعائلة ليست صندوقاً مغلقاً. وكذلك المدرسة. فالعائلة، والمدرسة، والصغار، جميعهم يعيشون بما يحرك بلادنا، ويقلقها، ويسرها، وكان كل ما يجري حوالي ولديَّ يثقفهما ويربيهما...

وإليكم، مثلاً، ذلك العدد العديد من مبدعي الاختراعات الرائعة الذين ظلوا مجهولين في الماضي! أما اليوم، فكل من يعمل بجدٍّ وبصورة حسنة، ويكدُّ ذهنه، فهو يصير مشهورا. وكل إنسان يبتدع شيئاً جديداً يحوطه احترام الناس وحبهم. وهنالك تلك الفتاة، عاملة النسيج، التي ابتكرت طريقة جديدة تضاعف مرات عديدة في إنتاج الثياب المتينة الجميلة. وقد استفزَّ مثالها جميع عمال النسيج في الاتحاد السوفييتي. ومثلاً آخر، تلك الفتاة، سائقة المحراث ـ إنها تشتغل بنشاط واهتمام بحيث أضحى اسمه، الخامل بالأمس، محبوباً ومحترماً من الجميع وهذا كتاب جديد للأطفال، يدعى «تيمور وفرقته»، وهو قصة عن الشرف، وعن عاطفة الصداقة النبيلة، وعن احترام الكرامة الإنسانية. وهذا فيلم جديد اسمه «فجر باريس»، يصوّر الشعب الفرنسي، والوطني البولوني دومبروسكي الذي حارب في سبيل حرية شعب وطنه وسعادته أثناء حصار باريس. وكان الصغيران يلتهمان بشرهٍ كل شيء صالح، شريف، شجاع، ولطيف تزخر به هذه الكتب والأفلام، ويزخر به كل يوم من حياتنا.

رأيت أيضاً أن ليس ثمة شيء آخر عزيز على قلوب صغيريّ ورفاقهما مثل وطنهم الأم، ورغم ذلك فإن العالم الفسيح أيضاً عزيز عليهم. ولم تكُ فرنسا، بالنسبة إليهم، بلد بيتان ولافال، بلك كانت أرض ستاندال وبلزاك، أرض الكومونة. وكان الإنكليز في نظرهم من نسل شكسبير، وكان الأميركيون شبان موطن لنكولن وواشنطن، ومارك توين وجان لندن. ورغم معرفتهم بأن الألمانيين قد سببوا حرباً ضروساً مدمرة في العالم، واجتاحوا فرنسا،

وسحقوا تشيكوسلوفاكيا والنروج فإن ألمانيا الحقيقية لم تكُ بالنسبة إليهم الأرض التي أنتجت هتلر وغوبلز، بل أرض بتهوفن، وجوته، وهايني، الأرض حيث ولد ماركس العظيم. وقد نما في قلوبهم حب عميق ملتهب لوطنهم الأم، واحترام عظيم للشعوب الأخرى، ولكل شيء جميل خلقته شعوب الأرض جمعاء.

إن كل ما يراه الفتيان حواليهم. وكل ما يتعلّمونه في المدرسة، يغذّي فيهم إنسانية صريحة نقية، ورغبة جموحاً للتعمير والإنشاء، لا للتخريب والدمار.

وقد آمنتُ كثيراً بمستقبلهم، وبأنهم سيكونون سعداء، وأن حياتهم ستكون صالحة مفعمة بالنور.

أخضر هو لون الفتوة

مرَّت الأيام وتصرَّمت. واستعادت زويا صحتها، وكان ذلك حدثاً هاماً بالنسبة إلينا! لقد ترعرعت قوية من جديد، وما عادت تتعب سريعاً. وشيئاً فشيئاً ـ وجب أن نتوجه بالشكر إلى مساعدة رفاقها ـ لحقت بدروس صفها. وقد قدَّرت زويا السريعة التأثر تجاه أية كلمة لطيفة أو عمل حنون، تلك المساعدة حقّ قدرها.

ولأذكر مخاطبتها إياي مرة:

ـ تعرفين أني أحببتُ المدرسة دائماً، أما الآن...

وصمتت، لكن كان في صمتها شعور أعظم من أن تستطيع أية كلمة أن تعبّر عنه. وأضافت، بعد برهة:

ـ تعرفين. أحسب أني تصاحبت مع نينا سموليانوفا. وهي في شعبة ثانية من الصف. إنها فتاة كما أشتهي. مستقيمة جدية. وقد تحدثنا في المكتبة مرة عن الكتب وعن أصدقائنا. ووجدنا أنّنا متفقتان في كل شيء. وسأقدمها لك في أقرب وقت مستطاع.

وبعيد عدة أيام صادفت فيراسير جييفنا نوفوسيلوفا في الطريق. سألتها:

ـ حسناً، كيف حال زويا؟

ـ لقد أدركتني في مادتي منذ زمن بعيد. ولا عجب، فقد قرأت كثيراً... ونحن سعداء جداً لأنها تحسنت وقويت. وأنا أراها دائماً بصبحة رفاقها. ويتراءى لي أنها تصاحبت مع نينا. وهما متشابهتان تقريباً، كل منهما مستقيمة. وتنظر إلى كل شيء بجدٍّ وصرامة ـ البشر والدروس.

سرت إلى جانب فيرا سيرجييفنا حتى المدرسة، وقلت في نفسي، وأنا عائدة إلى البيت:

ـ ما أعمق معرفتها بالأولاد!

وجاءنا الربيع ـ أخضر مفاجئاً.

ولا أتذكر الآن أية إساءة ارتكبها الصف (آ ـ 9)، لكن الصف بأسره اعترف بخطيئته وتوسل ألا يعاقب، بل أن يُعطى عملاً في أصعب جزء من ساحة المدرسة التي تقرر زرعها بالأشجار.

ووافق نيقولاي فاسيليفيتش على ذلك، ولم يُبدِ طبعاً أية رحمة أو شفقة. فأعطاهم في الواقع أصعب بقعة ـ حيث انتهى تشييد البناء الملحق بالمدرسة بطوابقه الثلاثة قبل فترة قصيرة جداً، وحيث ما برحت الأنقاض مبعثرة على الأرض في كل ناحية.

ورجعت زويا وشورا ذلك النهار في ساعة متأخرة إلى الدار، وراحا يرويان لي، وهما يتزاحمان، كيف اشتغلا.

كان طلاب الصف (آ ـ 9) قد تسلّحوا بالرفوش والنقّالات، ينظفون الأرض ويمهدونها ويحملون الأنقاض بعيداً، ويحفرون ثغرات لزرع الأشجار. وكان نيقولاي كيريكوف ـ المدير ـ يعمل وإياهم أيضاً ـ يحمل الحجارة ويحفر الأرض. وفجأة، قدم رجل طويل نحيل صوب الأولاد. قال:

ـ مرحباً.

فأجابوا جميعاً:

ـ مرحباً!

ـ أتستطيعون إفادتي أين أجد المدير؟

فردّ كيريكوف، وهو يستدير إلى الغريب ويمسح يديه الوسختين:

ـ أنا هو.

وأعلنت زويا ضاحكة:

ـ وكان منتصباً هنالك، وسخاً، يحمل رفشاً، فكأن ليس في الأمر ما هو شاذ، وكأن من عمل المدير أن يزرع الأشجار مع تلاميذه.

واتضح أن الرجل مؤلف قصص للأطفال ومراسل في جريدة «البرافدا». وقد دهش أول الأمر حينما علم أن ذلك العامل العريض الكتفين هو في الحقيقة مدير المدرسة رقم 201، ومن ثمّ ضحك، ولم يغادرنا طوال بعد الظهر رغم أنه قدم إلى المدرسة في مهمة رسمية. وراح يتفحَّص الحديقة الصغيرة التي زرعها الأطفال، وأدغال توت العليق الكثيفة، والورود. وقال متفكراً: «رائع!... افترضوا أنكم كنتم في المرتبات الوسطى حينما زرعتم شجرة تفاح في حديقة المدرسة بأيديكم أنتم. وقد نمَتْ معكم، وركضتم أنتم لإلقاء نظرة عليها أثناء الفرص، واحتفظتم بالتربة محفورة مستقية، وقتلتم الديدان. وها أنتم الآن تنهون دراستكم، وهذي شجرة تفاحكم تعطي ثمراتها الأولى... رائع!...».

وأعادت زويا حالمة:

ـ رائع! أنا اليوم في الصف التاسع، وقد زرعت شجرة زيزفون اليوم. وسننمو معاً... وشجرتي هي الثالثة، فتذكري، يا أماه! أما الرابعة فهي شجرة كاتيا أندرييفنا.

وبعيد أيام عدة، ظهرت في البرافدا قصة تروي كيف زرع أطفال الصف (آ ـ 9) حديقة المدرسة بالأشجار. وانتهت القصة بهذه الكلمات:

«لقد انتهت الامتحانات النهائية تقريباً. والفتيان يغادرون المدرسة، مثقَّفين ناجحين، لا يتأثرون بالجليد والرياح تحت سماء مكشوفة. وسيمضي طلاب هذه المدرسة إلى العمل،

والدراسة، وسيخدمون في الجيش الأحمر. جموحين، واثقين من النصر مثلما ينمو الاخضرار الفتيّ في الغابة، هذا الاخضرار الذي غنّاه نيكراسوف».

الحفلة الراقصة

في الحادي والعشرين من شهر حزيران أحيت المدرسة حفلة راقصة للصف العاشر بمناسبة انتهاء العام الدراسي، وعزم الصف (آ ـ 9) على حضور تلك الحفلة.

قال شورا:

ـ في المحلّ الأول لأنهم أصدقاء لنا. ثمة بعض الشبان الرائعين هناك، كيف، إن فانيا بيليخ وحده يساوي دزينة.

وأضافت كاتيا:

ـ وفي المحل الثاني سنرى كيف ستكون الحفلة، وفي السنة التالية سنحيي حفلة أروع!

واستعدوا للحفلة كضيوف، وشركاء، وخصوم، سيحيون في السنة التالية حفلةً مدهشة لم تحلم مدرسة أخرى بمثلها.

وساعد نيقولاي إيفانوفيتش، أستاذ الرسم، في تزيين المدرسة.

كان منعماً عليه بشيء تقدّره المدرسة رقم 201 وتحترمُه كثيراً ـ يدان ذكيّتان ماهرتان. فهو يزيّن المدرسة، أبداً، على نسقٍ رائع، وفي كل مناسبة لذكرى ثورة أوكتوبر، ورأس السنة، وأول أيار ـ وكان يستنبط أشياء جديدة، أشياء غير عادية، وكان الأولاد يبتهجون كثيراً بتنفيذ أوامره ووصاياه.

ووعدنا شورا:

ـ سيبرِّز كثيراً هذه المرة.

كانت العشية متلألئة دافئة. ورجعت إلى الدار متأخرة، حوالي الساعة العاشرة، فلم أجد الصغيرين في البيت ـ فقد برحاه إلى الحفلة. وهرولت إلى الخارج من جديد بعد فترة قصيرة، وجلست على العتبة، وقبعت هنالك طويل زمن، هادئة، لا أفكّر في شيء على الإطلاق، بل أرتاح وأتمتع بالسكينة ورائحة الأوراق الطرية. ثمّ نهضت وسرتُ على مهلتي صوب المدرسة. أردت أن أرى، ولو من بعيدٍ، كيف تفوَّق نيقولاي إيفانوفتيش على نفسه بالذات، وكيف يمتّع الصغيران نفسيهما... ولم أدرِ تماماً لماذا انطلقت إلى هناك، كنت أبغي الترويح عن النفس فقط ـ هذا كل شيء.

نبر صوت امرأة أجشّ:

ـ أتعرفين موقع المدرسة 201؟

واستوضح أحدهم بصوتٍ عميق لطيف، قبل أن أتمكّن من الاستدارة:

ـ مدرسة كيريكوف؟ تابعي باستقامة، ثمّ انعطفي حول تلك الزاوية، وتصلين إليها. أتسمعين الموسيقى؟

كنت أسمع الموسيقى أيضاً، ولم أكد أنعطف حتى وجدت المدرسة، تستحمُّ في هالة من الأنوار، وكانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها.

دخلتُ، ورنوتُ حواليَّ، ثمّ رقيت الدرج ببطء. أجل، لقد صنع نيقولاي إيفانوفيتش أجمل شيء وأحسنه: جعل الصيف ينفجر في المدرسة. ثمة ورود واخضرار في كل ناحية. في الأصص، والبراميل، والعلب، وعلى الأرض، وعلى الجدران والنوافذ، في كل زاوية وفوق كل درجة ـ باقات من الأزهار، وضفائر سود مخضرَّة من التنوب، وعصائب ضخمة من الليلك، وتخاريم من شجر البتولا، ومن ثمّ المزيد من الورود، وتلال من الأناضير في كل بقعة...

واتخذت سمتي صوب الموسيقى، والضحك، والضجيج... وما إن بلغت باب القاعة المفتوح على المصراعين حتى توقفت، مَسبوهةً مدهوشة: فثمة أضواء ساطعة لا حصر لها، وثمة وجوه فتية وعيون براقة... وعرفت من بينها فانيا، الصبي الذي تحدَّث عنه شورا باحترام وعمق كثيرين: كان رئيس اتحاد الطلبة، وعضواً رائعاً في الكومسومول، وتلميذاً ممتازاً. كان ابن طيّان، وهو نفسه رائع في التطيين، ذو رأس طيب ويدين حذقتين... ولمحت فولوديا يوريف، ابن ليديا نيقولاييفنا التي درَّست زويا وشورا في الصفوف الأولى. كان ذلك الابن، ذو العينين الوضّاءتَين والجبهة العالية، يدهشني على الدوام بملامح وجهه الجادة الوقورة، لكنه الآن يبعثر نثاراً من الأوراق الصغيرة الملونة فوق الأزواج التي تمرُّ به، ويضحك بغبطة، مثل طفل صغير صغير... وآنئذٍ لمحت شورا. كان واقفاً بجوار الحائط، وفتاة شقراوية الشعر تدعوه لرقصة فالس. ورأيت ولدي يبتسم خجلاً ويهز رأسه.

وهنالك كانت زويا، مرتدية ثوباً أحمر مبقعاً بنقاط سود ـ وهو الثوب الذي ابتاعته بالمال الممنوح لها هدية من شورا. وكان الثوب يلائمها تماماً. وقد علَّق شورا عليه، حين بصر به للمرة الأولى:

ـ إنه يناسبك، يناسبك تماماً.

كانت زويا تتحدث مع شاب أسود طويل، لا أعرف اسمه، وعيناها الباسمتان مشعتين، ووجنتاها متوردتين.

وانتهى الفالس، وانفصل الأزواج عن بعضهما. وأطلق أحدهم صيحة مرحة:

ـ فليقف الجميع على شكل دائرة!

ومرة ثانية، كان ثمة رفيف من فساتين البنات الزرق والزهر والبيض، وومضات من الوجوه الضاحكة.

وبلغ أذنيَّ انفجار من الضحك الجذلان وأنا أغادر المدرسة. ورحت أسير ببطء على أرض الشارع، أعبُّ هواء الليل البارد. ورجعت بذاكرتي إلى اليوم الذي سحبتُ فيه الصغيرين زويا وشورا إلى المدرسة للمرة الأولى. قلت في خاطري:

ـ لكم كبرا! لو يراهما والدهما الآن!

كانت ليالي الصيف قصيرة في موسكو، وسكينتها لا يعكّرها شيء البتة، ثمة خطوات متأخرة ترنّ على الرصيف، وسيارة تنبثق من لا مكان وتمرق بسرعة، والأصداء البلورية لأجراس الكرملين تهبط من بعيد على المدينة النائمة.

لكن تلك الليلة من حزيران لا يمكن أن تسمى ساكنة إلّا بصعوبة. فثمة أصوات وانفجارات من الضحك وقرقعة خفيفة لخطوات سريعة تجيء غامضة من قلب الظلمة، ومن ثمّ تنطلق أغنية ما من مكان ما. وكان الناس الساهرون حتى تلك الساعة القريبة يطلّون من النوافذ في دهشة، ثمّ تضيء وجوههم بابتسامة نيرة. ولم يسأل أحدٌ فيما يدبّ هؤلاء الفتيان المرحون في الشوارع تلك الليلة، ولماذا لا يستطيعون كتمان أغانيهم وقهقهاتهم. عرف الجميع أن موسكو الشابّة تحتفل بيوم التخرّج.

استيقظت عندما شرع الفجر بالانبلاج عند النافذة. كانت ليلةً قصيرة جداً. لقد كان الثاني والعشرين من حزيران.

كان شورا يقف بجوار سريره. لا بدّ أنّ وقع خطواته الزاحفة الحذرة هي التي أيقظتني.

سألتُه:

ـ أين زويا.

ـ لقد ذهبت في نزهة مع إيرا.

ـ هل كانت الحفلة جيدة، يا شورا؟.

ـ ممتازة! لقد غادرنا باكراً وتركنا الآخرين لوحدهم مع المعلِّمين، لكيلا نفسد عليهم أحاديثهم وهم يغادرون، وما إلى ذلك.

ذهب شورا إلى سريره، ولبثْنا صامتين لبعض الوقت. وفجأة دلفت إلينا أصواتٌ عبر النافذة.

ـ زويا وإيرا!، قال شورا هامساً.

كانت الفتاتان قد وقفتا تحت النافذة تماماً منهمكتين في نقاش شيء ما بحماس؛ تناهى إلينا صوت إيرا:

ـ هذا عندما تكونين أسعد شخصٍ في العالَم.

استنكرتْ زويا:

ـ هو كذلك. لكني لا أفهم كيف تستطيعين أن تحبّي رجلاً إذا لم تكوني تحترمينه.

تعجّبت إيرا بفزع:

ـ لكن كيف تستطيعين التحدث هكذا! وبعد قراءة الكثير من الكتب!

ـ ولهذا بالضبط أقول: إذا لم أكن أحترم الرجل فلا أستطيع أن أحبّه.

ـ لكن ليس هذا ما تقوله الكتب عن الحب. في الكتب، الحب هو السعادة... إنّه شعور خاصّ تماماً...

ـ نعم بالطبع، لكنّ...

ثمّ انكتمت الأصوات.

قال شورا بلطف:

ـ سوف ترى إيرا في البيت.

وأضاف بقلق، مثل شقيقٍ كبير:

ـ سوف أكون قاسياً عليها في الحياة. إنها تعامل كلّ شيء من زاوية خاصّة.

قلتُ:

ـ لا بأس، ما زالت صغيرة جداً. كلّ شيء سيكون على ما يرام، يا شورا.

وتدحرجتْ خطواتٌ زويا بحرص على الدرج. وفتحت البابُ مواربأً، وسألت بلطف:

ـ هل أنتم نائمون؟

لم نردّ جواباً. فتسلّلت زويا بهدوء حتى النافذة ووقفت هناك لوقتٍ طويل، تتأمّل السماء التي يغسلها الفجر.

الثاني والعشرون من حزيران

لكم انحفرت كل دقيقة من هذا النهار في ذاكرتي حفراً: ففي نهار الأحد، في الثاني والعشرين من حزيران، كان عليَّ مراقبة الفحوص الأخيرة في المدرسة الحربية. وكان الصباح مشرقاً حينما أسرعتُ لألحق بالترام. وكانت زويا تودعني، وهي تسير إلى جانبي، فتاة بالغة، طويلة هيفاء، خداها مائلان إلى الحمرة. وكانت لها ابتسامة رائعة متلألئة. كانت تبتسم للشمس، والعذوبة الملتفة بنا، ورائحة شجر الليمون المتفتحة براعمه.

وثبْتُ إلى الترام، ولوّحت لي زويا بيدها، ووقفت برهة عند موقف الترام، ثمّ استدارت صوب البيت. كان الترام يتطلب ساعة من الزمن حتى يصل إلى المدرسة الحربية، وأنا معتادة على القراءة فيه، لكنه صباح جميل فتَّان، فخرجت إلى شرفته كي أستنشق مزيداً من نسيم الصيف اللطيف. كان هذا النسيم يندفع داخل الترام، غير مكترث بقواعد الركوب، فيبعثر شعور الصبيان والصبايا المرحين المتجمعين في تلك الشرفة. وكان زملائي الركاب يتبدّلون لدى كل محطة، فالطلاب قد هبطوا في محطة أكاديمية تيميريازيف واتجهوا إلى أجنحتهم المختلفة: إن هجوم الامتحانات لا يعرف آحاداً. ولمحت قرب تمثال تيميريازيف جماعات من الفتيان والفتيات جالسين على المقاعد الطويلة، وسط سرائر من الأزهار المختلفة الألوان... إنهم يحضِّرون للامتحان، على ما يظهر. ولربما يوجد بينهم بعض المحظوظين الذين أنهوا امتحاناتهم. وفي الموقف التالي امتلأت الشرفة والقاطرة جميعاً بأطفال المدرسة في ثيابهم الجميلة وأربطتهم الحمر. وكان ثمة معلمة شابة صارمة تضع نظارتين تلاحظ الأطفال كي لا يحدثوا جلبة عظيمة، وكي لا يقفوا على الدرجات، وكي لا يخرجوا رؤوسهم من النوافذ.

ناداها فتىً عريض المنكبين:

ـ ماريا فاسيلييفنا. ما الأمر: الزموا الهدوء في الصفّ ولا تتكلّموا هناك؟ لكنّنا في عطلة الآن!

ولم يبدُ على المعلمة أيُّ ميلٍ للإجابة. بل رمث الفتى بنظرة جعلته يخفض عينيه وهو يتنهّد ويستكين.

وخيّمت في القاطرة بعد ذلك موجةُ خشوع من الصمت. ثمّ لكزتْ فتاة حمراوية الشعر ـ ذات عينين خبيثتين ونمشٍ ضاحك متناثر على وجهها ـ لكزتْ رفيقتَها في مرفقها وهمست شيئاً في أذنها، ولم تمضِ لحظة حتى صار الجميع يتهامسون ويتهاتفون، وراحت القاطرة تدوي وتئزّ من أولها إلى آخرها كخليّة النحل.

نزلتُ من الترام. كان ما يزال أمامي نصف ساعة حتى يبدأ الامتحان، فرحتُ أسير على مهلتي في الشارع العريض، أراقب نوافذ المكتبات. يجب أن أخبر شورا ليجيء ويبتاع الدفاتر والخرائط الجغرافية للصف العاشر. فنتهيأ لذلك مقدماً، فهي السنة الدراسية الأخيرة الحاسمة. وهاهُنا معرض الفن الذي عزمنا على زيارته...

بلغتُ المدرسة ورقيتُ حتى الطابق الثاني. ما كان يلوح أن الوقت زمن امتحانٍ على الإطلاق، فكل شيء يبدو مكفهرّاً مهجوراً. والتقيتُ المدير في غرفة المعلمين. قال:

ـ أُرجِئ الامتحان اليوم، يا ليوبوف تيموفييفنا. فلم يحضر التلاميذ، ولسنا نعرف السبب بعد.

أحسستُ شيئاً بارداً يفيض في داخلي، رغم أنّي لم أكُ قد ميزت شيئاً من شيء بعد. كان تلاميذي جنوداً، فهم قوم نظاميون حتى الدرجة القصوى، فماذا أعاقهم في يوم امتحانهم؟ ماذا حدث؟ ليس من يدري بعد.

وبدا لي أني سأختنق وقتما دلفتُ إلى الشارع، وتراءى لي الجميع وكأنهم يحملون في وجوههم ملامح القلق والتوتر. ماذا حلَّ برطوبة الصباح، وبجموع أهل موسكو المغتبطين الصاخبين في العيد؟ ولاح لي أن كلاً منهم ينتظر شيئاً، وكان الانتظار أصعب من أن يُحتمَل، فكأنه نذيرُ عاصفة.

ومرَّ بي الترام، يعجُّ براكبيه. وسرتُ على قدميَّ طوال طريق العودة كلها تقريباً. لكن أوّل كلمة حيَّتْني في البيت هي تلك التي حطّمت احتباس العاصفة في ذلك اليوم الذي لن ننساه جميعاً.

زعق الصغيران، وقد اندفعا صوبي:

ـ الحرب، يا أماه! الحرب!

وطفقا يتكلّمان معاً:

ـ إنها الحرب! لقد هاجمتْنا ألمانيا! من دون إنذار أو إعلان! اجتازوا الحدود وفتحوا النار!

كان الغضب على وجه زويا، وهي تتحدث بقسوة، مطلقةً العنان لسخطها ونقمتها، وكان شورا يحاول جهده كي يلوح هادئاً رابط الجأش، قال متأملاً:

ـ كان هذا متوقعاً. فنحن نعرف ألمانيا الفاشية حق المعرفة.

وخيَّم صمتٌ قصير.

نبرت زويا من بين أسنانها، فكأنها تخاطب نفسها:

أجل، ستتغير الحياة الآن تغيّراً شاملاً.

ودار شورا حولها:

ـ لا تقولي «إنك» تفكرين في الانطلاق إلى الجبهة؟

ـ هذا ما كنت أعنيه بالضبط!

قالت زويا هذا غاضبة، مثلها قبلاً، من دون أن توجه كلامها إلى شخص معين، ثمّ استدارت فجأة، وبرحت الغرفة.

عرفنا أن الحرب ستحمل الموت إلى ملايين الناس، وأنها تعني الخراب، والشقاء، والحزن. غير أنّا لم نكوّن صورة بيّنة المعالم، في ذلك اليوم البعيد، عن أهوالها الفظيعة. لم نكُ نعرف شيئاً عن الغارات الجوية، وكنا نجهل معنى الخندق والملجأ ـ وسرعان ما توجَّب علينا صنع ذلك بأنفسنا. وما كنا سمعنا في ذلك الحين زعيق القنابل ودويّ انفجارها كنا نجهل أن الانفجار يستطيع أن يهشم زجاج النوافذ ويقتلع الأبواب المقفولة من مفصّلاتها. لم نكُ نعرفُ شيئاً عن إخلاء المدن وعن القطارات المزدحمة بالأطفال، قطارات سينسفها العدو بكل هدوء ودقّة وبرودة. وما كنا قد سمعنا بعد عن قرى تحترق برمّتها ومدنٍ تتحوّل إلى أنقاض. ولم نكُ نعرف شيئاً عن المشانق والاستنطاقات والتعذيب، وعن الخنادق الرهيبة والأقبية حيث يُعدَم الآلاف ـ العجزة والشيوخ، النساء والأطفال الرُّضع. كنا نجهل كل شيء عن الأفران حيث الآلاف ـ بل الملايين، يُحرقون. لم نكُ نعرف شيئاً عن عربات الموت، الشباك المصنوعة من شعر الرجال، عن أغلفة الكتب المصنوعة من الجلد البشري. وكان ثمّة أشياء لا حصر لها لم نكُ نعرفها. كنا قد ترعرعنا على احترام الكرامة الإنسانية، على حب الصغار واعتبارهم غدنا ومستقبلنا. وكنا نجهل أيضاً أنّ حيوانات ضارية، لا تختلف في مظهرها عن البشر، تستطيع أن تقذف بطفل رضيع إلى النار. وما كنا نعرف كم ستطول تلك الحرب...

أجل، كان ثمة أشياء لا حصر لها لم نكُ نعرفها.

أيام الحرب

كان يورا إيزاييف أول من يربح إلى الميدان من دارنا. وشهدتُ انطلاقه. كان يسير مع زوجته، وتدرج خلفهما أمه، تمسح عبراتها آناً بمنديلها، وآونة بمئزرها. والتفت يورا، بعدما سار عدة خطوات، ورنا حواليه. لا ريب أن ثمة إنساناً في كل بيت يقف إلى النافذة المفتوحة يراقبه وهو يغادرنا، مثلما نفعل نحن تماماً. ولا ريب أن قلب يورا قد تألم لمرأى ذلك البيت بطابقيه ينتصب وسط الأدغال الخضر الكثيفة، وأولئك الناس الذين يقطنونه ـ الأعزاء على فؤاده... وبصر بزويا وبي وراء النافذة، فتبسَّم، ولوَّح بقبعته. صاح:

ـ حظاً سعيداً!

فردت زويا:

ـ حظاً سعيداً لك!

ظل يورا يلتفت إلى الخلف، فكأنه يطلب من ذاكرته الاحتفاظ بكل شيء يخلِّفه وراءه، بكل خط من خطوط البيت، كما تحتفظ بكل وجه لصديق ـ والنوافذ المفتوحة والأدغال...

ولم تمضِ فترة من الوقت حتى دُعي سيرجي نيكولين. فغادر البيت وحيداً ـ كانت زوجه تعمل في المصنع فلم تودِّعه. وما إن قطع سيرجي مسافة قصيرة حتى التفت، مثلما فعل يورا، وراح يرنو إلى البيت. كانوا أناساً مختلفين لا يشبهون بعضهم بعضاً البتة، غير أن عيونهم، في تلك اللحظة من الوداع، تبدو متشابهة كل التشابه: جميعهم يحتضنون على قدر الإمكان، وبنظرة واحدة مفعمة بالحب والقلق، جميع ما تقع عليه تلك العيون ليحملوه ذكرى معهم.

وتغيرت الحياة تماماً، فازدادت حدةً ومتاعباً. وطرأ تبدل كبير على موسكو. فقد ألصقت على النوافذ قطع من الورق، وصُفّحتْ نوافذُ المخازن بالخشب المصفَّح وحُصِّنت بأكياس الرمل، وبدت المنازل وكأنها تحملق فيك، مكتئبة حذرة.

وبدأنا نحفر خندقاً في ساحة بيتنا. وراح الناس ينتزعون الألواح الخشبية من مظلّاتهم لتحصين جدرانه. وأصرَّ أحد الجيران بصوت طغى على أصوات الجميع أنّه لا يجب ألا يُضنّ بشيءٍ على القضية العامة المشتركة، ولكنه نسي، لسببٍ ما، أن يفتح مظلته الخاصّة. وعوضاً عن ذلك، انقضَّ على طفلين صغيرين يلعبان في الساحة (كان والدهما في الجبهة ووالداتهما في المصنع)، وأمرهما بإحضار بعض الألواح الخشبية بسرعة. فانطلقت زويا إليه، وقالت بجلاء وهدوء:

أصغ إلى هذا! افتحْ مظلّتك وأعطنا الآن بعض الألواح الخشبية. وسترجع أمّهما من العمل ونحن نعمل، وتقوم هي بالعمل اللازم. من السهل جداً أن تصرخ في وجوه الأطفال.

ومرَّ بنا ابن أخي سلافا في الأيام الأولى من الحرب لتوديعنا. كان يرتدي حلّة طيّار، وعلى كمّيه شارة مصنوعة من الأجنحة. قال لنا:

ـ سأمضي إلى الميدان!

كان وجهه يفيض بالغبطة فكأنه في طريقه إلى نزهة وأضاف:

ـ تذكروني!

وتعانقنا بشدة، ثمّ غادرنا بعدما أمضى معنا نصف ساعة تقريباً.

هتفت زويا، وهي تراقبه يذهب:

ـ وا أسفاه، لو أنهم يقبلون الفتيات في الجيش!

وكان ثمة مرارة وتصميم زائد في تلك الكلمات حتى إن شورا نفسه قرر ألا يستسلم لعادته في إطلاق دعابة أو مباشرة نقاش في الموضوع الذي تتحدث زويا عنه.

وما كنا نذهب إلى أسرَّتنا حتى نسمع أخبار مكتب المعلومات السوفييتي. ولم تكُ تبعث على السرور في تلك الأسابيع الأولى. وكانت زويا تصغي إليها معقودة الحاجبين تكزّ على أسنانها، ثمّ تتركنا عند المذياع فجأة وتنطلق من دون أن تفوه بحرف. لكنها انفجرت مرة:

ـ أية تربة مقدسة يدوسون!

تلك كانت الصرخة الأولى التي سمعتها من فم زويا خلال تلك الأيام كلها.

الفراق

قُرع بابنا في عشية الأول من تموز، واستوضح صوت من خلفه:

ـ أأستطيع التحدث إلى شورا؟

ونهضت زويا عن الطاولة وفتحت الباب قليلاً.

صاحت في دهشة:

ـ بيتيا سيمونوف؟ ماذا تبغي من شورا؟

فأجاب بيتيا بغموض:

ـ نحن في حاجة إليه.

وظهر شورا في تلك اللحظة ـ وكان خارج الغرفة ـ وأومأ لرفيقه. ثمّ خرج وإياه من دون أن ينطق بكلمة. وتطلعنا من النافذة. كان ثمة عدد من الشبان ينتظرون، جميعهم رفاق صف واحد وأصدقاء أعزاء. وكان حوار سريع، يجري بأصوات خفيضة، ثمّ ساروا جميعاً كتلة واحدة.

حدثت زويا نفسها متفكرة:

ـ إلى المدرسة تُرى، أي سرّ يخبئون؟

رجع شورا متأخّراً تلك الليلة، يلوح وقوراً مغموراً مثلما كان عليه بيتيا في الصباح.

استفهمتْ زويا:

ـ ماذا حدث؟ وفيمَ هذا التكتُّم؟ ماذا يطلبون منك؟

فردَّ شورا بعزم:

ـ لا أملك حقَّ الإيضاح.

فهزَّتْ زويا كتفَيها.

هرولتْ في الصباح التالي إلى المدرسة قبل أن يعمّ النور، ثمّ رجعتْ مضطربة قلقة. وعالَنَتْني:

ـ سيغادرُنا الشبّان. وقد رفضوا أن يصرِّحوا إلى أين ولماذا؟ ولم يكلّمونا نحن الفتيات. وكم توسّلتُ أن يصحبوني معهم! فباستطاعتي إطلاق الرصاص. وأنا قوية. لكن عبثاً. قالوا إن الشبان وحدهم سيذهبون.

وتبيَّنت من وجه زويا وعينيها مبلغ الحماسة التي صبّتها في تلك التوسلات التي ذهبت هباءً.

وعاد شورا متأخراً وأعلن في نغمة عرَضيَّةٍ، فكأن ليس في الأمر شيء شاذ:

ـ احزمي لي غياراً من الثياب الداخلية، يا أماه، وهيئي لي طعاماً لتلك الرحلة. لكنني لا أريد شيئاً كثيراً.

ترى هل يعرف إلى أين سيذهب أم لا ـ هذا ما لم تقوَ على استنتاجه منه.

أعلن:

ـ إذا شرعتُ أجادل رئيسي من الآن، فأي صنف من الجنود سأكون؟

وابتعدت زويا في صمت.

لم يستغرق حزم الأمتعة وقتاً طويلاً. أحضرت زويا لشورا كعك البقسماط وحلوى وسجق، من أجل رحلة الطريق. ووضّبنا معاً بيّاضاته ولففنا كلّ شيء في حزمةٍ صغيرة. وبعد الظهر ذهبنا لرؤية شورا.

في حديقة تيميريازيف كان قد اجتمع حشدٌ من الأولاد من مدارس شتّى. في البداية كانوا جمعاً مختلطاً بعضه ببعض، ثمّ أخذوا ينقسمون تدريجياً إلى مجموعات وفقاً لمدارسهم. كانت الأمهات والأخوات يقفن في جانب حاملاتٍ الجُعب، والأمتعة، وحقائب الظهر، التي وضّبنها معاً بأحزمةٍ مثل الحقائب التي تحمل باليد. هؤلاء الذين على وشك المغادرة كانوا جميعهم طوال القامات، عريضي المناكب، لكنهم يظهرون الحبور على وجوههم الفتيّة وكأنّه شيءٌ عادي بالنسبة لهم أن يغادروا بيوتهم وعائلاتهم. وقد تسنّى لبعضهم إيجاد بعض الوقت ليغتسل في البحيرة، وتناول آخرون البوظة، وتبادلوا المزاح. ولكن بغير قصدٍ منهم كانوا يواظبون على إلقاء نظرات على الساعة بين حينٍ وآخر. أولئك الذين كانت أمهاتهم وأخواتهم لم يغادرن بعد، كانوا يُبدون شيئاً من عدم الارتياح: فها هم هناك ذاهبون في مهمّة كبيرة ـ واقفون مع أمهاتهم كما لو كانوا أطفالاً صغاراً! وإذ كنا نعلم أنّ وجودنا يمكن أن يحرج شورا، تنحّينا أنا وزويا جانباً، وجلسنا على مقعد في الظلال.

عند الساعة الرابعة تقريباً وصلت عربة ترام إلى الدوّار. وعلى عجل ودّع الصبيان قريباتهم وبجلبة أخذوا يركبون العربة. أولئك الذين ودّعوا أمهاتهم بالدموع، علت سيماءهم ملامحُ كامدة. لم أشأ أن أفسد الدقائق الأخيرة لنا معاً، فلم أبكِ ـ عانقت شورا فحسب، وشددتُ على يده بقوة. ورغم محاولته إخفاء مشاعره، كان بإمكاني ملاحظة الجيشان الذي في صدره.

ـ لا تنتظرونا حتى نقلع، اذهبا إلى البيت! اعتني بماما يا زويا!

بهذه الكلمات قفز شورا إلى العربة، ولوّح لنا عبر النافذة بإشارات كأنه يقول «لا تنتظرا، اذهبا إلى البيت!».

لكن قلبنا لم يطاوعنا أن نغادر بينما شورا ما يزال هناك. ومن مسافة رأينا عربة الترام تهتز ثمّ تهدر منطلقةً على الطريق. ولم نتزحزح حتى غاب عن أنظارنا آخر القطارات الراحلة.

الحديقة التي كانت للتوّ حاشدة وضاجّة باتتْ فجأةً خاوية وهادئة. تحت أشجار السنديان كانت هناك مقاعد، ولكن ما مِن أحدٍ يجلس عليها. البحيرة التي كانت متماوجة المياه، راقت وهدأت، ولم يبقَ أحدٌ يغتسل فيها. لا أصوات، لا ضحكات، ولا دبيب خطوات سريعة. هدوء... هدوءٌ تامّ.

مشينا ببطء على طول الجادّة. بعض أشعة الشمس شقّت لها سبيلاً عبر الأوراق الكثيفة من فوق رؤوسنا. وكلّ منا على حدة، وجدت طريقها إلى مقعدٍ ما بجوار الحوض، فقعدت عليه.

ـ يا للجمال!

قالت زويا فجأة، وتابعتْ:

ـ أتعلمين. لقد اعتاد شورا أن يأتي إلى هنا لكي يرسم. لقد رسم ذلك الجسر الصغير هناك.

كانت تخاطبني، وتبدو أنها، في الوقت نفسه، تتحدّث إلى نفسها ـ بهدوء وبطءٍ وتأمُّل.

ـ إنّه حوضٌ واسع، لكن شورا اعتاد أن يجتازه سباحةً عدة مرات.

تذكّرتْ بصوتٍ عالٍ، وأضافت:

ـ هل تعلمين ماذا حدث مرة؟ كان ذلك منذ زمان، وكان شورا في الثانية عشرة من عمره فحسب. كالعادة أخذ يغتسل في الينبوع قبل أيّ أحدٍ آخر. كانت المياه باردةً، وفجأة أصابه تشنجٌ في ساقه، وبمشقة وصل إلى الضفة. سبح مستخدماً ساقاً واحدة فقط، كانت ساقه الثانية متخدرة تماماً. وبالكاد تدبّر أمره. توسَّلَ إليَّ كثيراً كي لا أخبرك عن ذلك. لم أخبرك حينها، والآن أخبرك.

فسألتُ:

ـ ومن المؤكد أنّه فعل ذلك في اليوم التالي؟

ـ بكل تأكيد. فقد اعتاد السباحة صباحاً ومساءً، أكان الطقس ماطراً أم صاحياً، حتى يهلّ الشتاء. وهنالك، قريباً من الأدغال، توجد ثغرة في الجليد شتاءً. وكنا نصطاد السمك منها، أتذكرين؟ كنا نستعمل في البدء علبة من صفيح، ثمّ استعملنا شبكة. أتذكرين كيف دعوناكِ لتناول السمك المقلي؟

فقلتُ في شبه جواب، وأنا أربّت بلطف على يدها الملفوحة بالشمس:

ـ أيتها الفتاة الطيبة!

وبغتةً، انطوت أصابعها الرقيقة تحت راحة يدي حتى أصبحت قبضة. ووثبتْ زويا على قدميها، فأدركتُ، ماذا يقرض فؤادها طيلة الوقت.

ـ طَيّبة؟ أية طِيْبةٍ فيَّ؟ أية طِيْبةٍ فيَّ حينما أتخلَّف وراءً؟ لقد ذهب الصبيان إلى القتال. فكيف أبقى مكتوفة الأيدي الآن؟!

«كلماتي موجَّهة إليكم، يا رفاقي الأعزاء!»

ـ مامي، هيا، أفيقي!

فتحتُ عينيَّ، كانت زويا واقفة أمامي، عارية القدمين، ومنشفتها على كتفها.

قالت بعجلة، رداً على نظرتي المرتجفة:

ـ كلا، كلا، ليس ثمة أذية. إن الرفيق ستالين سيخطب. في الراديو. هُس!...

وخشخش المذياع قليلاً. ثمّ كان سكون. ومن ثمّ، على غير انتظار...

ـ أيها الرفاق! أيها المواطنون! أيها الأخوة والأخوات! يا رجال جيشنا وأسطولنا! كلماتي موجَّهة إليكم، يا رفاقي الأعزاء...!

وأمسكنا أنفسَنا، ونسينا كلَّ ما يحيط بنا. وقفت زويا متوترة متخشبة، وقد ضمَّت يديها تحدق بثبات في المذياع، فكأنها تستطيع، خلف القرص، رؤية ذلك الذي يطلق تلك الكلمات المفعمة بالحزن المكبوح، بالحب والإيمان، المليئة بالقوة العارمة والسخط الشديد:

ـ... إن بلادنا تخوض قتال حياة أو موت مع أشدّ أعدائها مكراً ومرارة ـ الفاشية الألمانية... إن العدو قاس حقود...

وتحدَّث قائدنا عن أهداف العدو، وكيف تريد الفاشية الألمانية احتلال أراضينا، وثمار عملنا، وأن تعيد سلطة الملَّاكين، وأن تسترقَّ شعوب الاتحاد السوفييتي الحرّة «وتُجَرْمِنَها»...

ـ... وهكذا فالخاتمة خاتمة حياة أو موت بالنسبة إلى الدولة السوفييتية، حياة أو موت بالنسبة إلى شعوب الاتحاد السوفييتي، فإما أن تكون شعوب الاتحاد السوفييتي حرة أو تقع في العبودية. يجب أن يفهم الشعب السوفييتي هذا... يجب أن نعيد تنظيم عملنا على

الفور على أساس الحرب، وينبغي أن يخضع كل شيء لمصالح الميدان... الجيش الأحمر، والأسطول الأحمر، وجميع مواطني الاتحاد السوفييتي، يتوجَّب عليهم جميعاً أن يدافعوا عن كلّ شبر من تربتنا السوفييتية، وأن يقاتلوا حتى آخر قطرة من الدماء ذوداً عن مدننا وقرانا...

وقال قائدنا بوجوب تشكيل فرق الأنصار في المقاطعات التي يحتلها العدو، ووجوب حرق أرضنا ونسفها تحت أقدام الأعداء.

وراح كلامه الهادئ الرصين ينصبُّ في قلوبنا رأساً. كان يرنُّ في آذاننا بإيمان عظيم، وفي آذان جميع الناس، وكل مواطن سوفييتي! وأخبرنا أن تلك الحرب ليست عادية بين جيشين، وذكرنا بأنه يجب ألّا ندمّر الخطر الذي يهدّد وطنَنا فحسب، بل أن نساعد سائر شعوب أوروبا الذين يرزحون تحت نير الفاشية الألمانية؟

ـ... جميع قوى الشعب لدحر العدوّ! إلى الأمام حتى النصر:

وسكت المذياع. لكننا لم نتحرك، ولم نفهْ بحرف، فكأنَّا نخاف أن نريق حتى قطرة واحدة من ذلك الشعور العظيم الطاغي على قلوبنا في تلك اللحظة.

إنَّ الرجل الذي اعتدنا الإيمان به على أنّه كياننا نفسه، ضميرنا ووجداننا، قد خاطبنا قبل برهة. هو المعلم، والقائد، والصديق، وقد اعتمدنا عليه دائماً وفي كل شيء. وأدركنا أنه تحدث عن كل أمرٍ هام، وأنه توجَّه رأساً إلى كلّ فردٍ منا. وقد ساعدَنا على أن نفهم ونشعر تماماً بذلك الخطر العظيم الذي يهدّد وطننا، وكيف يجب أن نعامله. ساعدَنا على أن نحسَّ قوَّة شعبٍ متَّحد يحبّ الحرية ويعشقُها.

قلتُ:

ـ إنّي لأتساءل إنْ سمعَه شورا...

فنبرت زويا واثقة:

ـ لقد سمعه الجميع، في طول البلاد وعرضها.

وأعادت في صوت هامس وبتأثّر عميق:

ـ كلماتي موجَّهةٌ إليكم، يا رفاقي الأعزاء!

القنابل الأولى

كنت جالسة وزويا إلى الطاولة، يضطجع أمامنا غطاءٌ أخضرُ خشن، نصنع منه حقائب أمتعة للميدان. وكنّا نصنع أيضاً باقات للجنود. قد يكون ذلك عملاً سهلاً، وقد لا يكون على جانب كبير من الأهمية، لكنه للميدان وساحات القتال. وتلك الأربطة لجندي، لواحدٍ من الذين يحموننا من هجوم العدو. وإن حقيبة الأمتعة لجندي آخر أيضاً... وسيضع أمتعته فيها، وستُحمل تلك الحقيبة باليد، وستكون لها أهمية بالغة أثناء السير.

عملنا في صمت، من دون أن ننطق بكلمة. وبين حين وحين، كنت أضع ما بيدي وأشدّ ظهري ـ فهو يؤلمني نوعاً ما، وأرنو إلى زويا. إنَّ يديها الضيقتَين الملفوحتَين بالشمس لا تعرفان التعب أو الملل. إنهما تلتهمان العمل التهاماً. إذا كانت معرفتها بأنها تصنع حصتها من العمل لم تحررها تماماً من الأفكار المعذبة، فقد أعانتها على الأقل في اكتساب شيء من التوازن الباطن. ولقد تغيرت حتى في مظهرها الخارجي، فعيناها لم تعودا سوداوين حزينتين مثلهما قبلاً، وثمة ابتسامة تتلاعب على شفتيها من وقت لآخر.

وذات يوم، ونحن جلوس إلى خياطتنا، فُتح الباب ودلف شورا منه. ولَج الغرفة يغمره هدوء عظيم، فكأنه عائدٌ لتوّه من المدرسة، وطوَّح الكيس عن كتفه، ثمّ قال «مرحباً».

عرفنا سريعاً أنّه كان في الجبهة، ورغم أنه رجع الآن من رحلته، لكنه لم يبُحْ لنا بشيء، مثله يوم غادرنا.

نبر أخيراً، حين حاولنا توجيه الأسئلة إليه:

ـ ليس ثمة شيء يستدعي الحديث في الحقيقة. لقد قمنا بعملٍ كثير، وهذا كل شيء.

وضيَّق فرجة عينيه بخبث، وأضاف:

ـ رجعتُ لأحتفل بعيد مولدي في البيت. آمل ألا تكوني نسيت السابع والعشرين من حزيران؟ سيكون عمري السادسة عشرة، بعد كل شيء.

ولما اغتسل وجلس إلى المائدة، توجَّه إلى زويا قائلاً:

ـ أعرف ماذا في مستطاعنا أن نعمل. فلنذهبْ إلى معامل «بورتيس» كخرّاطين ما رأيك؟

ووضعت زويا ما في يدها، ورمقت أخاها. ثمّ تناولت عملها من جديد، وقالت:

ـ حسناً! سيكون ذلك عملاً حقيقياً.

رجع شورا في الثاني والعشرين من حزيران، وفي تلك العشية نجح العدو في الإغارة على موسكو للمرة الأولى. وأسقط الألمانيون القنابل للمرة الأولى على العاصمة. احتفظ شورا بهدوئه، وتصرَّف بثقة واطمئنان، وتأكد أن جميع النساء والأطفال نزلوا إلى الملجأ، تشكَّى قائلاً:

ـ سوى أنني لم أستطع أن أحمل أمّي وأختي على الذهاب إلى هناك.

أمّا هو فقد بقي في الشارع طوال الغارة. ولم تبرح زويا جانبه برهة واحدة. لم ننمْ تلك الليلة، وفي الصباح جاءتنا الأنباء أنَّ قنبلةً أصابت بناء المدرسة.

صاح شورا وزويا في صوت واحد:

ـ المدرسة رقم 201؟

وقبل أن أتمكن من الكلام، وثبا يهرولان صوب المدرسة. ولم أقوَ، أنا نفسي، على البقاء في البيت. وسرنا مسرعين، في صمتٍ وسكينة. وما كنت أدرك الطفلين إلّا بجُهد. ولما وقعت أنظارنا على بناء المدرسة صعَّدنا تنهيدة فرج. إنه ينتصب بكامله من دون أن يصيبه أيُّ أذىً.

ولمّا اقتربنا منه، شاهدْنا أن القنبلة سقطت على جانب الشارع، وأنّ الانفجار قد انتزع جميع النوافذ: فثمّة زجاجٌ متناثرٌ على أرض المكان كله... كان يلتمع ببرود في كل مكان وينطحن تحت أقدامنا. كان شيء من العجز يتصاعد من ذلك البناء الضخم: كأن رجلاً كبيراً قوياً قد أصابه العمى بغتة. وتوقفنا، رغماً عن إرادتنا، ثمّ رقبنا الدرج وسرنا على طول الممرات التي رأيتها آخر مرة منذ شهر واحد، عشية حفلة المدرسة الراقصة. ثمّ عجَّت بصدى الموسيقى والضحك: فقد انتشر الفتيان والغبطة في كل مكان، أما الآن فالأبواب قد انتُزعت من مفصَّلاتها، وتحت أقدامنا تبعثر الزجاج والحصى...

وصادفنا جماعة من الصفوف العليا، فأسرع شورا برفقتهم ـ إلى القبو، على ما أعتقد. وتبعتُ زويا بحركة آلية إلى باب المكتبة. ثمة رفوف فارغة تصطف على طول الجدران، وقد أطار الانفجار الكتب مثل مخلب كبير شرير، وبعثرها بوحشية على الأرض والطاولات. كانت الكتب متناثرة في كل زاوية. وكان المرء يستطيع أن يتلقط في قلب ذلك التيه الغلاف الأصفر لمؤلفات بوشكين، طبعة الأكاديمية، والغلافات الزرق لمجموعة أعمال تشيخوف... وقد دست على مُجلَّد من تورجنيف، وانحنيت لألتقطه فلاحظت إلى جانبي، تحت طبقة من الحصى والتراب، مجلَّداً من شيللر، وكان ثمة صورة لدون كيشوت، على ما يبدو، ترمقني بدهشة من بين صفحاتٍ مفتوحةٍ لكتاب ضخم.

وهنالك، على الأرض، بين الحطام، جلست امرأةٌ عجوز. كانت تبكي بمرارة. وانحنت عليها.

قالت، وقد اصفرَّت شفتاها:

ـ انهضي، يا ماريا جريجورييفنا، لا تبكي!

إنَّ زويا قد أخبرتني مراراً، حين ترجع إلى البيت بكتابٍ مهمٍ جديد، عن أمينة المكتبة. كانت تلك المرأة تعرف الكتب وتحبُّها، وقد نذرت حياتها بكاملها للكتب. وهي الآن جالسة على الأرض بين المجلدات الممزقة المبعثرة المجعدة، تلك الكتب التي اعتادت أن تحملها في يديها بعناية وودّ.

أعادت زويا بإصرار، وهي تساعد ماريا جريجورييفنا على النهوض:

ـ هيا بنا نلتقطها، ونعيد كل شيء إلى مكانه.

وانحنيت ثانية، وشرعتُ ألتقط الكتب.

تناهى إليَّ بغتة:

ـ ماما، انظري!

فأدرت رأسي في دهشة، وتوجهت ماريا جريجورييفنا الباكية، وهي تخطو بعناية بين الكتب، صوبنا... لقد رنَّ صوت زويا بشكل غريب وبنغمة ظافرة تقريباً. كانت تحمل مجلداً مفتوحاً من بوشكين.

قالت زويا بالنغمة عينها، المفعمة غرابة وفرحاً وظفراً:

ـ انظرا!

ومسحت الغبار عن الأسطر بحركة حادّة من يدها، فقرأتُ:

«أنتِ، أيتها الشمس المقدَّسة، التَهبي

مثلما يلتهب ذلك المصباح ويذبل

في نور الفجر الطاهر.

هكذا تفسد الحكمة الكاذبة

إذ جُرِّبت في شمس الفكر،

وهكذا نرحِّب بالشمس، فيما الظلمة تتلاشى!»

«ماذا فعلتم في سبيل الميدان؟»

أعلن شورا في السابع والشعرين من حزيران، يوم عيد مولده السادس عشر:

ـ حسناً، يا أماه، أنت اليوم أمّ خراطين!

إن الطفلين الآن ينهضان قبيل انبلاج الفجر، ويعودان من العمل متأخّرين لكنهما لا يشكوان التعب مطلقاً. وما كان الطفلان يلجآن إلى النوم فور رجوعهما من نوبة الليل، بل يعملان قليلاً، فأجدهما عند عودتي من عملي غارقين في النوم، والحجرة نظيفة مرتبة.

وتتابعت الغارات الجوية على موسكو، وكان يتناهى إلينا في الأمسيات صوت المذيع الهادئ يقول: «انتبهوا، إنذار غارة جوية!».

وكان يتبع تلك الكلمات زعيقُ صفارات، وزمجرة مهددة لصفارات قاطرة.

والتجأت زويا وشورا أكثر من مرة إلى الملجأ. وكان زملاؤهما ـ جليب إيرموشكين، وفانيا سكورودموموف، وفانياسيروف، وثلاثتهم فتيان أقوياء، يقدمون إلينا، ويخرجون سوية للحراسة حوالي البيت أو في الطابق الثاني. وكان الأطفال والكبار ينهمكون في الأحداث الجديدة الراعبة التي دخلت حياتهم. فلا يفكرون في حدثٍ آخر.

وفي الخريف، انصرف تلاميذ الصفوف العليا، وزويا بينهم، إلى أعمال الميدان: يجب أن تُحضر البطاطا في مزرعة الدولة بسرعة، لينقذ القمح من الصقيع.

كان الصقيع قد هجم، وكانت السماء ثلجتنا مراراً، وكنت قلقة بشأن زويا. إلا أنها سُرّت كثيراً لرحيلها. ولم تحمل معها سوى غيار داخلي، وبعض الدفاتر البيض، والكتب.

استلمتُ بعد عدة أيام رسالة منها، ثمّ تلتها أخرى.

«نحن نساعد في الحصاد. والمقدار اليومي مائة كيلو غرام. وقد جمعت في الثاني من تشرين الأول 80 كيلو غراماً. هذا ليس بكثير، لسوف أحاول جمع المائة».

«كيف حالك؟ أنا أفكر فيك طوال الوقت، وإني لقلقة. وأتوق إلى البيت، وسوف أعود عما قريب ـ حينما ننتهي من إحضار البطاطا».

«أمي، اغفري لي، فالعمل وسخ وصعب تماماً ـ وقد مزقت خفيَّ. لكن، أرجوك لا تقلقي. فسأرجع آمنة».

«أظل أتذكرك وأفكر: كلا، أنا لا أشبهك البتة، فليس لي صبرك وحِلمك! مع حبي... زويا».

تأمّلتُ أفكّرُ كثيراً وأنا أقرأ الرسالة، وخاصة الأسطر الأخيرة منها. ماذا يختبئ خلفها؟ فيمَ تعنّف زويا نفسها فجأة على نفاد صبرها؟ لمن المحتمل أن ثمة شيئاً في القضية أكثر من هذا.

ولما قرأ شورا الرسالة تلك الليلة، قال عن قصد:

ـ أرى ذلك، فهي لم تأتلف مع الآخرين، أنت تعرفين، فهي قد قالت في أغلب الأحيان إن صبرك وحلمك ينقصانها، ثمّ تسامحك تجاه الآخرين. واعتادت أن تقول: ينبغي أن تكون قادراً على توبيخ الناس، ويجب ألا تغضب منهم سريعاً، وأنا لا أحاول التشبه بذلك».

وكتبت زويا في إحدى بطاقات البريد التي أرسلتها:

«أنا صديقة نينا، التي حدثتك عنها».

ففكرتُ. كانت فيرا سيرجييفنا على حق إذن!

وذات عشية من أخريات شهر تشرين الأول، قفلتُ إلى البيت أبكر من المعتاد قليلاً، وفتحت الباب، فخفق قلبي بقوة: إن زويا وشورا جالسان إلى الطاولة. إن الطفلين قد

أضحيا برفقتي أخيراً، ونحن سويّاً مع بعضنا من جديد!

وقفزت زويا واقفة، وركضت إلى الباب وطرحت ذراعيها حولي.

قال شورا، وكأنه قرأ أفكاري:

ـ ها نحن معاً من جديد.

وجلست عائلتنا إلى الطاولة، نشرب الشاي، وروت لنا زويا حوادث مزرعة الدولة. وسردت علينا ما يأتي، من غير أن تنتظر مني سؤالاً عن الأسطر الأخيرة في رسالتها:

ـ كان العمل شاقاً: مطر، وطين، وخفَّاك يلصقان بالأرض، وقدماك تتقرحان. وتطلعت، فرأيت ثلاثة من الفتيان يعملون أسرع مني. كانوا ينطلقون في عملهم بسرعة بينا أنا أحفر في مكان واحد طويلاً. ثمّ عزمت على اكتشاف سبب ذلك. فابتعدت ورحت أعمل في قطعة خاصة بي. وغضبوا، ونعتوني بالأنانية ورددت عليهم: «لربما كنت أنانية، لكنكم لا تعملون جيداً». وإليك ماذا كان يحدث: كانوا يعملون بسرعة لأنهم يجمعون البطاطا من السطح، في سبيل السرعة، ويتركون العديد منها في باطن الأرض. لكن تلك التي في باطن الأرض هي الأفضل لأنها الأكبر. وكنتُ أنا أحفر بعمق، حتى أخرج كل شيء، ولهذا السبب أخبرتهم أنهم لا يعملون جيداً. ثمّ قالوا لي: «لِمَ لَمْ تقولي ذلك على الفور، لماذا انفصلت إذن؟». فأجبت: «أردتُ اختبار نفسي». فقالوا: «كان يجب أن تثقي بنا وتخبرينا فوراً...». فقالت نينا: «لقد أخطأت التصرّف». وعلى أية حال، كان ثمَّة كثيرٌ من الصخب والجدال.

وهزت زويا رأسها في ارتباك، وأنهت حديثها قائلة بلطف:

ـ تعرفين، يا أمي، أني فهمتُ عند ذاك أن اللباقة تنقصني رغم كوني على حق. كان عليَّ أن أناقش الفتيان أولاً، وأن أشرح لهم الأمور. ولربما ما كنت أنفصل عنهم إذن.

ورماني شورا بنظرة عارفة، فقرأت في نظرته ما يلي:

ـ لقد أخبرتك بذلك!

* * *

كانت موسكو تزداد توتراً واحتراساً يوماً بعد يوم. وبدأت البيوت تتستَّر. وراحت فصائل نظامية من الفرسان تتجوَّل في الشوارع، ووجوههم تستحق النظر إليها: شفاه مطبقة بإحكام، ونظرة مستقيمة ثابتة تحت جباه متغضنة. وكان عناد راسخ وغضب ثائر مرتسمين على تلك الوجوه.

وكانت سيارات الإسعاف تجوب الشوارع، والمصفحات تقرقع وتدبّ.

وفي عتمة الأمسيات القاتمة، كان على المرء أن يتحسَّس طريقه بعناية وسرعة في الوقت ذاته، إما بواسطة النور المتساقط من إحدى النوافذ. أو من مصباح الشارع، أو من ضوء سيارة سريعة تمرُّ. وكان الناس الآخرون الذين تعجز عن رؤية وجوههم يسيرون بتلك الخطوات السريعة الحذرة نفسها. ثمّ تأتي إنذارات الغارات الجوية، ورجال الإطفاء في الساحات، فيما السماء تتمزق بالانفجارات وتستنير بألسنة من لهيب قرمزي لنارٍ بعيدة.

لم يكُ ذلك وقتاً هيّناً: فالعدو يقترب من موسكو، ويكاد يطبق عليها.

كنت وزويا ذات يوم نسير على طول الشارع، فلاحظنا على جدار أحد البيوت لوحة كبيرة يرنو إلينا منها بصرامة وجهُ جنديٍّ قاسٍ. كانت العينان الصارمتان الخارقتان تنظران باستقامة إلينا، ورنَّت الكلمات المطبوعة تحتها في أذننا فكأنها تتحدَّث بصوتٍ عالٍ لجوج! «ماذا فعلتم في سبيل الميدان؟».

وابتعدت زويا، وقالت بحدّة:

ـ لا أستطيع المرور بتلك اللوحة الهادئة.

ـ ما تزالين صغيرة بعد، وقد ذهبت إلى أعمال الميدان ـ وذلك عملٌ في مصلحة البلاد، في سبيل الجيش.

فأجابت زويا بعناد:

ـ ذلك لا يكفي.

وتابعنا سيرنا صامتين عدة دقائق، ونبرت زويا فجأة بصوت هادئ مختلف، بسرور وبلهجة لا رجوع عنها:

ـ أنا محظوظة. فجميع ما أريد تحقق.

أردت أن أسألها: «فيمَ تفكّرين؟»، لكني لم أفعل، أما قلبي فكان يرزح بالتشاؤم.

وداعاً زويا

قالت زويا:

ـ مامي، لقد قرَّ عزمي أخيراً، سأتطوع في دورةٍ للمرِّضات.

ـ وماذا عن المعمل؟

ـ سيسمحون لي بالذهاب، ذلك في سبيل الميدان، أليس كذلك؟

وحصلت زويا، في فترة يومين، على جميع الأوراق الضرورية. إنها تلوح الآن منتعشة، مغتبطة، كعادتها أبداً حينما ترى طريقها تمتد أمامها بكل وضوح.

وتابعنا، في تلك الأثناء، خياطة الحقائب، والقفازات، والخوذ. وظلت، خلال الغارات الجوية تراقب الأمور على السطح أو في الطابق العلوي، وتحسد شورا الذي أطفأ حتى ذلك الحين عدة قنابل محرقة في المعمل.

غادرت زويا الدار باكراً في اليوم السابق ليوم ذهابها إلى مدرسة التمريض لأول مرة، ولم ترجع حتى ساعة متأخرة في العشية. وقد تناولتُ وشورا العشاءَ من دونها.

كان ولدي يشتغل في نوبة الليل هذه الأيام، وبينا هو يستعد الآن لمغادرتنا راح يروي لي شيئاً، لكنني لم أسمع إلّا بصعوبة. ما كنت أستطيع تحرير نفسي من ذلك القلق المخوف الذي تملّكني فجأة.

قال شورا، معنِّفاً:

أمِّي، أنت لا تسمعين لي!

ـ أنا آسفة، يا شورا، ذلك لأني لا أفهم أين ذهبت زويا.

وغادر الدار، كنت متأكدة أن النوافذ غمرتها الظُّلمة، فجلست إلى الطاولة، ولما كنت عاجزة عن البدء في العمل، فقد قبعتُ أنتظر.

ودخلت زويا متهيّجة، ووجنتاها تحترقان، أسرعت إليَّ واحتضنتني ونبرت، وهي تحملق في عينيّ:

ـ ماما، إنه سرٌّ عظيم. سأذهب خلف خطوط العدو، لا تخبري أحداً، حتى ولا شورا. قولي إني ذهبتُ لرؤية جدّي في الريف.

وحاربتُ دموعي في صمت. إنما ينبغي أن أقول شيئاً. كانت زويا تحدّق في وجهي بعينين مشعّتين مسرورتين مترقّبتين. قلتُ أخيراً:

ـ وهل تملكين القدرة على ذلك؟ أنت فتاة، أتعرفين هذا؟

وتراجعتْ حتى المكتبة، وتابعتْ من هنالك ترمقني بعينين ثابتتين حاذقتين. وانفجرتُ رغماً عني:

ـ ولِمَ تكونين أنت؟ وإذا دعوك الآن...

وتقدَّمت زويا مرة ثانية وتناولت يدي بين يديها. قالت:

ـ أصغي، يا أمّاه، وأنا متأكدة أنك كنت تفعلين الشيء ذاته لو كنت تتمتعين بصحّتك مثلي. لا أستطيع البقاء هاهُنا، لا أستطيع!

ثمّ أضافت بهدوء:

ـ لقد أخبرْتِني بنفسِكِ أنّه يتوجّب على الإنسان أن يكون شريفاً مناضلاً في الحياة. ماذا بمقدوري أن أفعل الآن والعدو على الأبواب! فإذا دخلوا هاهُنا، فلن يمكنني أن أعيش... أنت تعرفينني. ليس ثمة طريق أخرى أمامي.

وكنتُ بسبيل أن أقول شيئاً ما ردّاً عليها، إلا أنها تابعت حديثها بطريقة بسيطة واقعية:

ـ سأغادر في بحر يومين. أرجوك، هيِّئي لي خُرجاً عسكرياً وكيساً من التي نصنعها، وكذلك غياراً داخلياً، ومنشفة، وصابونة، وفرشاة أسنان، وقلماً وورقاً. هذا كل شيء. وأستطيع تهيئة الباقي بنفسي.

ثمّ مضت إلى فراشها، وخُلِّفْتُ جالسةً إلى الطاولة، عارفة أنني سأعجز عن النوم أو القراءة. إنها لا تستطيع أن تتراجع الآن ـ إن في مقدوري رؤية هذا. لكن، ماذا سينتج عن ذلك كله؟ إنها فتاة صغيرة بعد...

لم أكُ أفتش عن الكلمات وقتما أحدّث صغيريَّ، فنحن نفهم بعضنا بسرعة. أما الآن، فأحسُّ نفسي أمام جدار أعجز عن تسلُّقه. أوه، لو كان أناتولي بتروفيتش حيّاً ما يزال...!

لكن لا، سيضيع كل ما أقول عبثاً. وليس من يستطيع ـ لا أنا ولا والدها، لو كان حياً ـ أن يمنع زويا عن ذلك.

وفي اليوم التالي، وللمرة الأولى في بحر أسبوع، اشتغل شورا في نوبة الصباح. رجع منهوكاً حزيناً، وتناول الطعام كيفما اتفق من دون شهيّة. سأل:

ـ هل عزمت زويا حقاً على الانطلاق إلى غابات الرجّاج؟

فأجبت باقتضاب:

ـ أجل.

فجَهَر شورا متفكِّراً:

ـ حسناً، لمن الأفضل أن تذهب. فليس في موسكو مكانٌ لفتيات في مثل عمرها...

كان صوتُه يرنُّ متردِّداً.

أضاف بعد صمت قصير:

ـ لربما تذهبين، أنت أيضاً، ستجدين المكان أهدأ هنالك.

فهززتُ رأسي صامتة. وتنهَّد شورا، ونهض عن المائدة، وأعلن بغتةً:

ـ أظنني سأمضي إلى الفراش. فأنا مضعضَع القوى اليوم.

وغطَّيت الضوء بقطعةٍ من جريدة. اضطجع شورا فترةً من الوقت في سكون، مفتوح العينين، يلوح وكأنما يفكّر بقسوة في أمرٍ من الأمور، ثمّ استدار إلى الجدار وغرق في النوم.

* * *

رجعت زويا متأخرة. قالت بهدوء:

ـ عرفتُ أنك ستظلين يقظة.

وأضافت هامسة، فكأنها تريد تخفيف قوة الضربة، وهي تربّت على يدي:

ـ سأنطلق غداً.

لم تُضِعْ برهةً من الوقت، بل أسرعتْ تحضِّر الأشياء التي ستحملها معها، وحزمتها في حقيبتها. ساعدتُها في صمت. كان ثمة شيء عادي بسيط في تلك الهيئة، وفي كيف يحاول المرء أن يرتب كل حاجة من الحاجات كي تحتلّ أضيق مكان ممكن، وكيف يطبق على بقعة حرة كي يدسّ فيها لوحاً من الصابون أو كعكة أو زوجاً من الأحذية. ومع ذلك، فتلك كانت اللحظات الأخيرة التي نقضيها مع بعضنا. أسنفترق زمناً مديداً؟ أية أخطار، ومشقات، هائلة حتى بالنسبة إلى رجل، أو حتى بالنسبة إلى جندي، تنتظر زويا؟ لم أقوَ على الكلام، وعرفت أن ليس لي الحق في البكاء، سوى أن كتلة مُرّة، ظلت تكبر وتكبر في حلقي.

قالت زويا:

ـ ها نحن ذي. لَيبدو أنّ هذا كل شيء.

ثمّ فتحت دُرْجَها، وتناولتْ مذكّراتها، وأرادتْ وضعَها في حقيبتها أيضاً.

قلتُ في جهد:

ـ لن أقرأها.

ـ أعتقد أنك على صواب.

ومشتْ زويا إلى الفرن وطوَّحت بالدفتر في النار قبل أن أستطيع منعها. ثمّ جلست هنالك على الدكة الواطئة وقالت في صوت صغير، مثل طفل صغير:

ـ تعالي واجلسي معي.

جلستُ إلى جانبها، ورحنا نحملق في اللهيب الراقص المرح مثلما كنا نفعل في غابر السنين. لكنني كنتُ أسرد، ذلك الوقت، قصة ما، وكانت زويا وشورا، وقد صبغت الحرارة وجهيهما بالحمرة، يرهفان السمع. أما الآن، فقد كنتُ صامتة خرساء. وأدركت أن لن تكون لي القوة الكافية لأنطق بحرف.

واستدارت زويا، ورَنَتْ حيث كان شورا يبخبخ في نومه، ثمّ وضعت يدي في يديها برقة، وبدأت تقول في صوت هادئ بحيث لم أسمعها إلّا بصعوبة:

ـ سأروي لك كيف حدث ذلك... لكن يجب ألّا تخبري أحداً، حتى ولا شورا. أرسلتُ طلب انتساب إلى لجنة المنطقة للكومسومول، قائلة إني أريد الذهاب إلى الميدان. أتدرين كم عدد الطلبات التي وصلتهم هنالك؟ آلاف، وحين استُدعيت للجواب قالوا لي: «اذهبي إلى لجنة موسكو للكومسومول، إلى أمانة السرّ».

«ذهبتُ إلى هناك، ولم أكد أفتح الباب حتى تطلَّع إليَّ السكرتير بشوق، بشوق فائض. ثمّ تحادثنا، وظل يرنو إلى يديَّ. جعلت في البدء أداعب أحد أزراري، ثمّ وضعت يدي على ركبتي ومنعتهما عن الحركة، حتى لا يحسبني عصبية. وسألني أول الأمر عن تاريخ حياتي: من أين أنا؟ ومَن أهلي؟ وأين اشتغلت؟ وأيّة مقاطعات أعرف؟ وأية لغات؟ فقلت: الألمانية. ثمّ استوضحني عن ساقي، وقلبي، وأعصابي؟ ثمّ راح يوجِّه إليَّ أسئلة عن الطوبوغرافيا. وسألني عن سمت السموت، وكيف أهتدي إلى طريقي بمساعدته، وكيف أعيِّن مركز، بواسطة النجوم. أجبتُ على كل شيء.

ثمّ استفسر: «أتعرفين البندقية؟». «أجل». «هل تمرَّنت على الرماية؟». «أجل». «أتستطيعين السباحة؟». «نعم». «ألا تخافين الغطس من مكان مرتفع؟». «كلا، لا أخاف ذلك». «ألا تخافين القفز من برج المظلات؟». «كلا». «هل تتمتعين بإرادة قوية؟». فأجبتُ إن أعصابي قوية وإني صبورة. فقال: «حسناً ثمّة حرب تدور، ونحن في حاجة إلى الناس... فافرضي أننا أرسلناكِ إلى الجبهة؟». «أرجوكَ أنْ تفعل!». فقال: «لكن الأمر يختلف عن الجلوس في المكتب والحديث... وبالمناسبة، أين كنت تجلسين أثناء الغارات الجوية؟». «على السطح. فلستُ بخائفة من الإنذارات. ولست بخائفة من القنابل. وفي الواقع، لست بخائفة من شيء». وحينذاك قال: «حسناً، اخرجي إلى الممشى وانتظري هناك، سأتحدث مع أحد الرفاق، ثمّ تذهبين إلى توشينو لتقومي بالقفز من الطائرة».

«وخرجت إلى الممشى. ورحت أسير أمعن التفكير في تلك القفزة ـ يتحتم ألّا أخشاها. ثمّ ناداني من جديد: «أمستعدّة أنت؟». ثمّ راح يخيفني (وضغطت زويا بقوة على يدي). قال إن الأمور ستكون قاسية... وقد يحدث كل شيء... ثمّ قال: «حسناً، اذهبي وفكري في الأمر، ثمّ ارجعي بعد يومين». وأدركتُ أنه ذكر قصة الوثب بالمظلة ليمتحنَني.

رجعتُ بعد يومين، فقال: «قرَّرتُ ألّا أَقبلَك». فكدت أنفجر باكية، ورحت أصيح فجأة: «ماذا تعني بعدم قبولي؟ ولمَ لا؟».

ثمّ ابتسم، وقال: «اجلسي. ستذهبين خلف خطوط العدو». وثبت لديَّ أن ذلك امتحانٌ أيضاً. وتأكّد لديَّ أنّه لو لاحظ أني أطلقت تنهيدة خشية أو ما شابه، فسوف يرفضني تماماً. وهذا كان كل شيء. لقد انتهى امتحاني الأول...

وقرقع الخشب جذلان في الفرن. وتلألأت أنوار اللهيب بلطف على وجه زويا. ثمة نور آخر في الغرفة. وقبعنا زمناً طويلاً نحدق في النار صامتين.

قالت زويا متأمّلة آخر الأمر:

ـ إنّي لآسفُ أنّ العم سيرجي ليس في موسكو. سيكون عوناً لك في وقت عصيب كهذا الوقت، ولو بحكمته ونصائحه...

ثمّ أغلقت زويا الفرن، ومهَّدت سريرها، واستلقت عليه. دلفتُ إلى سريري بعد قليل، لكني عجزت عن النوم. فكرت في كم سيمرّ من الزمن بعد هذه الليلة قبل أن ترجع زويا وتنام في البيت، في سريرها الخاص. وهل كانت نائمة؟... خطوتُ إليها بسكون، فتحرّكت في الحال.

سألتْ، واستطعت أن أسمع من صوتها أنها تبتسم:

ـ لِمَ لَمْ تنامي؟

فأجبتُ:

ـ قمتُ أرى الساعة حتى لا أتأخر في النوم. هيا، نامي.

واضطجعت من جديد، لكن النوم نبا عني. أردت الذهاب إليها مرة ثانية فأستوضحها إن كانت أعادت النظر في القضية. لربما يفضل لو جلونا جميعاً، مثلما كان يخطر لي دائماً. وتراءى لي أن ثمة شيئاً يضيِّق عليَّ الخناق. وكان عليَّ أن أجاهد كي أتنفس... إنها الليلة الأخيرة. الفرصة الأخيرة في إبقائها. ثمّ سيفوت الأوان... ونهضت كرَّةً ثالثة. ورنوتُ إلى زويا نائمةً في غبشة الفجر الباكر، إلى وجهها الهادئ، إلى عنادها، إلى شفتَيها المنطبقتين في قوّة ـ وأدركتُ أخيراً بشعورٍ آخذ في النقصان، أنها لن تعدل عن قرارها.

وأفاق شورا باكراً ليذهب إلى المعمل.

قالت زويا، حين انتهى من لبس قبعته ومعطفه:

ـ وداعاً، يا شورا.

فهزَّ يدَها، وقال:

ـ بلّغي حُبِّي إلى الجدّ والجدّة. حظّاً سعيداً ورحلة بهيجة! سنفتقدك كثيراً كما تعلمين، لكنني مسرورٌ من أجلك، فالجوّ أهدأ في غابات الرجّاج.

وتبَسَّمتْ زويا واحتضنتْ شقيقَها.

وشربْنا، زويا وأنا، قليلاً من الشاي، وبدأتْ ترتدي ثيابها. أعطيتُها بياضاتها الخضر الدافئة ذات الحفاف السود، التي صنعتها بنفسي، كما أعطيتها صدريّتي الصوفية الخاصة.

احتجّت زويا:

ـ كلا، كلا، لا أريد ذلك! كيف تتدبَّرين أمرك في الشتاء من دون شيء دافئ.

فقلت بهدوء:

ـ خذيها.

وتطلَّعت زويا إليَّ، وعدلت عن الاحتجاج.

خرجنا معاً، كان الصباح كئيباً، والريح تنفخ في وجوهنا.

قلتُ:

ـ فلأحملْ حقيبتك.

فتردّدت زويا برهة:

ـ والآن، الآن! انظري إليَّ... أنت تبكين! لا تودِّعيني بالعبرات. انظري إليَّ ثانية.

فنظرتُ إليها. كان وجه زويا سعيداً، ضحكاً. فحاولت أن أبتسم لها.

ـ هذا أفضل.

واحتضنتني بقوة، وقبَّلتني، وقفزت إلى الترام، الذي كان ينطلق لتوّه.

المفكرة

ما إن قفلتُ إلى الدار حتى كان كل شيء دافئاً يعبق برائحة وجود زويا. وكانت الكتب موضوعة في المكتبة حسب ما صفّتْها زويا. كانت يداها قد وضعتا البيَّاضات في خزانة الثياب، ومجموعة المفكّرات على الطاولة. وكان زجاج النوافذ قد رُكِّب في أمكنته بنظافة استعداداً لاستقبال الشتاء، وأغصان الأوراق الخريفية الجافة الموضوعة في مزهرية طويلة ـ كان كلُّ شيءٍ صغيرٌ حلوٌ يذكِّرني بزويا.

وبُعَيد عدة أيام وصلتْني بطاقة بريدية عليها هذه الكلمات: «أمي العزيزة! ما زلت حية، في أتمّ صحة، وأحسن حال... آمل أن تكوني في أحسن حال. حبّي وقبلاتي. زويا...».

وظلّ شورا يحملق في البطاقة البريدية فترةً مديدة، يقرأ ثمّ يعيد قراءة رقم مركز البريد، وكأنه يحاول أن يحفره في ذاكرته.

ـ مامي؟!

هذا كل ما قال، ولكن هذا الاستفهام كان كافياً لفضح امتعاضه الحاد العنيف. ونظراً لتعجرفه وإرادته القوية لم يطرح عليَّ أي سؤال. كان مدهوشاً، مصاباً في كرامته بجرح عميق، لأن زويا لا تشاركه سرها، وغادرت الدار من دون أن تقول له كلمة واحدة.

ـ أنت لم تخبر زويا يوم ذهبتَ بدورك في حزيران. لم تكن تملك الحق في ذلك عندئذ، وكذلك الأمر بالنسبة إليها.

فأجابني بكلمات لم أسمعه يتفوَّه بها من قبلٍ قط، كلمات لم يخطر لي ببال أنّه يقدر على النطق بها، قال:

ـ لقد كنتُ وزويا شخصاً واحداً.

وأضاف بعد برهة:

ـ كان يجبُ أن نذهب معاً!

ولم نتحدَّث في هذا الشأن بعد ذلك أبداً.

لقد هرب النور من حياتي. كنت أجلس حتى ساعة متأخرة من الليل، أخيط الثياب العسكرية وأفكر: أين أنتِ الآن؟ ماذا تصنعين؟ هل نخطر في بالك!...

وفي ذات يوم، ولم يكُ لديَّ ما أعمل، شرعت أرتّب جرّار الطاولة، ودِدتُ أن أهيِّئَ محلّاً لدفاتر زويا بحيث لا يطالها الغبار.

ووقعت تحت يديَّ أول الأمر صحائف من ورق مغطّاة بكتابةٍ بخطّ زويا ـ صفحات مسودَّة لمقالتها عن إيليا موروميت. وهي تبدأ هكذا:

«هذا المدى المترامي إلى لا حدود من الأرض الروسية. إن ثلاثة عمالقة يحرسون هدوءها وسلامها. في الوسط، على صهوة جواد عظيم، يجلس إيليا موروميت، والصولجان الثقيل في يده على أتمّ استعداد ليهوي على رؤوس الأعداء. وإلى جواره، عن الطرفين الآخرين، يركب صديقاه المخلصان ـ أليوشا بوبوفيتش بعينيه الطارفتين، والجميل دوبرينيا».

وما برحت أذكر ذلك الوقت الذي قرأتْ فيه زويا تلك الخرافات المتحدثة عن إيليا موروميت، وكيف جلبت ذات يوم صوراً جديدة من رسم فاسنيتسوف وراحت تحملق فيها زمناً طويلاً. وقد بدأت قصتها هذه واصفة واحدة من تلك الرسوم.

وهذه صفحة ثانية:

«وقد عامله الناس بحبّ وعطف، ورثوا له حينما جُرح في المعركة. ولما تغلب «الكافر الشرير» عليه، منحته الأرض الروسية نفسُها قوةً وبأساً، وبينا إيليا مطروح على الأرض ازدادت قوته ثلاثة أضعاف».

وفي طرف آخر من الصفحة:

«والآن، بعد عدة قرون، تحققت رغبات الشعب وطموحه: فإن أرضنا حماتها الأشداء من بين شعبها ـ الجيش الأحمر. ليس عبثاً ما تنشده الأغنية «لقد خُلقنا لنحقق الأساطير». ونحن نحقق أسطورة رائعة، والناس ينشدون عن أبطالهم بذلك الحب العميق الذي أنشدوا به مرة عن إيليا موروميت».

وضعت هذه الصفحات بعناية في دفتر إنشاء زويا، ولاحظت أن موضوع إيليا موروميت قد نُسخ بنظافة في آخر الدفتر، وتربعت فوقه بخط فيرا سيرجييفنا كلمة: ممتاز».

ثمّ طفقت أضع الكومة كلها في الجرار. وأحسست أن شيئاً ما يقبع في إحدى الزوايا. ولمستْ أصابعي شيئاً، وسحبتُ دفتراً صغيراً، وفتحته.

كُتب على صفحاته الأولى أسماء وعناوين كتب. وقد وضعت إشارة الصليب إلى جانب بعضها دلالة على أنها قُرئت. تلك كانت أسماء جوكوفسكي، وكارامزين، وبوشكين، وليرمنتوف، وتولستوي، وديكنز، وبيرون، وموليير، وشكسبير... وتبع ذلك عدة صفحات مغطاة بكتابة بالقلم الرصاص ـ سطور مطموسة تكاد لا تُقرأ. وفجأة، قرأت بخط زويا الواضح، وبحبر قليل:

«كل شيء في المرء يجب أن يكون جميلاً: وجهه، وثيابه، وروحه، وأفكاره» (تشيخوف).

«أن يكون المرء شيوعياً يعني أن يكون جسوراً، ومفكراً، ومتعطشاً، ومغامراً» (ماياكوفسكي).

ولمحت في الصفحة الثانية ملاحظة سريعة منسوخة بغير اعتناء:

«إن عطيل يعبِّر عن نضال الإنسان في سبيل المثل العليا للحقيقة، والنقاء الأخلاقي، والإخلاص، إن موضوع عطيل هو انتصار العاطفة الإنسانية السامية الصريحة!».

وقرأت أيضاً:

«إن موت البطل في مؤلفات شكسبير مصحوب دائماً بانتصار المثل العليا السامية».

وبينا أنا أقلّب صفحات الكتاب الصغير المهترئ قليلاً، تراءى لي أني أسمع صوت زويا، وأراها تُنقِّب بعينين جديتين وابتسامة خجلى.

وهذي بضع سطور من آنا كارنينا، تتحدث عن سيريوجا، ابن آنا:

«كان في التاسعة من عمره، كان صبياً بعد، لكنه يعرف نفسه، فهي عزيزة جداً عليه، ولقد أحبها مثلما يحبّ الجفن العين، ولم يسمح لأحد بالدخول إليها إن لم يحمل مفتاح الحبّ».

وبدا لي أن الكلمات تتحدث عن زويا نفسها، وخيِّل إليَّ وأنا أقرأ أني أستطيع رؤيتها خلف كل سطر تقع عليه عيناي.

«إن ماياكوفسكي رجل عظيم الخلق، صريح ومستقيم. وماياكوفسكي يبثّ في الشعر حياة جديدة. إنه شاعر مواطن، شاعرٌ مفوَّه».

«ساتين: عندما يبعث العمل على السرور، تكون الحياة إذن فرحة حقيقية! وعندما يكون العمل واجباً، تكون الحياة عبودية إذن! ما هي الحقيقة؟ الإنسان هذه هي حقيقتكم! إنما الأكاذيب دين العبيد والسادة... والحقيقة إله الإنسان الحرّ! الإنسان! ما أروعه! ولشدَّ ما في ترديد هذه الكلمة من فخار ـ الإنسان! يجبُ أن يحترم الإنسان. لا أن يكون موضع الشفقة... فالشفقة إهانة... لكن أن يُحترم! ولطالما احتقرتُ الناس الذين يفكرون طويلاً ببطونهم. ليست هذه هي القضية. فالإنسان أثمن من هذا وأرفع. الإنسان أرفع قدراً من بطنه!» (جوركي، الأعماق).

وتابعت تقليب الصفحات، فقرأت:

«ميجيل دي سرفانتس سافيدرا، من دون كيشوت، إنّ دون كيشوت هو إرادة، وتضحية، وذكاء».

«لربما كان الكتاب المعجزة الأشد تعقيداً، والأكثر عظمة بين المعجزات التي خلقها الإنسان في طريقه إلى السعادة والقوة والمستقبل». (جوركي).

«إن قراءة كتاب للمرة الأولى أشبه باكتساب صديق عظيم الوفاء. وإذا قرأت ما قرأت مرة ثانية، فكأنك اجتمعت بصديق قديم من جديد. وإن الانتهاء من قراءة كتاب جيد لأشبه بنزهة مع صديق عزيز، ومن يعلم إذا كان سيجتمع به كرّةً أخرى». (حكمة صينية).

«ذلك الذي يسير لا بدَّ بالغ آخر الطريق».

«في الخلق، والسلوك، والأسلوب، وفي كل شيء ـ البساطة هي الجمال». (لونجفللو).

ومرة أخرى أحسستُ، مثلما أحسستُ يوم قرأت مذكَّرات زويا، كأنني أحمل في يدي قلباً خافقاً ـ قلباً يهوى أن يُحبَّ وأن يؤمن.

ومضيت في قراءتي، أمعن التفكير طويلاً في كل مدخل، وبدا لي أن زويا إلى جانبي، وأننا مع بعضنا من جديد.

وهذه هي السطور الأخيرة، مؤرَّخة بتشرين الثاني 1941:

«إن سكرتير لجنة موسكو رجلٌ بسيط متواضع. وهو يتكلّم باقتضاب لكن بوضوح. ورقم هاتفه: ك، أُوْ ـ 27 ـ (ع)، الامتداد 1 ـ 14».

ثمّ مقتطفات كبيرة من «فاوست»، ونشيد الجوقة في مديح أوفوريون:

«إن ندائي الآن

هو القتال وصيحة النصر.

أجل سوف أحلِّق

إلى هنالك بجناحيَّ!

سأحلِّق حتى نار الحرب

سأحلِّق حتى المعركة...»

ثمّ هذا:

«إنّي أحب روسيا. وقلبي يقطر دماً من أجلها، بل إني لا أستطيع أن أتصوَّر نفسي في مكان آخر غير روسيا». (سالتيكوف ـ تشتشدرين).

وعلى حين فجأة، في الصفحة الأخيرة، كانت هذه الكلمات من «هاملت» فكأنها ضربة موجَّهة إلى فؤادي مباشرة:

«الوداع، الوداع، الوداع! تذكَّريني!».

تانيا

لقد منحتني كتابة هذا الكتاب السعادة والحزن في آنٍ واحد. كنت أكتب ـ ويلوح لي أني أهزُّ، من جديد، مهد زويا الصغيرة، وأني أحمل، من جديد، شوراً البالغ الثالثة بين ذراعي، وأني أراهما معاً، ينبضان بالحياة ويفيضان بالأمل. ولكنه بمقدار ما ينقص ما تبقى لي كي أقول، وبمقدار ما تقترب النهاية المحتومة، أجد صعوبة أعظم في العثور على الكلمات الضرورية.

ولأذكر الأيام الأولى التي تبعت رحيل زويا بصورة واضحة، حتى أدق تفاصيلها.

غادرتنا ـ فأمست الحياة عهداً طويلاً من الانتظار. كان شورا، في الماضي، حينما يرجع إلى البيت فلا يجد أخته، يستوضحني فوراً: «أين زويا؟»، أما اليوم فكلماته الأولى هي: «أثمة أخبار؟». وفي الفترة الأخيرة فقط انقطع عن السؤال، لكنني كنت أقرأ ذلك الاستفهام مرتسماً في عينيه.

واندفع ذات يوم إلى الغرفة، مضطرباً سعيداً، وفعل شيئاً لم يفعله في ماضي أيامه ـ عانقني بشدة.

خمَّنت تواً:

ـ رسالة!

فأوضح شورا:

ـ ويا لها رسالة! أصغي: «أمي العزيزة، كيف حالك، كيف صحتك، أأنت بخير وعافية؟ مامي، اكتبي لي عدة أسطر إذا كنت تستطيعين. سأمرُّ على البيت، وقتما أرجع من مهمّتي، لأراكما. زوياكِ».

سألتُ:

ـ ما هو التاريخ؟

ـ السابع عشر من تشرين الثاني، ذلك يعني أنّه في مكنتنا ترقُّب مجيء زويا سريعاً!

ومرة أخرى، قبعنا ننتظر، لكن من دون قلق وخشية، بل بسعادة وأمل. ننتظر كل دقيقة من النهار والليل، ونحن على استعداد للوثوب لدى أقل صوت إلى الباب المفتوح، نترقب دخولها في أية لحظة.

وتصرَّم شهر تشرين الثاني، وتلاه كانون الأول، واقتربت أخريات كانون الثاني... ليس ثمة رسائل، أو أنباء، من أي نوع كان.

كنت أشتغل وشورا، لقد أخذ جميع أعمال البيت على عاتقه، ولاحظت أنه يحاول أن يكون بالنسبة إليَّ مثلما كانت زويا تماماً... فإن وصل البيت قبلي، فهو يسخِّن الطعام في وقت وصولي تماماً، وكنت أسمعه في الليل حين ينهض ليغطّيني بشيء دافئ. وكان الحطب يعوزنا، فنحاول أن نقتصد فيه ما أمكننا ذلك.

وذات يوم، من أخريات كانون الثاني، كنتُ قافلةً إلى الدار متأخّرة ورحتُ أرهف السمع، مثلما يحدث غالباً وقتما يكون الإنسان منهوكاً، إلى مقتطفات غريبة من الأحاديث. وظللتُ أسمع ذلك المساء في الشوارع هذا الاستفهام: «هل قرأت البرافدا اليوم؟»، «هل قرأت مقال ليدوف؟».

وتوجَّهت امرأةٌ فتيّةٌ شاحبة اللون ناتئة العينين إلى رفيقتها في الترام قائلة:

ـ يا للمقال المذهَّب! يا لها من فتاة!

وتأكد لديَّ أن ثمة شيئاً غير عادي في صحيفة ذلك النهار.

خاطبت شورا فور وصولي:

ـ شورا، هل قرأت البرافدا اليوم؟ يقولون إن ثمَّة مقالاً هاماً فيها.

فردَّ شورا بصوت خفيض، وعيناه تتفاديان عينيّ:

ـ ها هي.

ـ عمّن يتحدَّث المقال؟

ـ عن فتاة شابة من الأنصار تدعى تانيا. لقد أعدمها الألمانيون.

وطَغت البرودة على الحُجرة. لقد اعتدنا ذلك. لكنّي أحسستُ، حينما التقطت أذناي كلمات شورا، أن كل شيء في داخلي بدأ يلتفّ في عقدة محكمة من الجليد. خطر لي: «إنها ابنةٌ لأمٍّ أيضاً، إن أمّها تنتظر عودتها في البيت، قلقة من أجلها...».

وفتحت الراديو فيما بعد. مقتطفات عن القتال، أخبار من ميدان العمل. وعلى حين فجأة نبر المذياع: «سنذيع عليكم الآن مقال «تانيا» بقلم ليدوف، المنشور في البرافدا اليوم، السابع والعشرين من كانون الثاني».

وانثال صوت مفعم بالسخط والحزن يسرد القصة، وكيف قتل الألمانيون في الأيام الأولى من شهر كانون الأول في قرية بيتريشيفو، فتاة من الأنصار اسمها تانيا.

قال شورا فجأة:

ـ مامي، أيمكنني أن أغلقه. يجب أن أنهض باكراً غداً.

كان ذلك مدهشاً، فشورا يغطُّ عادة في نوم عميق عميق، لا يزعجه معه أي نقاش حاد أو حديث في راديو، وأطفأت الراديو مرغمة.

ذهبت في الغداة إلى لجنة المنطقة للكومسومول، آملة أن يعرفوا شيئاً من أخبار زويا.

أخبرني السكرتير قائلاً:

ـ إن المهمة سرية. وقد يمضي زمن طويل قبل أن تصل أية رسالة.

ومرت عدة أيام أخرى رازحةً بالقلق المخيف، وفي السابع من شباط ـ لسوف أذكر هذا التاريخ ما حييتُ ـ رجعت إلى الدار فألفيتُ ملاحظة على الطاولة: «أمي العزيزة، إنهم يطلبونك في لجنة المنطقة للكومسومول».

فكَّرت مغتبطة:

ـ أخيراً، لربما هي أخبار من زويا. ولربما رسالة!

طرت إلى لجنة المنطقة فكأن لي جناحين. كانت عشية شتائية ظلماء. ولم أستطع انتظار الترام. فركضتُ، وتعثرتُ، وقمت أركض من جديد. ولم تدخل رأسي أية فكرة تُنذر بالشؤم قط. وما توقّعتُ أخباراً سيئة، بل كنت أنتظر أن أعرف متى ألقى زويا. وهل سترجع سريعاً؟

أخبروني في لجنة المنطقة:

ـ عودي إلى البيت، فإن جماعة من لجنة موسكو للكومسومول انطلقوا للقياك في دارك.

ـ أسرعي، أسرعي، يجب أن أعرف متى ستعود زويا!

ومرة أخرى، لم أمشِ، بل ركضت.

فتحتُ الباب بعنف ووقفت على الباب، فنهض رجلان كانا جالسين إلى الطاولة لملاقاتي: رئيس لجنة تيميريازيف لشعبة تثقيف الشعب وآخر غريب، هو شاب ذو وجه جريء متوتر.

وكنت أستطيع أن أرى الأنفاس تنطلق من فمه. كانت الغرفة باردة، فلم ينزعا معطفيهما.

كان شورا منتصباً لا حراك به في جوار النافذة. رنوت إلى وجهه، والتقت عينانا ـ وفجأة، فهمت كل شيء... واندفع صوبي، مطوِّحاً بشيء ما على الأرض في طريقه، لكنني ما تمكَّنت من التحرُّك، وبدت قدماي وكأنهما تسمَّرتا في الأرض.

قال أحد القادمين:

ـ ليوبوف تيموفييفنا... إن الفتاة تانيا في البرافدا... إنها ابنتك زويا... وسنذهب إلى قرية بيتريشيفو بعد يوم أو يومين.

وتهالكتُ على مقعد أدناه أحدهما مني. ليس ثمة دموع، وليس هواء في الغرفة. رغبتُ أن أكون وحيدة. كانت هذه الكلمة تضرب في أذنيَّ: ماتت... ماتت... ماتت!...

* * *

حملني شورا إلى السرير، وجلس معي الليل بطوله. لم يبكِ. كان يشخص أمامه بعينين جافتين ويضغط على يديَّ بشدة بين يديه.

قلتُ أخيراً:

ـ شورا... ماذا سنفعل الآن؟

وفي تلك اللحظة عينها، ورغماً عن محاولته قمع نفسه، طوَّح شورا بنفسه على السرير وطفق يبكي بصوت عالٍ وبقنوط.

ردّد بصوت خشنٍ مضعضع:

ـ لقد عرفت ذلك دائماً... كل شيء. كان ثمة صورة في البرافدا، والحبل حول عنقها... كان الاسم مختلفاً، لكنني أيقنت أنها هي... وما أردت إخبارك، رجوت أن أكون مخطئاً... وحاولت إقناع نفسي بخطئي... لم أقوَ على تصديق ذلك. بيد أني عرفتُ، عرفتُ...

قلتُ:

ـ أرنِيها.

فأجاب من خلال دموعه:

ـ كلا!

ـ شورا، عليَّ أن أواجه الكثير بعد، يجب أن أراها. أسألك...

فأخرج شورا دفتره من جيب معطفه الداخلي. كانت ثمة قطعة من جريدة ملصوقة في صفحة نقية بيضاء. وعرفت وجه ابنتي المرضوض المهشَّم.

كان شورا يخاطبني بشيء ما. فكانت الكلمات تصلني كأنها تدفّ من بعيد:

ـ أتعرِفين لم أسمت نفسها تانيا؟ أتذكرين تانيا سولوماخا؟

وتذكَّرت، ووضح لي كل شيء بجلاء، أجل، من دون ريب، كانت تفكر بتلك الفتاة التي قُتلت منذ زمن غارق في البُعد حينما أطلقت على نفسها اسم تانيا.

في بيتريشيفو

ذهبت إلى بيتريشيفو في الثالث عشر من شهر شباط. ولست أذكر بالضبط كيف وصلناها. جُلّ ما أذكر هو أن الطريق المفروشة بالأسفلت لم تكن تتمادى حتى بيتريشيفو، بحيث اضطررنا إلى دفع السيارة قرابة خمسة كيلومترات، فما بلغنا القرية إلا وقد خدَّرنا البرد تماماً. قادوني إلى أحد الأكواخ، فلم أستطع بعث الدفء في أطرافي، فالبرودة كانت في داخلي. ومن ثمّ سعينا إلى ضريح زويا. كانوا قد أخرجوا ابنتي منه، فرأيتها...

كانت تضطجع وقد مدَّت ذراعيها إلى جانبي جسدها، ورأسها مرمي إلى الوراء، وعنقها محاطة بقطعة من حبل، ووجهها الذي كان مطلق الهدوء قد ضُرِبَ بوحشية وفظاظة. وكانت بقعة سوداء عريضة تمتدُّ على وجنتيها، أما الجسد فقد ثُقب بحربة مرات عديدة، والدماء قد جمدت على صدرها...

ركعتُ أمامها وتطلَّعت... ونحَّيت خصلة من الشعر عن جبينها النقي ـ فدهشت مرة أخرى للجلال المطمئن الذي يرين على المحيّا المشوّه الممزَّق. لم يكُ في طاقتي انتزاع نفسي من جوارها، أو إبعاد عينيَّ عنها.

ودَنَتْ منّي فتاةٌ متلفِّعةٌ بمعطف من معاطف الجيش الأحمر، وأمسكت بيدي في لطف، لكن بثبات، وأعانتني على الوقوف. قالت:

ـ فلنذهبْ إلى أحد الأكواخ.

قلتُ:

ـ لا!

ـ تعالي. لقد كنت في فرقة أنصار زويا، وسأروي لك كل شيء.

قادتني إلى كوخ قريب، وجلست قربي، وبدأت تروي قصتها. أعرتُها أذنيَّ بصعوبة فائقة، فكأنني أسمع من خلال ضبابٍ كثيف كثيف كنت أعرف بعض الحوادث من الصحف. قصت عليَّ كيف اجتازت جماعة من الأنصار، وهم أعضاء من الكومسومول، الخطوط الأمامية، وقضوا أسبوعين كاملين يعيشون في الغابات، على أرض احتلّها الألمان، ينفّذون في الليل أوامر القائد وينامون في النهار حيثما كان على الثلج، ويدفئون أنفسهم بنيران يشعلونها. كانوا قد حملوا معهم من الطعام ما يموّنهم خمسة أيام، بيد أنهم جعلوا هذه المؤونة تكفيهم طيلة أسبوعين. لقد اقتسموا آخر كسرة من الخبز، وآخر قطرة من الماء...

كانت صديقة زويا تدعى كلافا. وكانت تذرف عبراتها، وهي تسردُ عليَّ ما في جعبتها من أخبار.

وآن لهم أن يعودوا، لكنَّ زويا أصرَّت على أنهم لم يفعلوا إلّا القليل. وطلبت من قائد الجماعة السماح لها باختراق بيتريشيفو.

وهناك أضرمت النار في المنازل التي احتلّها الألمان، وفي إسطبلٍ لوحدة عسكرية ألمانية. وزحفت في الليلة التالية إلى إسطبل آخر يقع على حافة القرية يضم بين جدرانه ما ينوف على المائتين من الجياد. وتناولت قنينة بنزين من حقيبتها، وأراقتها على البناية، وانحنت لإشعال عود ثقاب، وإذا أحد الحراس يقبض عليها من الخلف. دفعته عنها، واختطفت مسدسها، إلا أنها لم تستطع إطلاق النار، فقد طوَّح الألماني بالسلاح من يدها، وأطلق صفارة الإنذار.

وجنحت كلافا إلى الصمت... فإذا صاحبة الكوخ، وكانت قابعة طيلة الوقت خرساء تحملق في النار، تنبر قائلة:

ـ في مقدوري أن أروي لك ما جرى بعد ذلك... إذا شئتِ...

وأصغيت لها أيضاً. لكنني لا أستطيع الكتابة عن ذلك. فلنسمع قصة بيوتر ليدوف الآن. كان أول من كتب عن زويا، وأول من جاء إلى بيتريشيفو حينما سمع بالحادثة وأول من اكتشف، والآثار ما تبرح طرية، كيف عذبوها، وكيف ماتت...

كيف حدث ذلك

«... وجيء بتانيا، ورُبطت إلى دكّة. كان على الطاولة قبالتها هواتف، وآلة كاتبة، وراديو، وكومة من أوراق الجيش. وبدأ الضباط يجتمعون. وصدر الأمر إلى أصحاب البيت (عائلة فورونين) بمغادرته. فتباطأت العجوز في الذهاب، فصاح بها الضابط: اخرجي، يا امرأة! ورفسها في ظهرها».

«واستنطق العقيد روديرر، آمر فرقة المشاة الثانية والثلاثين بعد الثلاثمائة، التابعة للطابور السابع والتسعين بعد المائة، تانيا بنفسه».

«واستطاع آل فورونين، وقد احتشدوا في المطهى، التقاط الحديث الدائر في الغرفة بكامله. كانت تانيا تردُّ على أسئلة الضابط من دون تردُّد، وبصوت عالٍ متحدٍّ.

سأل العقيد:

ـ من أنت؟

ـ لن أقول لك.

ـ أأنت التي أشعلت النار في الإسطبلات؟

ـ نعم أنا!

ـ وما هي نيَّتك من ذلك؟

ـ تدميركم جميعاً.

وخيَّمت فترة من صمت...

ـ متى اجتزتِ خطوط النار؟

ـ يوم الجمعة.

ـ لقد كان قدومك إلى هذا المكان أسرع مما يسمح به الوقت.

ـ ولم أضيِّع الوقت؟

«واستوضحوها عن مُرسليها وعن القادمين معها، ظانِّين أنها ستطلعهم على هويّات رفاقها... ودفَّ جوابها عبر الباب: «كلا، لا أعرف، لن أقول، كلا!». عندئذٍ رنَّت في الفضاء عدة ضربات يكيلها سوط جلدي، تمسك به يدٌ مدربة، فيلسع اللحم العاري لسعاً أليماً. ولم تمضِ لحظات حتى فرَّ ضابطٌ فتى من الغرفة ودلف إلى المَطهى، دافناً رأسه بين يديه، وجلس على هذه الحال حتى انتهى الاستنطاق، وقد أغلق عينيه بشدة وسدّ أذنيه بإصبعيه. إن أعصاب الفاشيّ نفسه لم تُطِقْ ذلك».

«كان أربعة من الرجال الضخام الجثة قد نزعوا أحزمتهم الجلدية. وشرعوا يجلدون الفتاة. وأحصى أصحاب الدار مائتي جلدة، لم تفه تانيا بحرف واحدٍ خلالها. وعادت تقول بعد ذلك من جديد: «كلا، لن أقول!»، سوى أن صوتها تردَّد أضعف من قبل وأخفت».

كان الجاويش كارل بورلين (وقد سقط في المدة الأخيرة أسيراً في أيدي رجال الجيش الأحمر) حاضراً خلال تعذيب العقيد ورديرر لزويا كوسمو دميانسكايا. وقد كتب في اعترافاته يقول:

«لقد بقيت بطلة شعبكم الصغيرة مخلصة وفيَّة على الدوام. لم تكُ تفقه معنىً للخيانة والغدر... لقد ازرقَ لونها من قسوة البرد، ونزفت الدماء من جروحها، ولكنها لم تقل شيئاً...».

«... وظلت تانيا في كوخ فورونين مدة ساعتين. ونُقلت بعد الاستجواب إلى كوخ فاسيلي كوليك. نُقلت تحت حراسة شديدة، نصف عريانة تقريباً، حافية القدمين في الثلج الكثيف.

ولما دخلت كوخ كوليك كانت كدمة أرجوانية سوداء قد برزت على جبهتها، وقروح كثيرة تغطي ذراعيها وساقيها، وهي تتنفَّس بصعوبة. وكان شعرها مشعثاً، وقد ألصق العرق خصلة بجبينها المرتفع. وكانت يداها مشدودتين خلف ظهره، وشفتاها منتفختين داميتين، فقد كانت تعضهما بشدة كلما حاول الفاشيون استخلاص اعتراف منها.

وتجمَّعت على بعضها فوق دكة وقبعت هادئة ساكنة، بينا انتصب أحد الحراس الألمانيين على الباب، وسألت الفتاة نهلة من الماء، فأسرع فاسيلي كوليك إلى صنبور الماء، بيد أن الحارس كان أسرع منه إليه. واختطف المصباح الغازي عن الطاولة وأدناه من شفتي تانيا، وقد عنى بذلك أنها ستشرب زيته عوضاً عما طلبت.

وبدأ كوليك يدافع عن الفتاة، فهرَّ الحارس في وجهه، ومن ثمّ سمح له متذمراً عابساً. فشربت عطشى، ملء كوزين كبيرين.

وتجمهر الجنود في الكوخ وأحاطوا بالفتاة وراحوا يمتعون أنفسهم بصخب على حسابها. ضربها بعضهم على جبهتها بقبضاتهم، وأدنى آخرون أعواد كبريت ملتهبة من ذقنها، وأمرَّ أحدهم منشاراً على ظهرها.

ولم يذهب الجنود إلى أسرَّتهم مسرورين إلا بعدما متَّعوا قلوبهم حتى الثمالة... بينا عبَّأ الحارس بندقيته وأمر تانيا بالنهوض والخروج من المنزل. وأجبرها على السير في الشارع، وذؤابة بندقيته تضغط على ظهرها، ومن ثمة صاح: «Zuruck»(3)، وأرغم الفتاة على السير في الاتجاه المعاكس. فراحت تخطو على الثلج حافية القدمين، لا يستر جسمها غير ثيابها الداخلية، حتى تضايق جلّادها نفسه من البرد القارص، وقرَّر وجوب العودة إلى الكوخ الدافئ.

وظلّ ذلك الجندي يحرس تانيا منذ العاشرة مساء حتى الثانية صباحاً، وفي كل ساعة ينطلق بها إلى الشارع حوالي خمس عشرة أو عشرين دقيقة.

وقدم حارس جديد آخر الأمر. وسُمح للفتاة التعسة بالاضطجاع على دكة من الخشب.

وانتهزت براسكوفيا كوليك، المشتاقة للحديث مع تانيا، أول سانحة وسألتها:

ـ من عساك تكونين؟

ـ وماذا يفيدك هذا؟

ـ من أين جئتِ؟

ـ من موسكو.

ـ هل عائلتك على قيد الحياة؟

فلم تجبْ الفتاة. واستلقت حتى الصباح من دون حركة، من دون كلمة أو أنَّة، رغم أن قدميها كساهما الصقيع فهما تسببان لها ألماً مبرّحاً لا يطاق.

وفي البكور، جعل الجنود يشيدون مشنقة في وسط القرية.

وخاطبت براسكوفيا الفتاة من جديد:

ـ أأنت التي فعلتِ ذلك قبل البارحة؟

ـ نعم... هل احترق كثير من الألمانيين؟

ـ كلا.

ـ يا الله! وماذا احترقا إذن؟

ـ خيولهم. يقولون إن بعض الأسلحة قد احترقت أيضاً...

ودخل الضباط حوالي الساعة العاشرة صباحاً. واستوضح أحدهم تانيا من جديد:

ـ قولي لنا من أنت.

فلم تنبس تانيا بحرف...

ـ قولي لنا أين يوجد ستالين.

فأجابت تانيا:

ـ إن ستالين في مركزه.

ولم يسمع ربّ الدار وزوجه بقية الاستجواب، فقد طُردا من المنزل ولم يسمح لهما بالعودة حتى انتهى الاستجواب.

وجاؤوا بثياب تانيا: قميصها، وسروالها، وجرابيها، وجاؤوها بكيسها أيضاً، وفيه الملح وأعواد الثقاب. أما قبعتها، ومعطفها الفرو، وصديريّها الصوفي الناعم، وحذاؤها فقد اختفت جميعاً. لقد تقاسمها الأوغاد سلفاً فيما بينهم، أما القفازان فقد طارا إلى طاهي الضابط الأحمر الشعر.

وألبسوا تانيا ثيابها، وساعدها أصحاب الدار على ارتداء جرابيها في قدميها المسودتين. وعلّق الألمانيون على صدرها زجاجات البنزين التي استولوا عليها معها، ولوحة كتب عليها: «حارقة البيوت». وهكذا ساروا بها عبر الساحة حتى المشنقة.

كانت ساحة الإعدام محاطة بعشرة من رجال الخيالة وقد شهروا سيوفهم، وما ينوف على المائة من جنود الألمانيين وضباطهم. وكان سكان القرية قد أُمِرُوا بالتجمهر لحضور تنفيذ الحكم. فلم يأتِ غير القليل منهم، وبعدما وقفوا برهة وجيزة رجع بعض هؤلاء إلى بيوتهم، حتى لا يشاهدوا ذلك المنظر الهائل.

كان صندوقان من الخشب موضوعين تحت الأنشوطة المدلاة من عامودي المشنقة، أحدهما فوق الآخر. وأصعد الجلادان الفتاة على الصندوق ووضعا الأنشوطة حول عنقها. وأخذ أحد الضباط يجمّع عدسة آلة تصويره «الكوداك» على المشنقة. وأومأ الآمر بإشارة إلى الجنديين الجلادين بالانتظار.

واغتنمت تانيا تلك الفرصة، والتفتت إلى المزارعين المتجمعين، وصاحت بصوت جهير النبرة صافي اللحن:

ـ أيها الرفاق! فيم تلوحون ذليلين مغتمين؟ كونوا شجعاناً، وحاربوا ودمّروا وأحرقوا الفاشيين!

واندفع ألماني قريب منها، وحاول أن يضربها ويمنعها من الكلام، لكنها تفادت ضربته وتابعت تقول:

ـ لست من الموت بخائفة، أيها الرفاق! ما أروع أن يموت المرء في سبيل شعبه!».

والتقط المصور بعض الصور للمشنقة من بعيد وقريب، وشرع يتهيأ لالتقاط مجموعة من الجانبين. عندئذ رنا الجلادان إلى الآمر متضايقين، فقال هذا للمصور يعجِّله: «Aber doch schneller!»(4).

فاستدارت تانيا إذ ذاك صوب الآمر، وصاحت به وبالجنود جميعاً:

ـ ستشنقونني الآن، ولكنني لست وحيدة. إن هنالك مائتي مليون منا، فلستم تستطيعون شنقنا جميعاً. وسينتقمون لموتي ويثأرون. أيها الرجال استسلموا قبل أن يفوت الأوان، فالنصر حليفنا!

وشدَّ الجلاد الحبل، فضغطت الأنشودة على رقبة تانيا، فتعلقت بها بكلتا يديها وتطاولت على رؤوس أصابعها وصاحت بكل قواها:

ـ وداعاً، أيها الرفاق! قاتلوا، ولا تخافوا! إن ستالين معنا! إن ستالين سيجيء!

ورفع الجلاد جزمته العامرة بالمسامير ودفع الصندوق الأسفل، فانزلق على الثلج اللزج المرصوص فتدهور الصندوق الأعلى وضرب الأرض ضربة صاخبة، فتطوَّح الجمع إلى الوراء. ورنَّت في الفضاء صيحة، ردَّدت جدران الغابة البعيدة صداها...».

(3) وراء دُرْ!

(4) هيا أسرع.

قصة كلافا

أيتها العزيزة ليوبوف تيموفييفنا،

أنا أدعى كلافا، وكنت من نصيرات فرقة زويا ذاتها. وأنا أعرف كم كان يصعب عليك الإصغاء إليّ وقتما التقينا في بيتريشيفو. بيد أنني أعرف في الوقت نفسه أنك تودين معرفة كل شيء عن كل دقيقة قضتها زويا بعيدة عنك. ولأسهل على المرء أن يقرأ عن أن يسمع، ولذا سأروي لك في هذه الرسالة ما أعرف وأتذكر.

في منتصف شهر تشرين الأول كنت أنتظر، بصحبة بعض أعضاء الكومسومول، في رواق لجنة كومسومول موسكو أن يستقبلني أمين السرّ. كنت آمل، مثلي مثل الآخرين تماماً، أن يرسلوني خلف صفوف الأعداء. ولحظتُ بين الجميع فتاة شهباوية العينين السوداوين. كانت تلتفّ بمعطف بنيّ اللون، ذي باقة مزركشة من الفراء ذاته. ولم تكُ هذه الفتاة تخاطب أحداً من الحضور، ويظهر أنها لم تكُ تعرفُ أحداً هنالك. خرجت من غرفة أمين السرّ بعينين تطفحان سروراً وغبطة، وتبسَّمت لأولئك الذين جمدوا قريباً من الباب، ثمّ خطت بسرعة صوب المخرج. وراقبتها في شيء من الغيرة: لمن الواضح أنهم قبلوها.

ولقد قُبلتُ بدوري ذلك النهار. وفي الواحد والثلاثين من تشرين الأول ـ وسوف لن أنسى ذلك النهار ـ ذهبتُ إلى سينما «كولوسوم». وكانت جماعة من أعضاء الكومسومول ستنطلق من هناك إلى الوحدة التابعة لها. وكان رذاذ خفيف يتساقط من السماء، والطقس بارداً رطباً.

وعند مدخل «كولوسوم» لمحت الفتاة الشهباوية العينين مرة ثانية. سألتها:

ـ أذاهبة أنت إلى السينما؟

فأومأتْ بالإيجاب، وقد طرفت بعينها، وشرعت جموع زاخرة من الفتيات والفتيان تتقدم صوبنا فسألناهم أذاهبون إلى السينما؟ فأجاب الجميع. نعم! وعندما فتح شباك التذاكر لم يبتع أحدهم أية تذكرة. فتبادلنا النظر وضحكنا. وإذ ذاك خطوتُ إلى الفتاة الشهباوية العينين وسألتها: ما اسمك؟ فردَّت تقول: زويا.

ثمّ ابتاعت زويا وفتاة أخرى تدعى كاتيا كمية من اللوز من أحد المحالّ، وطفقتا تقتسمانها مع سائر الباقين. قالت زويا مبتسمة: كي نتسلى بها أثناء العرض! وسرعان ما تعارفنا جميعاً. وجاءت بعد ذلك سيارة شحن كبيرة. فتسلَّقناها وانطلقت بنا عبر موسكو إلى طريق موجايسك الرئيسة. وعلى الدرب أطلقنا حناجرنا ننشد إحدى أغاني الكومسومول أثناء الحرب الأهلية.

وقطعنا منازل موسكو الأخيرة، وبلغنا طريق موجايسك الرئيسة. وهنالك كانت نساءٌ ومراهقون يبنون بعض الاستحكامات. ولا ريب أننا فكرنا جميعاً في شيء واحد: لن يحتلّ أيُّ إنسان عاصمتنا، فكل موسكوفي، أكبيراً كان أم صغيراً، مستعد للدفاع عن موسكو.

وحوالي السادسة مساءً وصلنا وحدتنا. كانت تعسكر في جوار كونتسيفو. وبدأت التمارين حالما انتهينا من طعام العشاء. درسنا الأسلحة الصغيرة: مسدس الناجانت، والموزر، والباربللُّو. ففكَّكنا أجزاءها ثمّ ركبناها من جديد، ثمّ اختُبرنا كلّاً على حدة. وكانت زويا سريعة في فهم كل ما يشرح لنا. قالت لي:

ـ هذا العمل يناسب أخي تماماً. فلديه يدان قديرتان، وفي مستطاعه فكُّ أية قطعة ميكانيكية إلى أجزائها الصغيرة ثمّ تركيبها في لمحة البرق، ومن دون أي شرح على الإطلاق.

كنا عشر فتيات في الفرقة. وكنا لا نعرف أسماء بعضنا، لكن حين سُئلنا انتخاب عريفتنا، ردَّدت أصوات معاً اسم زويا. فوضح لي عند ذاك أن الآخرين، مثلهم مثلي، قد وجدوا في زويا أحبّ الجميع إلى قلوبهم.

كانت يقظة الصباح التالي في السادسة، وكانت التمارين ستبدأ في السابعة. اقتربت زويا من سريري، وقالت:

ـ انهضي وإلا صببت عليك الماء البارد!

واتجهتْ إلى فتاة أخرى بطيئة الحركات بقولها:

ـ أي صنف من الجنود أنت؟ يجب أن تنهضي فور نداء نوبة الصباح تماماً!

وجعلت تحثّنا على الإسراع أثناء الطعام، فخاطبتها فتاة بقولها:

ـ ما معنى إصدار الأوامر إلينا؟

فجال في خاطري أن جواب زويا سيكون حاداً مراً. لكنها تطلعت إلى الفتاة في ثبات، وقالت:

ـ لقد اخترتموني بأنفسكنَّ، وطالما أنكنَّ اخترتموني فيجب أن تتلقَّينَ الأوامر مني.

وسمعتهنَّ، بُعيد ذلك، يقلْن عن زويا مراراً:

ـ إن الغضب لا يعرف إلى فؤادها سبيلاً، ولكنَّ لها طريقة تنظر فيها إليك...

ولم نكُ ندرس في صفوف، على مقاعد. كنا نتابع دروسنا في الغابة، فتعلمنا كيف نسير على شكل دائرة، ونزحف على الأرض، ومارسنا إطلاق النار، وأخذنا معنا صناديق عامرة بالمتفجرات وتعلمنا كيف ننسف الأشياء، وكان المدرب يسمي ذلك «نسف الأشجار». ودرسنا يوماً بعد يوم من دون أن ننال قسطاً من الراحة.

وجاء الزمن أخيراً لنمثل واحدة بعد واحدة أمام المقدم سبروجيس، فقال لنا مرة ثانية:

ـ أخائفات أنتنَّ؟ لن تفقدن أعصابكنَّ الآن، أليس كذلك؟ وما زالت لديكن فرصة العودة، والتراجع عن كل شيء. ولكن، هذه هي الفرصة الأخيرة. وبعدها يكون الوقت قد فات.

وكانت زويا من السباقات إلى دخول غرفة المقدم، وخرجت من عنده بسرعة ـ لا ريب أن جوابها كان قصيراً مقتضباً.

ومن ثمّ أعطونا المسدسات، وقسمونا إلى جماعتين.

وفي الرابع من تشرين الثاني ركبنا إلى «فوكولوماسك»، حيث كان علينا اجتياز خط النار والتوغل خلف الأعداء. كانت وظيفتنا لغم طريق «فوكولوماسك» الرئيسة. وهرعت جماعتان إلى «فوكولوماسك» ـ جماعتنا وجماعة قسطنطين ب... ـ وخرجنا في اتجاهين مختلفين. وكانت في جماعة قسطنطين فتاتان ـ شورا وجينيا. وودعونا، وقالوا لنا:

ـ حسناً، أيها الفتيات، لسوف نقوم بعملنا كالأبطال، وإذا متنا فسنموت كالأبطال أيضاً!

فنبرت زويا:

ـ كيف سوى ذلك!

واجتزنا خط النار بعد أن مات الليل، بهدوء تام، من دون أن نطلق رصاصة واحدة. ومن ثمّ أُرسِلْتُ وزويا في المقدمة للاستكشاف. فانطلقنا فرحتين يعمر قلبينا السرور، فقد كنا قلقتين نبغي الانتهاء من مهمتنا بأسرع وقت مستطاع. ولم نكد نخطو عدة خطوات حتى تناهى إلينا صوت دراجتين ناريتين، بدا أنهما انبثقتا من العدم، ومرتا بنا كسهمين على بعد ياردة واحدة، مما علّمنا ألا ننسى الحيطة والحذر. ومن ثمّ تابعنا الزحف. كانت أوراق الخريف قد كبرت وراحت تخشخش، فيتراءى لنا كل صوت وكأنما يرن عالياً طناناً. ورغم هذا، تابعت زويا الزحف بسرعة، من دون أن يندَّ عنها أخفت صوت، وبسهولة تامة، وكأن ذلك لا يتطلب منها أية طاقة من الجهد على الإطلاق.

وهكذا زحفنا قرابة ثلاثة كيلومترات على طول الطريق الرئيسة. ومن ثمّ رجعنا أدراجنا صوب الغابة لنخبر جماعتنا أن الشاطئ نظيف. وذهب الشباب زوجاً زوجاً لِبَثّ الألغام ـ فألغام الطرق تحتاج دوماً إلى رجلين. وظللنا نحن الفتيات الأربع نقوم بالحراسة. وتناهت إلينا أصوات المحركات قبل أن يجد الفتيان الوقت الكافي لإنهاء عملهم، وكانت هذه الأصوات أول الأمر خافتة، ثمّ شرعت تعلو وتعلو. وحذرنا الفتيان، وركضنا جميعاً، ميمِّمين شطر الغابة. ولم نكدْ نلتقط أنفاسنا المبهورة حتى دوى في الفضاء صوت انفجار.

وثارت حُمَيّا كل ما يحيط بنا مدة دقيقة واحدة. ومن ثمّ جثم سكون عميق بحيث تبدّى كل ما حولنا وكأنما اختطفه الموت. بل إن الغابة نفسها توقفت عن الحفيف والخشخشة، ومن ثمّ تلا صوت انفجار ثان، وثالث، وطلقات رصاص، ومن ثمّ صيحات...

وتوغلنا أكثر فأكثر في الغابة الكثيفة. وما إن أشرق النور حتى توقَّفنا وعسكرنا. وتبادلنا التهاني، إذ كنا في السابع من تشرين الثاني. وخرجت وزويا حوالي منتصف النهار إلى الطريق الرئيسة التي تسلكها قوافل سيارات الشحن، وزرعنا فيها أشواكاً حادة في كل مكان ـ هذه الأشواك ستثقب إطارات العدو. ولحظت شيئاً ازددت اقتناعاً به يوماً بعد يوم. إن المرء لا يخاف عندما يكون في صحبة زويا. إنها تصنع كل شيء بدقة، وبرود، وبثقة تامة. ولعلَّ ذلك هو السبب في رغبتنا جميعاً في الخروج للاستكشاف برفقتها.

وعدنا ذلك المساء إلى «بيتنا»، إلى وحدتنا. وكتبنا تقريرنا عن كيف أنجزنا مهمتنا، واغتسلنا في حمام الدار. ولأذكر كيف تبادلتُ وزويا بعد ذلك أوَّل حديث شخصي. كنا جالستين على السرير. ولقد لفت زويا ركبتيها بذراعيها، وبدت لي بعيد الحمام، قصيرة الشعر مضرَّجة الخدين، فتية فتية جداً. وسألتني فجأة:

ـ أخبريني، أين كنت قبل الاشتراك في الوحدة؟

ـ معلمة مدرسة.

ـ هذا يعني أنّه ينبغي لي مخاطبتك بصورة رسمية!

لقد خمر عن بالي أن أخبرك أن زويا كانت تستعمل صيغة المفرد في مخاطبتها جميع الفتيات وتحتفظ بالصيغة الرسمية لحديثها مع الشباب. وكانوا، بدورهم، يتوجهون إليها بالحديث بشكل رسمي. وليتراءى لي كل ذلك الآن باعثاً على السخرية بحيث لا أتمالك نفسي من الضحك: لقد رأيت أن زويا كانت فتاة صغيرة حقاً، وأنها لم تغزل الثامنة عشرة بعد، وأنها جاءت إلينا من المدرسة رأساً.

قلت:

فيم تلجئين فجأةً إلى الصيغة الرسمية؟ أنا لا أكبرك سوى بثلاث سنوات!

وبدتْ زويا مفكرة، ثمّ استوضحت:

ـ أأنت في الكومسومول؟

ـ نعم.

ـ حسناً. سأستعمل الصيغة المفردة إذن. هل لك أبوان؟

ـ نعم، ولي أخت أيضاً.

إنّ لي أمّاً وأخاً. أما والدي فتوفّي عندما كنت في العاشرة. فربَّتْنا والدتي وحدها. سأصحب فرقتنا بأسرها لأعرّفها وأقدّمها إلى أمي حين ننتهي من مهمتنا. وسترينها! وستحبكنَّ أمّي جميعاً. لقد ألفتُكِ والآخرين جميعاً، ولسوف أبقى وإياك حتى نهاية الحرب.

كان هذا أول حديث بيننا قلباً لقلب...

وفي اليوم التالي صدر إلينا تفويض جديد، وتغير تركيب جماعتنا. إلّا أن الفتيات لم يتغيّرن: زويا، وليدا بولجينا، وفيرا تولوشينا، وأنا... ولقد نمونا جميعاً على الودّ والألفة. وكان اسم آمر جماعتنا بوريس كرينوف. كان هادئاً، رزيناً، خشناً في حديثه نوعاً ما، إلّا أنّه ما كان يقسم أبداً، أو يسمح للآخرين بذلك وكانت زويا تحب أن تردّد كلماته هذه:

ـ تستطيع أن تقسم ما شئت، لكنك لا تزداد حكمة بذلك، ولا أيّ إنسان آخر أيضاً.

وانطلقنا خلف صفوف الأعداء مزوَّدين بقناني البنزين والقنابل المدلّاة من أحزمتنا. وكان علينا هذه المرة أن نشقّ طريقنا بأنفسنا، ومن حسن الحظ أنَّ أحداً لم يُجرَح. ولم يكد فجر اليوم التالي يفتح عينيه حتى خضنا أول معركة حقيقية لنا. فقد حاصرتنا النيران من ثلاث جهات.

صاحت فيرا:

ـ استلقوا جميعاً!

فارتمينا على الأرض، ورحنا ننضغط عليها. وطفقنا نزحف بعد انقطاع النار، فابتعدنا عن خط الخطر قرابة ثمانمائة متراً، وإذ ذاك انتبهنا إلى أن ثلاثة من رفاقنا قد فقدوا.

خاطبت زويا الرئيس، قائلة:

ـ دعني أعدْ وأرَ هل ثمّة جريحٌ بينهم.

فسأل بوريس:

ـ ومن سيصحبك؟

ـ سأذهب لوحدي.

ـ تمهّلي، فلنتركْ الألمان يهدؤوا قليلاً.

ـ كلا، سيفوت الوقت.

ـ حسناً، تستطيعين الذهاب.

وعادت زويا زاحفة. فانتظرنا وانتظرنا، ولكنها لم ترجع. ومرّت ساعة ثمّ ثانية وثالثة... وراح اقتناع هائل يترعرع بين جنبيَّ يقول إن زويا قد قُتِلَتْ.

كان الفجر يذرّ ضوءه الصافي، عندما رجعت زويا. كانت تنوء تحت عبءٍ من الأسلحة، وكانت يداها ملوَّثتين بالدم، وكان وجهها شاحب اللون من التعب.

لقد مات رفاقنا الثلاثة. وقد زحفت زويا إليهم جميعاً وحملت أسلحتهم. وأخذت من جيب فيرا صورة لأمها، ودفتر مذكرات صغير مليء بالشعر، وأخذت من كوليا بعض الرسائل.

وأشعلنا أول نار معسكر لنا عميقاً في الغابة، من بعض أغصان الحور الجافة ـ فهي لا تطلق دخاناً. ويمكنك إشعال تلك النار في طبق ما. وكنا خائفين من تأجيج نار كبيرة. ودفئنا أيدينا، وسخَّنا بعض الطعام المحفوظ. كان الشتاء قد أطلَّ من دون ثلوج على الإطلاق، ولذا لم نجد ماءً هناك، فقاسينا الكثير بسبب العطش.

وأرسلتُ في جولة استكشافية تمهيدية. ولم أكد أضطجع على فرع شجرة تنوب فتية حتى جاء بعض الهتلريين يتلكؤون، ووقفوا في جوارها، وعبثوا يتسامرون. ظلوا يتحدثون ويقهقهون، ثمّ ابتعدوا بعد ساعة من الزمن. وتخدرت ساقاي، وجفت شفتاي. لقد ذهبوا أخيراً، فرجعت فارغة اليدين من جولتي الخائبة. وكانت زويا أول من لقيني. لم تسألني شيئاً، سوى أنها لفّت وشاحها حول عنقي وأجلستني قريباً من النار. ثمّ انطلقت إلى ناحية ما، ورجعت تحمل علبة قصدير في يدها، وقالت:

ـ لقد احتفظت ببعض الماء المتجلّد لك. ولقد ذوَّبته الآن، فاشربي.

قلت لها:

ـ لن أنسى هذا ما حييتُ.

فقالت زويا:

ـ هيا، اشربيه.

وتحركت جماعتنا من جديد. وأسرعتْ وزويا في المقدمة فقطعنا حوالي مائة متر في مهمة استكشافية، وخلفنا تتقدم فرقتنا في صفٍّ واحد، لا يفصل الواحد عن الآخر أكثر من متر ونصف المتر. وفجأة، توقفت زويا ورفعت يدها إشارة للجماعة بالتوقف. إن أحد جنود الجيش الأحمر يضطجع قتيلاً على الأرض غير بعيد عن زويا. وتفحَّصناه ملياً. كان الرصاص قد اخترق ساقيه وصدغه. ووجدنا في جيبه مذكرة تحوي هذه الكلمات: «من الملازم روديبونوف من فرقة مقاومة الدبابات. أطلب اعتباري شيوعياً». وطوتْ زويا الصحيفة ودفعتها في جيب معطفها الجلدي الداخلية. كان وجهها بادي الاكتئاب واللوعة، وجبينها عابساً مقطّباً، وخطر في بالي تلك الهنيهة أنها لم تعد تبدو فتاة غضّة بل جندياً سيثأر من الأعداء ثأراً لا رحمة فيه.

وتابعنا السير إلى بيتريشيفو، حيث تعسكر قوة كبيرة من العدو. وقطعنا أسلاك المراسلة في طريقنا. وبلغنا بيتريشيفو عند هبوط الليل. كانت القرية محاطة بغابة متلازّة، فتوغلنا عميقاً فيها، ثمّ أشعلنا ناراً حقيقية. وأمر القائد أحد الشباب بالقيام بالحراسة، بينا تحلَّق الآخرون حول النار. ونهض القمر، مدوراً أصفر اللون... كانت السماء قد ثلجت طيلة أيام. وهنالك شجرات تنّوب ضخمة، هدباء، تواجه الثلج، تلتف بنا من كل جانب.

قالت ليدا:

ـ كنا نلعب بشجرة تنوب مثل هذه في موسكو، في ساحة مانيزنيايا! وأضافت زويا:

ـ مرتدية مثل هذه الثياب أيضاً!

ووقتئذٍ بدأ بوريس يوزع علينا آخر جِرايةٍ معنا. وكانت حصة كل منا نصف كعكة، وقطعة سكر، وكسرة صغيرة من سمكة مجففة. وازْدردَّ الشباب كل حصصهم في لقمة واحدة، بينا كنا نطعم بهدوء شيئاً فشيئاً، نحاول أن نطيل ما استطعنا. والتفتت زويا إلى زميلها، وأعلنت:

ـ إليك، خذ هذه...

ونفحته بالكعكة والسكر.

فرفض أول الأمر، ثمّ قبل...

كنا صامتين، فأعلنت ليديا بولجينيا:

ـ لشدَّ ما أريد أن أعيش!

لن أنسى أبداً صدى هذه الكلمات! ثمة إيمان عظيم فيها يقول إن حياة طيبة طويلة تضطجع إلى الأمام منا. وشرعت زويا تتلو علينا مقطوعات من ماياكوفسكي. لم أكُ سمعتها تنشد شعراً من قبل. كان كل ما يحيط بنا جميلاً: الليل، والغابة المتلثمة بالثلوج، ولهيب النار، وزويا التي تقول في صوت واضح رزين، وتعبيرٍ جليّ:

عَبْر السماء،

تسبح سحب العاصفة،

والأمطار تهطل،

في الظلمة،

وتحت أعواد مشنقة عتيقة

تضطجع أكوام جثث العمال

وتصافح أذنيك

همسة متكبِّرة،

والمياهُ،

تلتف حوالي مهسهسة،

هاهُنا، وفي فترة سنوات أربع،

منذ هذا النهار،

ستقوم حديقة مزهرة،

كنت بدوري أعشق ماياكوفسكي وأعرف هذه الأبيات عن ظهر قلب، ولكن بدا لي أني أسمعها للمرة الأولى:

الأرضُ،

رطبة مندَّاة،

والسلوى،

قليلة قليلة،

والعمال قابعون

في الغسق المعتم،

يمضغون خبزهم المبلول،

بيد أن الوشوشة

قد أغرقتْ جوعَهم وأهجأتْهُ،

إنها تقطر،

شيئاً فشيئاً؛

هاهُنا، وفي فترة سنوات أربع،

منذ هذا النهار،

ستقوم حديقة مزدهرة.

ورنوت حواليَّ فألفيت الجميع يلفهم الصمت، تحملق عيونهم في زويا.

كان وجهها يتورَّد خجلاً، وصوتها يرنُّ أثبَتَ فأثبَت:

أنا أعرف،

أن سيكون هنالك مدينة،

أنا أعرف،

أن حديقتها ستكون فسيحة الجنبات،

بينا هناك،

مثل هؤلاء الناس

في أرض السوفييت!

وصحنا جميعاً، بعد انتهائها من التلاوة:

ـ زيدينا!

فعقَّبت زويا تنشدنا جميع ما تحفظ من شعر مایاكوفسكي. وكانت تعرف الكثير. ولَتؤاتيني الذاكرة الآن كيف ألقت علينا مقطوعة من «بأقوى صوتي» والشعور يعمر قلبها:

ورفعتُ...

كما أرفع بطاقة الحزب البلشفي،

المجلَّدات المائة

للكتب الحزبية.

وهكذا أذكر تلك الليلة: نار المخيم، وزويا، وشعر مایاكوفسكي...

وقال بوريس:

ـ لا بدَّ أنك تحبينه كثيراً!

فأجابت زويا:

ـ أنت قلتَ! ثمة شعراء عديدون «جيدون ومتنوعون»، لكن مایاكوفسكي أحبهم إليَّ.

وبعد ما رُدنا المكان واستطلعناه، سمعتُ حواراً قصيراً بين بوريس وزويا:

ـ ستبقين هنا في عملك.

ـ أرجوك أن ترسلني في مهمة.

ـ الشباب وحدهم يذهبون في مهمات.

ـ يجب أن نتقاسم الصعوبات بالتساوي! أرجوك!

ورنَّت كلمة «أرجوك» وكأنها أمر. فرضخ بوريس أخيراً. وخرجتُ في جولة استطلاعية، بينا انطلقت زويا إلى بيتريشيفو في مهمة. وعالنتْني قبيل مغادرتها:

ـ فلنتبادل مسدَّسَينا. فمسدّسي أحسن من مسدّسك. وأنا أجيد استعمال الاثنين كلّ الإجادة.

وأخذتْ مسدسي الناجانت البسيط، وأعطتْني مسدَّسها نصف الأوتوماتيكي. وما زلتُ أحتفظ به ـ ورقمه 12719، مصنع ثولا، 1935. ولن أفترق عنه لحظة حتى نهاية الحرب.

وآبت زويا من مهمتها وقد تجلَّتْ ـ ليس ثمة طريقة أخرى للتعبير عن ذلك ـ لقد أضرمتْ النار في إسطبلٍ وبيت، وتأمل أن تكون النار التهمت بعض الألمانيين أيضاً. قالت:

ـ أيّ شعور غريب يستولي عليك إذ تقومين بعمل حقيقي!

ـ أفلم تفعلي شيئاً بَعْدُ حتى الآن؟ تذهبين في جولات استكشافية وتقطعين أسلاك المراسلة...

فقاطعتني زويا:

ـ ليس هذا سواء! ليس هذا بكافٍ.

وعادت فذهبت من جديد إلى بيتريشيفو بعد أن أذن لها القائد، وانتظرناها ثلاثة أيام. ولكنها لم ترجع. وأنت تعرفين البقية.

كانت زويا تخبرني دائماً أنك كنت سعيدة جداً وعائلتك بالحياة جنباً إلى جنب، وأنكم لم تفترقوا أبداً. ولذا ثبت في فكري أن هذا القليل الذي سأقصه عليك سيكون عزيزاً على قلبك. ولئن لم تتح لي معرفة زويا إلّا شهراً واحداً، فإني أنظر إليها، مثلي مثل سائر أفراد فرقتنا، على اعتبارها أفضلنا جميعاً، فهي فتاة من أنقى الناس الذين عرفناهم وأصفاهم قلباً.

لقد رأيت ولدك أيضاً يوم قدمت إلى بيتريشيفو. كان يقف إلى جوارك أمام ضريح زويا. أخبرتني زويا مرة:

ـ أنا وشقيقي على طرفي نقيض، فكلٌّ يتمتع بشخصية مختلفة عن الآخر.

بيد أنني رنوتُ إلى شورا وتبيَّنت أنها خاطئة. إنّي لَأستطيع استعادة رؤياه واقفاً هنالك، ميت العينين، يُحملق في زويا ويعضُّ شفته.

ما أعجز كلماتي عن تعزيتك! ولأؤمن أن ليس ثمة كلمات تواسيك في حزنك الطاغي. إلا أني أودّ معالنتك بهذا الشيء: إن ذكرى زويا لن تموت، ولا يمكن أن تموت. إنها تعيش بيننا. إنها ستنفخ روح الحماسة في قلوب الآخرين ليهبّوا للنضال. وستنير مآثرها الطريق للآخرين. ولسوف يبقى حبّنا، حب بناتك وأبنائك في أرضنا كلها، معك إلى الأبد، أيتها العزيزة، ليوبوف تيموفييفنا...».

كلافا ميلورادوفا

* * *

وحمل الراديو، بُعيد أيام معدودات من رحلتي إلى بيتريشيفو، أنباءً تفيد أن زويا مُنحت لقب بطلة الاتحاد السوفييتي بعد وفاتها.

وغدوت ذات صباح من أوائل شهر آذار إلى الكرملين لاستلام شهادة زويا. كانت ريح دافئة تهبُّ على وجهي، وأنا أفكر في أمرٍ أمسى عادةً سيئة بالنسبة إليَّ وإلى شورا، شيء يصاحب أفكارنا وأعمالنا: «إن زويا لن ترى هذا. كانت تحب الربيع وتهواه. وهي الآن يغيّبها التراب الرطب. ولن تسير عبر الساحة الحمراء مرة ثانية».

ولم أنتظر طويلاً. دعيت إلى غرفة عالية فسيحة. ولم أتبين بادئ ذي بدء أين أنا، وفجأة أبصرت رجلاً يهب عن مقعده.

وخطر لي على حين فجأة:

ميخائيل إيفانوفيتش كالينين!

نعم، كان ميخائيل إيفانوفيتش قادماً صوبي، وجهه مألوف كل الألفة. لكم رأيته على منصة الضريح التذكاري. وعيناه المتغضنتان تبتسمان أبداً. لكنهما الآن تهرقان الحزن والقسوة، وقد ابيضّ شعر رأسه تماماً. وبدا لي وجهه متعباً كل التعب... صافحني بكلتا يديه، وتمنى لي صحة طيبة بصوت هادئ حنون. ومن ثمّ ناولني الشهادة.

سمعت إليه يقول:

ـ ذكرى لمصير ابنتك العظيم!

ونقل جثمان زويا بعد شهر إلى موسكو ودفن في مقبرة نوفوديفيشي. ورفع نصبٌ عالٍ فوق الضريح ونقشت على رخامه الأسود كلمات نيقولاي أوستروفسكي، الكلمات ذاتها التي خطّتها زويا مرة كشعار ورمز، كأمر ووصية، في مفكرتها، والتي حققتها بحياتها القصيرة وموتها:

«إن الحياة هي أثمن ما يملك الإنسان، وهي لا تُعطى له كي يعيشها سوى مرة واحدة.

وينبغي له أن يعيش بحيث لا يحسّ أسفاً معذباً على السنوات التي ضاعت من دون هدف، فإذا ما عاش هكذا يستطيع أن يقول، وهو يموت: إن حياتي كلها، وقواي كلها، أعطيت لأنبل قضية في العالم بأجمعه ـ ألا وهي النضال في سبيل تحرير الجنس البشري».

شورا

تلك كانت أيام كآبة مُرة بالنسبة إلى شورا وإليّ. ولم نعد ننتظر، فنحن نعرف أن ليس ثمة ما ننتظره. كانت حياتنا من قبل حافلة بأيماننا أننا سنلقى زويا من جديد ونعتنقها، وحين كنا نذهب إلى صندوق البريد كنا نتطلع فيه بأمل: لربما يحمل لنا أخباراً عن زويا. ولكننا نعبر به الآن ولا نعيره التفاتاً ـ إذ ندري أن ليس ثمَّ شيء لنا، ليس شيء يمكن أن يحمل لنا الفرح.

ووردتنا رسالة حزينة من غابات الرجاج، من والدي. لقد أرهقه موت زويا: «لا أستطيع أن أصدق ذلك. إنسان عجوز مثلي يعيش، وزويا تذهب». ليعجّ الحزن الطاغي الذي لا يقبل عزاءً في هذه الكلمات! كانت الرسالة بأسرها مبقَّعة بالدموع، بحيث لم أستطع أن أتبين بعض الأحرف.

وغمغم شورا لدى قراءته رسالة جدّه:

ـ ما أشدّ أسفي على ذينك العجوزين.

إن شورا الآن دعامتي الوحيدة، الشيء الوحيد الذي بقي لي في الحياة. حاول إعطائي أقصى ما يستطيع إعطاءه من وقته. هذا الذي كان يخجل قبلاً من أية إشارة «حنان» قد أضحى الآن ودوداً محباً. وغدا يخاطبني بقوله: «أمي حبيبتي»، رغم كونه امتنع عن مناداتي هكذا منذ بلوغه الخامسة. وشرع يلاحظ ويرى أموراً كانت تفلت من عينيه قبلاً. ولقد طفقت أدخن، فإذا هو يلاحظ أن كل لفافة أشعلها تعني أني أقاسي من احتباس عبراتي، ويراني أفتش عن علبة لفائفي، فيختطف نظرة سريعة إلى وجهي، ويطفُّ مني:

ـ ما الأمر؟ هيا، هيا، ارفعي ذقنك! أرجوك، يا أماه...

وهو يعرف دائماً الليلة التي يفرُّ فيها النوم من درب عينيَّ. فينهض، ويقتعد حافة سريري، ويداعب يدي في صمت. وإذ يغيب عن الدار أستشعر الوحشة واليأس... لقد أمسى شورا ربّ الدار الآن.

وهو يعود بعد الدروس (لقد افتتحت المدرسة أبوابها) تواً إلى البيت، فيقعد إلى كتابه إن لم يكن ثمة غارة جوية. ولا أخمر عن باله أثناء قراءته، فهو ينادي بلطيف نغمة:

ـ أُميمة!

ـ نعم، شورا...

فيستدير من جديد إلى كتابه. ويسأل بين آن وآن:

ـ أنائمةٌ أنت؟ إليك، فاسمعي...

ويتلو عليَّ السطور التي راقته.

قال مرة، وكان يقرأ رسائل الفنان كرامسكوي:

ـ ما أصدق هذا: «إن أثمن موهبة لدى الفنان من قلبه!»، وهكذا أفهم الأمر بدوري: يجب ألّا يكون المرء قادراً على الإبصار فحسب ـ هذا لا يكفي! الشيء الأساسي هو أن يفهم ويشعر...

وطفق يبيّن لي فجأةً:

ـ آه، يا أمّ! لو تدرين كيف سأتابع دراستي بعد الحرب!

واستوضحني مرةً ثانية:

ـ أغافيةٌ أنت؟ أيمكنني فتح الراديو؟ أظنُّ فيه بعض الموسيقى.

فأومأت بالإيجاب. فما أسرع أن غمرت الغرفة نغمات فالس من سيمفونية تشايكوفسكي الخامسة.

إن أقلّ شيء ليعدّ امتحاناً لنا هذه الأيام، وكان هذا امتحاناً أيضاً. لكم أحبت زويا سيمفونية تشايكوفسكي الخامسة! أصغينا في هدوء، ونحن نخشى التنهد بصوت عال، نخشى أن تقطع صفارة الإنذار أنغام الموسيقى، رغم كوننا لا نستطيع سماعها إن صفرت...

وقال شورا، بعدما ماتت آخر نغمة من الفالس، في اقتناع عميق:

ـ أنا واثق أنهم سيعزفون نهاية السمفونية الخامسة يوم النصر، ما رأيك؟

ومرت الأيام...

وتقهقر العدو عن موسكو، لكن بعد مقاومة عنيفة. واحتل الألمان بيلاروسيا، وقسماً كبيراً من أوكرانيا، وحاصروا لينينجراد، واندفعوا صوب ستالينجراد. كانوا يحرقون ويقتلون كل ما يصادفهم، كانوا يُعذبون ويضطهدون، ويعدمون، ويشنقون، ويصلبون. لقد شحبت جميع تصوراتنا السابقة عن العذاب والوحشية عندما قارنَّاها بما تعلّمناه خلال هذه الحرب. كانت الصحف تُيبِّس يديك وقلبك، والمذياع يحمل إليك أخباراً تجعلك تلهث وتصارع من أجل التنفس...

وكان شورا يطحن أسنانه وهو يصغي إلى أنباء مكتب المعلومات السوفييتي، ومن ثمّ يراوح وينادي في الغرفة صامتاً مدة طويلة، وقد قطَّب حاجبيه، وضمَّ قبضتيه.

وكان رفاقه يزورونه من حين لآخر: فولوديا يوربيف الأهيف، ابن ليديا نيقولاييفنا التي كانت أستاذة زويا وشورا في الصف الرابع، ويورا برودو الذي أعرفه، وفولوديا تيتوف، وصبيٌّ آخر لا أذكر اسمه الأول، كنيته نيديلكو. وطفقوا ينادونه أكثر فأكثر، ولا أكاد أطلَّ عليهم حتى يلجؤوا إلى الصمت ويسرعوا في الذهاب.

ـ فيم يذهب الشباب سريعاً وقتما يرونني؟

فقال شورا مراوغاً:

ـ لأنهم لا يريدون إزعاجك.

من سائر أنحاء الوطن

ذات يوم، بينا كنتُ أتناول صحيفة الصباح من علبة البريد، تساقطت عدة رسائل عند قدميَّ. التقطتها وفتحت الرسالة الأولى التي وقعت بين يديَّ ـ مغلَّف مثلث الزوايا من الميدان، من غير طوابع، ملوَّث عند أطرافه ـ وقرأت:

«أمّنا العزيزة...».

فإذا الدموع تتدحرج على وجنتيَّ...

كانت رسالة من قوم لا أعرفهم، بحَّارةٌ من أسطول البحر الأسود، حاولوا تعزيتي في مصابي، ونعتوا زويا بشقيقتهم، ووعدوا بالثأر لها.

ومنذ ذلك اليوم والبريد يحمل إليَّ الرسائل كل نهار. أيُّ مكان لم تأتِ التحارير منه! من سائر جبهات القتال، ومن أنحاء الوطن قاطبة، تمتد أيادٍ صديقة دافئة صوبي وصوب شورا، وتلتف إلينا قلوبٌ لا حصر لها. كانت الرسائل ترد من الصغار والكبار جميعاً، من أمهات فقدن أولادهن في الحرب، من صغار قتل الفاشيون آباءهم، ومن رجال يحاربون الآن في ساحات الوغى. جميع هؤلاء يرغبون في تخفيف حزننا بمشاركتهم لنا فيه.

كنتُ قد جُرحت وشورا جرحاً رديئاً. ولم يكُ ثمة ما يستطيع شفاءً لذينك الجرحين. ولكن ـ ولست بقادرة على الإعراب عن ذلك ـ الحب والعطف اللذين يملأان كل رسالة قد بعثا الدفء في قلبينا. لسنا وحيدين إذن في مصابنا! وهنالك العديد من الناس يحاولون تخفيف بلائنا بكلمة حنون مخلصة ـ وهذا يعني الكثير، هذا يساعدنا كثيراً!

ولم تمضِ فترة وجيزة على استلامي المجموعة الأولى من الرسائل، حتى سمعت قرعاً خفيفاً على باب غرفتنا، ودخلت منه فتاة غريبة. كانت طويلة القامة، هيفاء، ذات وجه

أسود، وشعر قصير، وعينين نجلاوين ـ رغم كونهما زرقاوين لا شهباوين ـ ذكرتني طلعتها بزويا. ووقفت خجلى أمامي، تدعك وشاحها بيديها.

قالت مترددة، وهي ترنو إليَّ مطرقة من تحت أهدابها الوطف:

ـ أنا من معمل الذخيرة. وأنا... يعني أعضاء كومسومولنا... جميعنا نودّ من قلوبنا أن تأتي إلى أحد اجتماعاتنا وتحدّثينا عن زويا. أرجوك، تعالي! أعلم كم يصعب عليك هذا، ولكننا...

فقلت إني لا أستطيع أن أتكلّم، لكنني سأحضر الاجتماع.

وخرجت عشية اليوم التالي قاصدة العمل. كان في ضواحي موسكو، تحيط به مجموعة من البيوت نصف المهدمة.

وأوضحت لي دليلتي الأمر باقتضاب، جواباً على سؤالي الأخرس:

ـ لقد سقطت قنبلة هاهُنا، وشبَّ حريق هائل...

كان الاجتماع قد بدأ لما دخلنا نادي المصنع. وكان وجه زويا أول من استقبلني يطلُّ عليَّ من الحائط خلف منصة الرئيس. جلستُ في إحدى الزوايا صامتة، وجعلتُ أسمع.

كان شاب يخطب. وكان يقول إن المشروع لم يُنجز رغم مرور شهرين. وكان يتكلم غاضباً، متهيجاً. ثمّ علا المنصة شاب آخر، أكبر من الأول سناً... قال هذا إن ثمة أيادي قليلة الخبرة في المخزن، وإن كل آمالهم تتعلق بطلاب مدرسة التجارة.

ودفَّ صوت من آخر القاعة يقول:

ـ لكن الجوّ متجمِّد! فالمخزن كالقبو في رداءته! وإنّ يداك لَتتجمَّدان إذا ما مسَّتا شيئاً معدنياً.

فصاحت مرافقتي، وقد استدارت بحدة:

ـ يا للعار!

فانتصبتُ بدافع مفاجئ وسألت السماح لي بالكلام. فدعوني إلى اعتلاء منصة واطئة، وبينا كنت في طريقي إليها صافحتْ عينا زويا عينيَّ. وها هي ذي صورة زويا خلفي الآن، منحرفة بعض الشيء إلى جانب واحد، وكأنها واقفة عند مرفقي تشجعني. ولكنني لم أفُهْ بكلمةٍ واحدة تتعلق بها.

قلتُ:

ـ إن أخواتكم وإخوانكم يضحّون بحياتهم في الميدان كلّ يوم وكل ساعة. إن لينينجراد جائعة... وفي كل يوم يموت جموع من الناس بقنابل الأعداء...

كلا، لن أحاول استعادة ذكرى ما قلت يومذاك، لست أتذكر الكلمات. لكن أعين الشباب، المثبَّتة فيَّ، دلَّتْني أني أقول الحقيقة.

ومن ثَمّ أجابوني، باقتضاب وعزم...

قال الخطيب الأول:

ـ سنعمل بجد ونشاط لا يعرفان فتوراً!

وقال آخر:

ـ وسنطلق على لوائنا اسم زويا.

ولم يمضِ شهر واحد، حتى خاطبوني بالهاتف من المعمل:

ـ نحن ننجز مشروعنا الآن، يا ليوبوف تيموفييفنا.

ومرَّ في بالي أن التنفيس عن حزني وجزعي معناه نسيان ذكرى زويا. لن يكونَنَّ استسلام، ولن يكونَنَّ جَزَع! لا يحقّ لي أن أقطع الرجاء! يجب عليَّ أن أعيش. يجب عليَّ أن أحارب في سبيل المستقبل، في سبيل سعادة شعبي.

كان الحديث إلى الناس، وخاصّة إلى جمهور غفير، يصعب عليَّ كل الصعوبة... بيد أنّي لا أستطيع الرفض إذا ما وُجِّهَت الدعوة إليَّ، وهذا ما كان يحدث أكثر فأكثر... لم أكُ أجسُر على الرفض لأنني فهمتُ هذا: إذا كانت كلماتي تقدم بعض المعونة، إذا كانت تبلغ الجماهير، وتهيّج الشبيبة، إذا ما استطعتُ أن أُسهِم، مهما تكن مساهمتي متواضعة، في القتال العظيم ضدّ الأعداء ـ فواجبي يدعوني إلى ذلك.

وداعاً، يا شورا

ـ أين كنت، يا شورا؟ ما الذي أعاقك حتى الآن؟

ـ آسف، يا أمي العزيزة، اغفري لي، أرجوك. لم أستطع الامتناع عن ذلك.

وطفق شورا يعود إلى البيت متأخراً أكثر فأكثر كل يوم. لا ريب أن ثمة ما يزعجه، فهو يفكّر كثيراً في ذلك الشيء طوال الوقت. ماذا يجول في خاطره؟ إنه لم يخبرني. لم نعتد على سؤال بعضنا بعضاً. كنا نتقاسم أفكارنا الباطنية من دون انتظار أية استفزازات. هكذا اعتدنا على الدوام. فلِمَ هو ملتفٌّ بصمته الآن؟ ماذا حدث؟ ماذا يخبِّئ لنا أيضاً؟ لربما وردت رسالة ما من غابات الرجاج؟ هل العجوزان في أوفر صحة؟ وعزمتُ على استفسار شورا عن كل شيء.

كنت أنظف الطاولة يوم اتخذت هذا القرار، فأطرت قطعة من الورق كانت موضوعة عليها. انحنيت والتقطتها. كان شورا قد كتب عليها بخطه تلك الأسطر المنظومة عن سائق الدبابة الذي مات، كالرئيس جاستيللو تماماً، بعد أن أطاح بالعدو بدبابته المتأججة:

زمجرت الدبابة على طول الأخدود،

وانعقدت سحب الدخان خلفها تدوِّم عاصفة،

في أكاليل من الدخان الأسود الخانق.

واندفعت كالسيف يبغي أخذ الثأر،

آونة هاهُنا، وأخرى هنالك،

تقتحم صفاً من عربات النقل

ذُبح الألمان بينها.

وهرول على طول الخنادق

سريعاً بحيث لا تلحقه العين بنظراتها،

فطالما أنّه اكتسب ياردة من هذه الأرض

فهو لن يردّها في الغداة مطلقاً.

ورغم أنّه هلك بين ألسنة النيران

فإنَّ مجدَه يتضوَّأُ إلى الآفاق.

إنه يعيش ما دامت نجمتنا السوفييتية

تضيءُ محفورةً على أبراج دبَّاباتنا.

بينا كنتُ أقرأ هذه السطور أحسست شيئاً كنت أخاف كثيراً أن يدنو تفكيري منه: أنّ شورا سيذهب! سيذهب إلى الجبهة، وليس شيء، ليس شيء يحول دونَ ذلك. ولكنه لم يخبرني بشيء من هذا، ولا كلمة واحدة، وهو لم يبلغ السابعة عشرة بعد، بيد أني أعرف: إن ذهابه واقعٌ لا مفرَّ منه.

ولم أكُ خاطئة. سمعت ذات عشيةٍ بعد عودتي لغطاً وصخب مناقشة حامية تنطلق من غرفتنا، وما كدت أفتح الباب حتى وجدت الخمسة ـ شورا، وفولوديا يوريف، وفولوديا تيتوف، ونيديلكو، ويورا برودو ـ جالسين في الغرفة، وكلٌّ يدخّن لفافة حملها بين شفتيه، والغرفة غاصة بدخان التبغ. ولم أكُ حتى ذلك الوقت قد رأيت شورا يدخّن.

سألت:

ـ ماذا يجري هنا؟

فردَّ شورا متمالكاً نفسه، وكأنه يصمِّم شيئاً:

ـ إن الجنرال نفسه قد دعانا... نحن... سنذهب إلى مدرسة إيليانوفسك لتدريب الدبابات، وأنت تعرفينها. لقد قبلونا هناك.

فتهالكتُ صامتةً على أحد المقاعد.

وقال شورا ذلك الليل، وقد جلس على حافة سريري:

ـ أمّي حبيبتي، أرجوك، حاولي أن تفهمي! الغرباء يكتبون لك قائلين: سننتقم لزويا! وأنا، أخوها القحّ، أبقى لائذاً بالبيت؟ فكيف أتطلع في وجوه الناس إذن؟

بقيت صامتة، ما دمت لم أجد كلمات أوقف فيها زويا عن الانطلاق، فأية كلمات ألقي الآن...؟

وفي الأول من أيار 1942 ذهب شورا...

قال عن أصدقائه:

ـ إن أحداً من الأهلين لن يودّعهم. وكذلك أنت. وإلا سيكون الأمر شاقاً جارحاً. حسناً؟ تمنّي لي رحلةً طيبة فقط!

فأومأت برأسي، إذ غصَّتْ الكلمات في حلقي. وعانقني ولدي، وقبَّلني بشدة، ثمّ ذهب... وأغلق الباب، فخُلِّفتُ وحيدة وحيدة هذه المرة...

وبُعَيد أيام عدة جاءتني رسالة من غابات الرجاج. لقد توفِّيَتْ والدتي، كتب والدي يقول: «لم تستطع الحياة بعد موت زويا!...».

أخبار من أوليانوفسك

كان شورا يكتب إليّ كل يوم تقريباً. وقد ألحق بالفصيل ذاته الذي ألحق به رفاقه، فأطلق عليه مازحاً لقب «فرع أوليانوفسك من الصف العاشر لمدرسة موسكو رقم 201».

كتب يقول في إحدى رسائله:

«أخشى أني لا أصلح لشيء على الإطلاق! فلست أستطيع حتى الاحتفاظ بمكاني من الصف أثناء السير. اليوم، مثلاً، دستُ على عقب رفيقي. ولا أستطيع تحية القائد، بالإضافة. وهم لا يضربونني على رأسي من أجل هذا!».

ومرَّ الوقت، فكتب في رسالة ثانية يقول:

«لقد تعبتُ، فأنا لا أحصل على كفايتي من النوم وأعمل كالنمر. لقد درست البندقية والقنبلة والمسدس دراسة جيدة. خرجنا ذات يوم إلى الفضاء، حيث أطلقت النار من إحدى الدبابات. ولم تكن نتيجة إطلاقي سيئة أبداً إذا اعتبرنا الأمر بداية ليس غير. وحصلتُ على درجة ممتازة في الإطلاق على الهدف من الدبابة بالبندقية والرشاش عن بعد 400 و500 مترا! أنت لن تعرفيني الآن. فأنا أحيّي القائد بصورة حسنة جداً، وفي إمكاني السير بتوافق مع خطوات بقيّة الرفاق».

وعشيّة ليلة الامتحانات جعل شورا يرجوني في كل رسالة:

«أمّي، إذا استطعت احصلي لي على حزامٍ عريض، مع حزام كتف إذا أمكن».

وقال بعد عدة أيام:

«حاولي جهدك، يا أمي! أي صنف من الضباط أكون إن كان حزامي رديئاً!».

وكان في مقدوري أن أرى خلال هذه السطور عيني شورا الصغير المتضرعتين. لقد اعتاد، عندما كان طفلاً، أن يتبع الطريق عينها بالضبط، وأن يستعمل الكلمات ذاتها، إذا ما أراد شيئاً.

وها إن لديَّ الآن قرابة مائة رسالة من شورا منثورة أمامي، منذ الرسالة الأولى حتى الأخيرة... فأتمكن من رؤية صغيري، وأنا أقرؤها، كيف يشبّ من مرحلة الطفولة إلى الشباب.

وجاءتني ذات يوم هذه الرسالة:

«أمي، إن دراستي في مدرسة التدريب قد حان ختامها ـ سيبدأ الامتحان في الأول من تشرين الثاني. إني أتعب، ولا أنام كفايتي، إلا أنني أتابع العمل. ثمة فارق بيني وبين رفاقي، فبقائي هنا نصف المدة التي قضوها هم جعلني أتأخر عنهم... ستكون هذه الامتحانات ذات تأثير بالغ في حياتي. سوف أتحكم في جميع قواي، وكل انتباهي، لأن البلاد في مسيس الحاجة إلى تلقي ملازم خبير في شؤون الدبابات. لا هو بالملازم الصغير ولا هو بالرقيب الكبير. ولتعلمي أن هذا ليس تفاخراً أو خيلاء. إنما يجب عليَّ عمل ما في طاقتي لأكون أكثر نفعاً، وأكثر فائدة، لقد قرأت كيف حرق الفاشيون قرانا وبلداتنا، وكيف عذبوا النسوة والأطفال، وأذكر كيف عذبوا زويا، فلست أريد بالمقابل إذن غير شيء واحد: الذهاب إلى الميدان بأقصى سرعة مستطاعة».

وفي رسالة أخرى:

«أمي، هلّا أصغيتِ: لقد انتهى الامتحان الأميري، وحزت على درجة ممتاز في المواضيع الميكانيكية، وممتاز في المدفعية، وممتاز في فن الحركات الحربي والطوبوغرافيا العسكرية...».

وكان في نهاية هذه الرسالة الفخور الطافحة بشراً حاشيةٌ تقول:

«لقد استلمتُ رسالةً من جدّي ـ إنه مريض ووحيد».

جلست ذات أمسية دافئة من أماسي الخريف إلى النافذة أنفذ بصري منها إلى الشارع. وقد استلقت أمامي عدة رسائل يجب الإجابة عليها، وأنا لا أستطيع انتزاع بصري عن السماء الصافية النيرة. وعلى حين غرة، أطبقت على عينيَّ يدان عريضتان دافئتان...

ولم أستطع إلا أن أصيح:

ـ شورا!

فأجاب ضاحكاً:

ـ لم تسمعي قرع الباب، ولا حتى كيف فُتح. كنت واقفاً بالباب أرنو إليك وأنت جالسة هنا!

وعاد فغطى عينيّ بيديه (لربما يريد أن يسهِّل عليَّ الإصغاء إلى ما سيقول)، ونبر:

ـ جئتُ أقول لك وداعاً. سأنطلق إلى الميدان غداً.

كان رجلاً كبيراً، قد عرضت كتفاه، في حين حافظت عيناه الزرقاوان على طفولتهما الجذلانة الصاخبة.

ومرةً ثانية. عشت ليلة مغمومة حزينة قلقة لا تُنسى. ونام شوراً وشرع يشخر، وقد وضع إحدى يديه تحت خده، وبقيت يقظى أشخص إليه، ولا أقوى على انتزاع عينيَّ من وجهه. كنت خائفة من التفكير في أن الليل سينتهي. واستيقظ الفجر على عادته، ونهض شورا، واغتسل وارتدى ملابسه بسرعة، واشتفَّ قدحاً من الشاي في رشفة واحدة، وقال وقد حاذاني، كما يفعل دوماً:

ـ لا تريني أغادرك. اعتني بنفسك. ولا تقلقي من أجلي.

فأجبتُ في صعوبة:

ـ كن صادقاً... ثابتاً... واكتب لي دائماً...

مراسل حربي

مرَّ شهر على رحيل شورا، ولم تأتني أية رسالة. كنت خائفة من ذهابي إلى علبة البريد ـ كنت أخشى على الدوام أن أتلقى أنباء هائلة من تلك العلبة...

تلك كانت أياماً صعبة، تعج بآلام طاغية لم أقاسها حتى بعد ذهاب زويا. لم أكُ أعرف عندئذٍ معنى فقدان فلذة الكبد. أما الآن فإني أعرف.

كان رعبي في بعض الأحيان يقسو ويشتد بحيث أحاول الفرار منه، وكأن من السهل أن يهرب المرء من ذاته، ومن أفكاره. فاعتدت السير في الشوارع، أحاول إنهاك نفسي حتى أتهالك نائمة لدن رجوعي إلى الدار. ولم أكُ أنجح في هذا إلّا في النَّدرى. ولئن اجتزتُ شوارع عديدة، وقطعت أميالاً لا حصر لها، فلا يرنِّق النوم في عينيّ خلال الليل، بل أبقى ساهرة مفتوحة العينين.

وكنت أذهب غالباً إلى مقبرة نوفوديفيتشي لزيارة ضريح زويا. وكنت، ذات مرة، أدنو من الضريح حين وقعت عيناي على رجلٍ عريض المنكبين من ضباط الجيش يقف في جواره. وما كدت أقترب منه حتى استدار. كان في حوالي الخامسة والثلاثين، ذا وجه حلو طلق، وعينين شهباوين صافيتين ثاقبتين. ولاح لي أنّه يود مخاطبتي. فتطلعت إليه متسائلة، ولكنه ابتعد بعد لحظة تردُّد وحيرة. وصرفته من فكري، بيد أنني لقيته ثانية وأنا أغادر المكان واقفاً إلى جوار الممشى، وكان قادماً إليَّ.

سأل متردداً:

ـ ليوبوف تيموفييفنا؟

فأجبته دهِشَةً:

ـ نعم.

فقدّم نفسه إليَّ:

ـ اسمي ليدوف.

إنني لم أنسَ ذلك الاسم. إنه ليدوف، ذلك الذي كتب تلك الأسطر المشهورة في البرافدا ـ القصة التي تصف تانيا، النصيرة الفتاة، وكيف ماتت...

هززت يده مسرورة. ومشينا على مهلتنا عبر الممشى في اتجاه البوابة.

قلتُ برنة حارة:

ـ ما أشدَّ سروري إذ التقينا. كنت أودّ لقياك منذ زمن بعيد...

وغرقنا في حديث طويل وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات عديدة. فأخبرني كيف سمع بادئ الأمر عن زويا، وكان يقضي الليل في كوخ صغير نصف مهدّم قرب موجايسك. كان الجنود قد أووا إلى مضاجعهم حين دلف إلى الكوخ شيخ عجوز يطلب الدفء. وارتمى على الأرض قريباً من ليدوف.

قال ليدوف:

ـ لم يستطع العجوز نوماً. كان يئن ويزفر أشبه بإنسان مضطرب مشوَّش البال. سألته: «إلى أين تقصد؟ ماذا دهاك؟».

وساعتئذ قصَّ العجوز على ليدوف الأنباء التي سمعها عن فتاة شنقها الهتلريون في قرية بيتريشيفو. لم يكُ يعرف شيئاً من التفاصيل الدقيقة، بل ظل يردّد: «كانوا يشنقونها، وكانت تخطب في الحضور...».

فنهض ليدوف على الفور قاصداً بيتريشيفو. ومنذ ذلك اليوم حتى انقضاء عشرة أيام لم يسترح حتى عرف جميع التفاصيل عن موت فتاة مجهولة سمّت نفسها تانيا. ولقد اعتاد النطق بالحقائق لعلمه أن الحقائق تتكلم بصوت جهوري أكثر من أي حديث يمكن لصحفي أو كاتب أن يخترعه.

واستفهمْتُ:

ـ لِمَ لَمْ تحضرْ لرؤيتي؟

فأجاب بصراحة:

ـ كنتُ أخشى أن يكون ذلك شاقّاً عليك.

ـ هل بقيتَ في الجبهة طويلاً؟

وهنا افترَّ ثغره عن ابتسامة للمرة الأولى. ابتسامة صافية شبعى أضاءت ملامح وجهه بأسره، قال:

ـ أنا في الجبهة منذ الساعة الأولى للحرب، حين لم يكن أهالي موسكو أنفسهم يعلمون عنها شيئاً. ولقد ألفاني اليوم الثاني والعشرون من حزيران في «مينسك»، مراسلاً لجريدة البرافدا...

وتبسّم من جديد، وهو يتذكر كيف أعطي في مكتب البرق، أثناء لجوئه من إحدى الغارات الثقيلة، برقية وردت من موسكو في اليوم الفائت.

كانت برقية سالمة تماماً. كان رؤساء التحرير يريدون من ليدوف الكتابة عن الاستعدادات لحملة الحصاد. ودفع البرقية في جيبه وانطلق بسيارته إلى الوحدة التي تستعد لمعركة الدفاع. وكانت شوارع «مينسك» مغمورة باللهيب، والقنابل تَسّاقط في كل مكان.

وبعث ليدوف ذلك اليوم برسالة مستعجلة إلى البرافدا، ولكنها لم تكُ عن حملة الحصاد.

أطلعني على هذا ببساطة تامة، وبكلمات معدودة. وكنت أفكر وأنا أسير إلى جانبه: «قد تصاحب إنساناً سنين عديدة وتعجز مع ذلك أن تقول شيئاً عنه. ولقد قضيت أقلّ من ساعة مع ليدوف، لم يحدثني أثناءها عن نفسه إلّا القليل، ولكنني عرفت أشياء وأشياء عن شخصه. عرفت الشيء الأساسي. عرفت أنّه شريف مستقيم، وشجاع رصين، وأنه يضبط زمام نفسه جيداً في جميع الحالات فلا يضيع رأسه. عرفت أن الكلمات في الجبهة لا تفيد بقدر الأعمال، وأنه يعلِّم بمجمل سلوكه من يلتفّون به كيف يكونون هادئين ثابتين راسخين».

توجه إليَّ بالقول، ونحن نفترق:

ـ سأذهب إلى الميدان غداً.

وأضاف بهدوء:

ـ وسأكتب بعد الحرب مباشرة كتاباً عن زويا.

خمس صور

وضعني يوم الرابع والعشرين من تشرين الأول عام 1943 موضع تجربة جديدة. نشرت صحف ذلك النهار خمس صور وجِدَتْ في جيب أحد الضباط الهتلريين الذي قتله الجنود الحمر في قرية «بوتابوفو»، بالقرب من «سمولنسك». لقد صوّر ذلك الجرماني مقتل زويا، صوّر اللحظات الأخيرة من حياتها. رأيت المشنقة تحيطها الثلوج من كل صوب، ورأيت فتاتي، زويا، بين الجرمانيين، واللوحة التي كُتب عليها «حارقة البيوت» معلقة على صدرها، وأولئك الذين عذبوها وقتلوها.

منذ بلغ سمعي خبر موت ابنتي وأنا قلقة، في الليل والنهار، لفكرة واحدة: ماذا كان شعورها، بماذا كانت تفكر وهي تقوم برحلتها الأخيرة الرهيبة؟ لقد رمَضَني اشتياقٌ قانط: فيمَ لم أكن معها لحظة احتاجتني أكثر من أي وقت آخر؟ فيمَ كنتُ عاجزة عن نجدتها في هنيهاتها الأخيرة بكلمة أو نظرة؟ وها هي ذي الصور الخمس تلوح الآن وكأنما تنقلني مع زويا في رحلتها الأخيرة. والآن، وبأمّ عينيَّ هاتين، أراهم يقتلونها، كنت هنالك بنفسي، ولكن كان الوقت قد فات... بدت الصور وكأنما تصيح: «انظري كيف عذبوها! انظري. وكوني شاهدة صامتة على قتلها! عيشي من جديد، تلك الآلام كلها. آلامها وآلامك...».

هنالك كانت تسير، منهكة عزلاء، لكن أية قوة وكبرياء تنمُّ عنهما انحناءة رأسها القليلة! إنها لا تكاد تلاحظ وجود الجلادين في تلك اللحظات الأخيرة. فيمَ كانت تفكر؟ أكانت تهيئ نفسها للموت؟ أكانت تستعيد ذكريات حياتها القصيرة السعيدة...؟

لا أستطيع سبيلاً إلى الكتابة عن هذا... فلْيرَ الذين يقرؤون هذا الكتاب إلى صورة الألمانيين، وليقرؤوا وجه زويا. ولسوف يرون أن زويا هي المنتصرة. هؤلاء قتلتها يبدون صغاراً أمامها. بينا فيها كلُّ شيء سامٍ، جميل، طاهر، كل ما هو إنساني، كل حقيقة العالم وصفائه، هذه الأشياء التي لا تموت ولا تفنى، التي لا يمكن أن تموت أو تفنى. أمّا هم ـ هم ليسوا بإنسانيين. هم ليسوا بشراً. هم ليسوا حيوانات أيضاً. هم فاشيّون. وهم ملعونون أحياء كانوا أو أمواتاً، اليوم، وغداً، وبعد ألف من السنين، ستكون أسماؤهم، وحتى قبورهم، بغيضة دنيئة في أعين البشر.

«أريد أن أعيش!»

إلى الآن لم أستلم من شورا أية كلمة...

فتحت جريدة البرافدا بعد قصة الصور بفترة قصيرة، فوجدت رسالة على صفحتها الثالثة:

«جيش الميدان، السابع والعشرون من تشرين الأول (برقياً). وحدات الفصيل «س» مشتبكة في معارك حامية، تبيد بقايا فرقة المشاة الألمانية السابعة والتسعين بعد المائة، الضباط والجنود الذين قاموا في تشرين الثاني من عام 1941 في قرية بيتريشيفو بتعذيب وقتل النصيرة الجريئة زويا كوسمودميانسكايا. إن الصور الخمس المنشورة في البرافدا عن قصتها قد أهرقت موجة طاغية من السخط بين الجنود والضباط. وهاهُنا شقيق زويا ـ الملازم كوسمودميانسكي ـ العضو في الكومسومول وضابط الدبابات، يقاتل ببسالة ليثأر لأخته. وكان جنود الدبابة «137»، تحت إمرة الرفيق كوسمودميانسكي، أول من اخترق صفوف دفاع الأعداء في المعركة، يصوبون حممهم ويحطمون الهتلريين. المقدّم ج. فيرشينين».

شورا على قيد الحياة! وهو يثأر لأخته! هو يحطم أولئك الهتلريين أنفسهم، الذين عذبوا زويا وقتلوها...

ومرة ثانية عدت أستلم رسائل جديدة ليس من «أوليانسك» المسالمة هذه المرة، بل من قلب معمعان المعركة الدائرة.

وأفقت في الأول من كانون الثاني عام 1944 على جرس باب الدار يقرع.

صحتُ متعجبة:

ـ من ذا يكون؟

فتحت الباب ووقفت متحجّرة لشدة المباغتة: إن ولدي، شورا، يقف على العتبة.

كان يبدو لي مارداً حقيقياً ـ مستقيم العود، عريض المنكبين، يشتمل بمعطف طويل يفوح برائحة الصقيع بَعْدُ، متورّد الوجه من جَرّاء الريح والسير السريع، وندف الثلج تذوب على حاجبيه وأهدابه الكثّة، وعيناه تشعّان فرحاً.

استطلع ضاحكاً:

ـ لم تتطلعين هكذا، ألم تعرفيني؟

فأجبت:

ـ ظننتك إيليا موروميت لأول وهلة!

كانت تلك أثمن هدية غير متوقعة في عيد الميلاد.

لم تكُ فرحة شورا لعودته إلى الدار بأقل من فرحتي. فهو لا يبرح جانبي برهة، وإذا أراد الخروج ـ سعياً وراء لفافة تبغ أو التجوال قليلاً ـ فهو يقول لي كطفلٍ صغير:

ـ تعالي معي!

وكان يسأل هذا السؤال عدة مرات في اليوم الواحد:

ـ أخبريني، كيف تعيشين؟

ـ لكنني كتبتُ لك عن هذا...

ـ أما تزالين تتسلّمين رسائل جديدة؟ فلنرَها معاً... دعيني أساعدك في كتابة الأجوبة.

كنت في الحقيقة أحتاج إلى المساعدة، فالرسائل ترِدُني في سيلٍ لا انقطاع له...

كان الشعب يكتب إليَّ، وإلى المدرسة التي درست زويا فيها، وإلى سائر رؤساء تحرير الصحف، وإلى مكاتب الكومسومول في المقاطعة.

كتبت إليَّ أوكينابرينا سميرنوفا، وهي فتاة مجنَّدة في عمر زويا، من ستالينجراد تقول:

«عندما أقوم بمهمة الحراسة أشعر كأن زويا تقف إلى جانبي...».

وكتبت فتاة من موسكو، في عمر زويا أيضاً، إلى مكتب كومسومول مقاطعة تاجانسكي تسأله إرسالها إلى الميدان:

«أقسم أني سأخدم الناس بأمانة وإخلاص، وسأكون مثل زويا».

وكتبت معلمة شابة من جمهورية بشكير:

«سأعلم تلميذاتي أن يكنَّ مثل زويا. مثل ابنتك الجميلة الشجاعة».

وكتب أطفال مدرسة في «نوفوسيبيرسك».

«إنه حزننا، إنه حزن الشعب».

وظلت الرسائل تتوالى إليَّ ـ صادقة، من أعماق القلب، تتضمَّن نذوراً، وأشعاراً، من سيبيريا، ومن ساحل البلطيق، ومن الأوراك، ومن تبليسي، ورسائل ترد من الخارج، من الهند، وأستراليا، وأميركا...

قرأ شورا ذلك كله. ثمّ رجع إلى رسالة وردت من إنكلترا. وإليكم إياها، مترجمة عن نسخة روسية أحتفظ بها:

«أعيش وزوجتي في طابق صغير خارج لندن. ولقد قرأنا لتوِّنا قصة ابنتك العزيزة الشجاعة. ولقد أجبرت الكلمات التي تفوهت بها قبل موتها العبرات على أن تنهلَّ من

عيوننا. تلك البطولة الخارقة، تلك البساطة الحقة، في تلك الفتاة الشابة! إننا نترقب طفلنا الأول في مطلع العام القادم، فإذا كان فتاة فسندعوها باسم فتاتك ـ فتاة الشعب العظيم لأوّل بلد اشتراكي.

لقد سمعنا وقرأنا في إعجاب لا حدود له عن نضالك العظيم. ولكن الإعجاب لا يكفي ـ إنّنا نريد القتال في صفك وإلى جانبك ـ ليست الكلمات ما نرتجي الآن، وإنما الأفعال! وإنّا لعلى ثقة تامة من أن الساعة الأخيرة غير بعيدة أبداً، الساعة التي سنرى فيها دمار الفاشيين الأوغاد الذين نكرههم كما تكرهينهم أنت. وسيسجل التاريخ اسم شعبك في صفحاته باسم الشعب الذي حقق النصر على الفاشيين ببسالته وجرأته وجلده... وإن الشعب البريطاني ليدري تماماً أنه مدين لروسيا ديناً لن يستطيع له وفاءً، وإن الشعب ليقول هنا: ماذا كان أصابنا لولا وجود الروسيين!.

عندما ظهر ستالين على الشاشة البيضاء، انفجر التصفيق حاداً وانطلقت صيحات النصر الفرحة تخالطها صيحات الترحيب. وإنّا لننهي رسالتنا بهذه الأمنية: نخب النصر وصداقتنا الأبدية ـ في الحرب والسلم!

«عاش الشعب الروسي وجيشه الأحمر المجيد!».

مع تمنياتنا الأخوية

مابل ودافيد ريز

سأل شورا:

ـ هل أجبتهما؟ حسناً. أظن أنها صادرة من أعماق القلب، أليس كذلك؟ إنهما يعلمان أننا نقاتل في سبيل الجميع، وليس من أجلنا وحدنا فقط. وإني أرجو ألا ينسوا هذا!

وجاء شقيقي سيرجي في المساء. وكان شورا جدّ مسرور بلقياه. جلسا إلى الطاولة، يواجه كل منهما الآخر، وتحادثا حتى ساعة من الليل متأخرة. كنت أقوم ببعض أعمال البيت، فأغدو وأروح بين المطهى والغرفة، بحيث لم أسمع سوى نثار من الحديث.

قال سيرجي:

ـ... ألم تكتب مرة أنك انطلقت مبتعداً عن الفرقة واقتحمت صفوف العدو؟ لماذا؟ هذا ليس بشجاعة، هذا حَشْوٌ شيطاني. وأنا لا أحبّه! يجب أن تكون شجاعاً، لكن فيمَ هذا الحشو المتفاخر؟

فجاء الجواب حادّاً:

ـ عندما يشرع المرء يفكر في النجاة ينسى كل شيء عن الشجاعة!

ـ أفَلَسْتَ مسؤولاً إذن عن حياة رجالك؟ وبالإضافة إلى هذا، فأنت القائد.

وسمعتُ بعد فترة قصيرة:

أخبِرْني، يا شورا، كيف تعامل مرؤوسيك؟ لا تُسئ فهمي الآن... إن الشباب ليملكون أحياناً أفكاراً رائعة عظيمة عن أنفسهم...

ـ إنني صديقٌ حميم لرجالي. لو كنت تدري ماذا يشبهون!

وجاءني صوت أخي من جديد:

ـ أمّا عن الشجاعة... فأنصحك كثيراً أن تقرأ قصة لتولستوي: «الغارة!» مرة ثانية. إنها قصيرة، لكن رائعة!

ولم يتحدث شورا كثيراً عن نفسه. لقد أضحى أكثر حياءً منه قبلاً، ويلوح أنه يزن كل كلمة يتفوَّه بها. ولقد شعرت أنّه تغيّر كثيراً خلال هذه الزيارة، وإن كنت لا أدري كيف أعبِّر عن ذلك. لربما كنت على خطأ وضلال، إنما يلوح لي أن من اشترك في معركة ما مرة، وسار على ذلك الممر الضيق، تحمل يده الواحدة الحياة وتحمل اليد الأخرى الموت، إن هذا الإنسان لا يجب أن يتحدث عن الحرب طويلاً، وعن الأخطار التي قاساها. وأنا واثقة أن شورا قد شاهد الكثير، وتمرَّس به، ولهذا السبب أضحى أنبس الوجه، قد نضج أكثر من المعتاد، يعتمد على نفسه، وهو ـ في الوقت ذاته ـ أكثر لطفاً ورِقّة.

وخرج شورا في الغداة ميمِّماً شطر المستشفى لعيادة أحد أصدقائه المصابين. ولما قفل إلى الدار كان وجهه قد تغيَّر كثيراً. ولم أتعرَّف فيه على مارد اليوم السابق الجذلان إلّا بعد مشقة عسيرة. تطلَّعت قلقة في وجهه العزيز، هذا الذي لما يزل غضّ الإهاب بعد. كان شاحباً مستوي التقاطيع، وبدت لي عظام وجهه، وفكّه وقد زوّى ما بين حاجبيه، واستبانت التجمّدات واضحة جلية، وشفتاه المنطبقتان بإحكام، هذا كله بدا لي، فجأة، وكأنه يزداد نتوءاً وبروزاً.

قال من بين أسنانه:

ـ ماذا صنع الفاشيون به؟ أنت تعرفين أنّه أعز أصدقائي. لقد أمسى يتيماً قبل أن يبلغ السنة من عمره. وكان ذلك قاسياً بالنسبة إليه، لكنه نشأ وأضحى رجلاً حقيقياً. ولقد أنهى تدريبه العسكري، ثمّ اشترك في حصار لينينجراد، ومنح إجازة صحية، فرفضها ورجع إلى الجبهة من جديد. وقد أصيب منذ عهد قريب فقط: شظايا في الرئة، قرب القلب، وفي ذراعه، وجرح في المعدة، وقد سقطت القنبلة أمامه فرجَّته رجاً. إنه لا يستطيع الحديث، ولا يستطيع السمع ـ يا لهول ذلك! إنه يدعى كوليا لوبوخا. لو رأيت السرور الذي طغى عليه حين رآني...!

واتجه شورا نحو النافذة، وتابع يقول وظهره إليَّ، يقول بحدة وانفعال، وكأنما يعيد تلاوة تعويذة:

ـ لسوف أعود إلى الصفوف! من دون ذراعين، ومن دون ساقين، وأعمى ـ لا يهمّ، لسوف أعيش، أريد أن أعيش!

وفي ثالث يوم من عودة شورا، اتجه إليَّ قائلاً:

ـ لا تقلقي، يا أمي العزيزة، لأنني سأغادرك قبل أن يحين الوقت. لشدّ ما تصعب عليَّ الحياة هنا! الناس يموتون هنالك، وهنا... أنا أدري أن الحياة يجب أن تتابع سيرها... ولكن، لشدَّ ما تصعب عليَّ!

ـ ابقَ فترة أخرى، يا عزيزي! وبالإضافة، فأنت في حاجة إلى راحة...

ـ لن أرتاح ولا بشكل من الأشكال، فلست أقوى على التفكير إلا في الجبهة... وإلا في أصدقائي. وإذا كان في مقدورك، يا أمي العزيزة، فاتركيني أذهب الآن، أتوافقين؟ أريد البقاء إلى جانبك أكبر وقت ممكن!

أبصرته يرحل من محطة بيلاروسيا. كانت عشية هادئة مُجلِّدة. وكانت نجمة تتلألأ في السماء المخضرة فوق خطي سكة الحديد، وبدت لي تلك السكينة عظيمة الغرابة في تلك الفترة، وأنا منطلقة مع ولدي، عارفة أنّه سرعان ما ستختطفه تلك الدوامة العنيفة من النار والموت...

وقطعنا تذكرة في الدرجة الأولى. دلف شورا إلى العربة ليضع حقيبته في مكانها، ثمّ عاد فقفز منها في ذعر.

صاح، مرتبكاً حائراً مثل طفل صغير:

ـ أمي، لقد رأيت زعيماً هناك!

فقلت مازحة:

ـ إنك جندي عظيم! أنت في طريقك إلى الميدان، وتخاف من ضباطك أنفسهم؟

وقفتُ وشورا على الرصيف حتى اللحظة الأخيرة. وتحرك القطار، فمشيتُ إلى جانب العربة وشورا واقف على الدرج، يلوِّح لي بيده... ولما لم يعد في مكنتي السير وقفتُ وجعلت أرنو إليه، كانت قرقعة العجلات تصمُّ الآذان، واندفاع الهواء يجرُّني رغماً عني، وكانت عيناي نديتين بالعبرات... وسرعان ما خيَّم الصمت على الرصيف فجأة، ثمّ لم يلبث أن أمسى مفتقراً لا حركة فيه. ورغم ذلك، فما زال يلوح لي من الظلمة البعيدة أمامي وجه ولدي، ويده تلوّح لي مودّعة...

من أعماق قلبي

هأنذي وحيدة مرة ثانية. إلا أنني أحسّ الكآبة والوحدة اللتين كنت أشعر بهما سابقاً. فقد كان عملي يمدُّ لي يد المعونة.

لكم كنت أودّ أن أشكركم من أعمق أعماق قلبي، أنتم الذين ساعدتموني في تلك الأيام برسائلكم، ولطفكم، وحنوّكم. أنتم جميعاً الذين جئتموني وقلتم لي بثباتٍ وإلحاح:

ـ هلّا جئت إلى مصنعنا. يجب أن تتحدث إلى أعضائنا في الكومسومول.

أنا أدري أن ثمة شيئاً واحداً يمكن أن يساعد الإنسان في شعوره بالتعاسة ألا وهو وعيه أن الآخرين في حاجة إليه، وأن حياته ذات فائدة. ولما نالت المصيبة مني مأرباً، ساعدتموني بأن جعلتموني أشعر بحاجة الناس إليّ، لا حاجة شورا فحسب، بل حاجة العدد العديد من الناس. إنكم لم تتركوني حينما غادرني، ولم تسمحوا لي بالبقاء وحيدة... لشدَّ ما كان ذلك صعباً عليّ، ولكنكم أنقذتموني. كنت أدري أنَّ ثمّة حاجة إليَّ.

كان هنالك عملٌ كثير في كلّ مكان، عمل ينادي الأيادي الحية والقلوب العطوفة. لقد دمَّرَت الحرب الكثير من الأطفال فسلبتهم منازلهم وعائلاتهم.

«يتيم!»؛ كلمة قد نسيناها تماماً، تطالبنا الآن بإصرار متجهم أن نعيرها انتباهاً. يجب عمل شيء، بحيث لا يشعر هؤلاء الأطفال الذين فقدوا عائلاتهم في الحرب باليتم والوحدة. يجب أن يعود إليهم الدفء، والحب، والطمأنينة، هذه الأشياء التي لا يمكن إلا للعائلة وحدها أن تمدّهم بها.

وبدأت أعمل...

لكم نحن في حاجة إلى العديد من المنازل لهؤلاء الصغار ـ منازل جيدة مريحة حسنة التأثيث والتجهيز! ولكم نحن في حاجة إلى العديد من المعلمين، القديرين والمحبين! فالأطفال في حاجة إلى أحذية، وثياب، وطعام، وأكثر من هذا كله إلى حب، ودفء، وحنان. وشرعت منازل الأطفال تنهض في كل مكان، في كل القرى، وبين المصانع، وفي المزارع التعاونية. كل إنسان يبغي القيام بأي عملٍ في سبيل أطفال قتلى الحرب!

وما أعظم ما كانت غبطتي عندما علمت أن في مقدوري الاشتراك في هذا العمل.

كان عليَّ أن أسافر كثيراً في تلك الأيام. فذهبت إلى طامبوف، وريازان، وكورسك، وإيفانوفو، ثمّ إلى بيلاروسيا، وأوكرانيا، وإلى آلطاي، وتومسك، ونوفوسيبيرسك. لم يكن للعمل نهاية في أية بقعة، ففي كل ناحية أطفال يُتم. أطفال يجب إيجاد مأوى لهم في كنف عائلة جديدة أو في بيت للأطفال. وفي كل مكان، كنت أقابل بعيون طافحة بالإخلاص والتأثر. فظللت أتعلّم، أتعلم الشجاعة والجلَد من شعب وطني.

وفي أواخر عام 1944 أرسلتني جمعية الصليب الأحمر إلى لينينجراد.

إن أصصاً من الزهور تنتصب على قواعد التماثيل، حيث كانت جياد المثال كلوند المطهمة الرائعة تزمجر مرة، جاهدة أن تفلت من قبضة الفتيان البرونزيين، حتى لا تغتمّ العيون لغياب التماثيل المألوفة. وكانت عدة إعلانات ملصوقة على الجدران تحذّر المارة: «هذه الجهة خطرة عندما تطلق المدفعية نيرانها». لكن شعب لينينجراد، المحاط بمساعدة الوطن بأسره، كان قد شرع يصلح منازله منذ عهد بعيد، فيضع الزجاج في النوافذ، ويرمم الأرصفة ويفرشها بالأسفلت.

وكان في صحبتي امرأة عجوز من مصنع إيلو كتروسيلا. قصَّت عليّ كيف عملت مع زوجها جنباً إلى جنب، خلال الحصار، وراء مخرطتيهما. وقد عملا بما تبقى عندهما من قوة، فعضهما الجوع بأنيابه، لكنهما تغلبا على الضعف بالإرادة القوية، وبالرغبة العنيدة في عدم الاستسلام... وذات يوم، بينا هي تلتفت لتلقي نظرة على زوجها، ألفته مطروحاً على

الأرض، وقد فارق الحياة. فأسرعت إليه، ووقفت أمامه هنيهة، ومن ثمّ عادت فتابعت العمل. ظلّت تعمل وزوجها ملقىً أمامها، بقرب المخرطة التي لم يهجرها حتى آخر نفس فيه. إن التوقف عن العمل معناه الاستسلام للعدو، وهي لن تستسلم...

وسمعتُ عن مهندس بنّاء وضع تصميماً لقوس النصر في أشد أيام الحصار قسوة وصعوبة. وسمعتُ عن أمهات قُتل أبناؤهن في الدفاع عن لينينجراد: فلم تبخل هؤلاء النسوة بآخر ما تبقى لديهنّ من قوة لحماية أطفال الآخرين. أصغيت إلى تلك الأقاصيص، وقلتُ في نفسي ثانية:

ـ ليس لي الحق في الاستسلام لأحزاني. لقد قاسى هؤلاء الناس فاجعة عظيمة، وكانت بيلتهم وخسارتهم تضارعان بليتي وخسارتي في العظمة. وها هم يعيشون ويعملون، فيجب عليّ أن أعيش وأعمل أنا الأخرى.

وقد عرفتُ شيئاً آخر: إن زويا محبوبة من الناس جميعاً. كان شعب وطني، وأصدقاؤها، وأصدقائي، هؤلاء كلهم كانوا ينطلقون إلى الميدان، أو ينطلقون إلى المصانع، أو يعملون في الحقول، واسمها يتردد على شفاههم، وبلغ صيتها صبياً من كراستودون يُدعى أوليج كوشيفوي[(5)]، فروى قصتها لأصدقائه، فأعادوا تلاوة مآثرها جميعاً، واتخذوا أماكنهم إلى جانبها مثل إخوتها وأخواتها، هؤلاء الأطفال الذين ينحدرون من صلب أرضنا الأم، العظيمة المفدّاة.

كانت ذكرى زويا تعيش وتنتشر... وقد كانت عزيزة على قلوب الكثيرين غيري. وظل الناس يذكرونها حية، نشيطة، صلبة الرأي.

وهذا ما ساعدني على الحياة أيضاً.

(5) أحد أبطال قصة «حرس الفتوة» لألكسندر فادييف، والحائز على لقب بطل الاتحاد السوفييتي (المترجم).

رسائل

اعتاد ابن أخي سلافا، الذي اشترك في القتال منذ اليوم الأول للحرب، أن يكتب إليَّ من الميدان.

وبدأ بيوتر ليدوف يكتب إليَّ بعد لقائنا قرب ضريح زويا. وكان يكتب في أغلب الأحيان كلمات قليلة تنقل تحياته وعواطفه. لكن هذه الكلمات، رغم قلتها، كانت عزيزة عليَّ أثيرة عندي. وكنتُ، كلما أتصفَّح الجريدة، أفتش عن الرسائل المستعجلة القادمة من الميدان والموقعة بقلم ليدوف. كان يكتب عن كل شيء ببساطة، وهدوء، وشجاعة. وكانت تلك موهبة خاصة به. ثمة قوة مريعة تكمن في تلك البساطة وذلك الهدوء. وعندما انقطع ذلك الاسم المألوف عن الظهور في صحيفة البرافدا مدة طويلة بدأت أشعر بالقلق. بدأت أشعر بالقلق من أجله وكأنه ولدي أو شقيقي.

وفي كل أسبوع كانت تصلني من شوار عدة رسائل:

«جميعنا في حالة نفسية طيبة، وخاصة بعد هجومنا الأخير. لقد بقيت قابعاً في دبابتي، في المعركة الأخيرة، أكثر من ثمان وأربعين ساعة. إنها لمعجزة أن نظل جميعاً على قيد الحياة، وكل شيء حوالينا تأكله النيران وتهزّه الانفجارات، والدبابة تتأرجح مثل علبة ثقاب. ولكن، لا تقلقي من أجلي، يا أماه».

«... لسوف أستلم الآن رجالاً جدداً ودبابة جديدة للقتال من طراز «ك. ف.». وهذه ستكون ثالث دبابة أحصل عليها: الأولى أصيبت، والثانية احترقت ـ ولم أخرج منها وأنجو بنفسي إلّا بصعوبة فائقة... لقد قتل سائق دبابتي القديمة دزيجيريس، أما الآخرون فأصيبوا بجراح... سأكتب إلى جدي. فاكتبي أنت أيضاً. إنه مريض ووحيد».

«... لقد جرحت، لكنني لم أغادر الميدان. ربطت الجرح وعدت إلى العمل. لقد اندمل كل شيء الآن. وأصيب الآمر في معركة، فاستلمتُ القيادة بنفسي، فاقتحمتُ وأصدقائي خطوط العدو، وفي الصباح وقعت أورشا بين أيدينا... جميع الرجال على قيد الحياة وفي صحة جيدة... وصلتني رسالة من جدي. إنه يقضي فترة عصيبة من الزمن. فهو لا ينفك يفكر في زويا وجدتي. ولقد رددتُ على رسالته، وحاولت أن أكون لطيفاً قدر المستطاع».

«... إن السكان المحليين لعظيمو السرور لرؤيتنا. فهم يعنون بكل شيء، وكل شيء يبدو لهم غريباً. وأطلعتهم في أحد الأكواخ على كتابٍ عن زويا. فأمطروني وابلاً من الأسئلة، ورجوني أن أترك لهم الكتاب. لم أستطع ـ إنها النسخة الأخيرة التي أملك. ولذا أسألك ـ إذا كان في الإمكان ـ إرسال شيء من الكتب ـ 69 شارع بيريكوبسكايا، أورشا...».

«... أزفتْ أخيراً ساعة الحرية المنتظرة في بيلاروسيا. ولقد حيَّتنا الجموع بالزهور ونفحتنا بالحليب. وقصت العجائز علينا، والدموع تترقرق في مآقيهن، قصص العذاب الذي قاسينه. لكن هذا جميعه ولّى. وها إن الهواء يبدو نقياً صافياً، والشمس مشعة براقة. أمّاه، إنّ النصر لعلى الأبواب!».

«... أطيب تمنياتي إلى العم سيرجي. قولي له إني ما زلتُ ذاكراً كلَّ ما قصَّ عليَّ، هل يكتب لك جدي؟ أنا لم أستلم منه أية رسالة منذ عهدٍ بعيد».

«... تسألين عن رتبتي، وعن العمل الذي أقوم به، سأجيبك بكلمات قالها رئيس كبير عني مرة: إنه لمْ يُخلَق للرتب، بل للمعارك!».

«... شكراً على التهاني. لقد استلمت حقيقةً الوسام الذهبي ـ وسام بطل الحرب، من الدرجة الأولى. ووصلتني أنباء تقول إني حزتُ وسام العلم الأحمر. لا تظني أني تغيرت. شخصيتي ما زالت على حالها. إنما أصبحتُ أشد قوة، وأعنف بأساً...».

«... أماه، قُتل بيوتر ليدوف! ما أقسى أن يموت قبل النصر بأيام معدودة، يا أمي! ما أتعس أن يموت المرء عشية النصر! قتل في أحد مطارات بولتافا: خرج من المخبأ راكضاً ليرى إلى رجالنا كيف يصدّون غارة جوية عدوة. لقد أراد وصفهم ـ لقد أراد رؤية كل شيء بأمّ عينيه. لقد كان مراسلاً حربياً حقيقياً ورجلاً حقيقياً...».

«... نحن نتقدم غرباً بمحاذاة إقليم تابع للأعداء. ظللت أقاتل باستمرار طيلة الأسبوعين الأخيرين، ولهذا السبب لم أكتب إليك. ولكنني جدّ مسرور لاستلامي رسالتك. إنها رسالة من أرض موطني، من أمي الغالية... وإن الهواء نفسه الآن، وأنا أكتب إليك، يهتز ويرتجف، ودبابتي ترتجف، والأرض تبدو كأنها ترقص من عنف الانفجارات. ولن تمضي عدة دقائق حتى يشرع شبابنا بالهجوم، إلى قلب قطاع الألمانيين باستقامة». (كتبت هذه الرسالة بالقلم الرصاص، بأحرف كبيرة سريعة: كان شورا، نفسه، متعطشاً للمعركة).

«... مرحباً، أماه، كيف حالك؟ لقد عشت في جحيم معركة هجوم قوية أكثر من شهر. لم يكن لديّ وقت للكتابة، بل لم يكن لديَّ وقت كافٍ لقراءة الرسائل التي وردتني... مرّت علينا أمسيات اضطررنا فيها للمسير ولمعارك الدبابات، وقضينا ليالي متوترة لم يغمض لنا فيها جفن خلف صفوف العدو، والقنابل المحرقة الزاعقة تتوالى من «الفرديناند»... كان عليَّ أن أشاهد رفاقي يموتون، أن أشاهد الدبابة القريبة تنفجر وتطير في الفضاء بمن فيها من الجنود. لم أكن أستطيع سوى طحن أسناني في صمت. وكان الرجال يتسلقون خارج دباباتهم كالسكارى، وما ذلك إلّا بسبب من التوتر وقلة النوم، ورغماً عن هذا، كنا جميعاً في حالة نفسية طيبة، في مزاج رائق صاف: كنا في قطاع العدو، كنا ننتقم لعام 1941 ـ للألم، والدموع، والإهانات التي أجبر الفاشيون شعبنا على تحملها».

«سنرى بعضنا قريباً في موسكو، في بيئة مألوفة».

«... إنني لا أشترك في القتال، بل أنتظر الأمر بالهجوم. لقد اتخذنا مراكز دفاعية. الأيام تمر رتيبة مضجرة في هدوئها، والانتظار يعذبنا. نحن نعيش في بيوت الألمانيين. وأيان ألقيت بصرك تقع عيناك على دور رمادية لم يبق منها سوى أطلال دارسة. والقنابل المحرقة لا

تنقطع في ليل أو نهار، وبيوتنا تهتز وتتأرجح، الفاشيون يقاومون في وحشية ضارية، فهم يتعلقون بكل شبر من الأرض. وهم الآن يطلقون النار على قراهم نفسها... لقد خُمشتُ بجرحٍ طفيف في المعركة الأخيرة، وانتهى كل شيء الآن، رغم أن صدري ما يزال يؤلمني...».

«... المطر، المطر... البحر رمادي اللون، بارد الملمس، والطقس أردأ ما يكون. الكآبة والرطوبة تسيطران هاهُنا. أود لو أكون في البيت وآمل أن أكون فيه سريعاً. اعتني بنفسك، وراقبي صحتك، واكتبي لي كثيراً. لا تقلقي من أجلي، أقبِّلك...».

ولدك الوحيد،

ألكسندر

كانت هذه الرسالة من «بروسيا الشرقية»، وكان تاريخها الأول من نيسان، 1945.

وانتظرت الرسالة الثانية ـ لكنها لم تأتِ. كنت خائفة من التفكير، فقبعت أنتظر وأترقب. لم أكن أخشى أية كارثة فولدي ما يزال على قيد الحياة، وإنه ليحب الحياة ويتعشقها، وما زلت أسمع كلماته، المليئة بالإيمان:

ـ لسوف أعودا

موت بطل

في العشرين من نيسان وجدتُ تحريراً في صندوق البريد. كان المغلَّف يحمل رقم مكتب شورا الحربي، إلّا أن الكتابة لم تكن بخط يده. وقفت أحمل الرسالة زمناً طويلاً، أخاف أن أفضّها. ثمّ مزقت المغلَّف وقرأت الأسطر الأولى، فاستحال لون الغرفة أسود داكناً في عينيّ. وتنشقت نفساً طويلاً وشرعتُ في القراءة من جديد، ومن جديد لم أستطع متابعة القراءة. وأخيراً طحنتُ أسناني بقسوة وعنف جهد طاقتي وقرأت حتى النهاية:

14 نيسان، 1945.

«أيتها العزيزة ليوبوف كوسمودميانسكايا:

لكم يصعب عليَّ أن أكتب إليك! لكنني أرجوك أن تستجمعي شجاعتك وقوتك. إن ولدك، ملازم الحرس القديم ألكسندر أناتوليفيتش كوسمودميانسكي، مات ميتة بطل في المعركة مع الألمانيين المعتدين. لقد وهب حياته في سبيل حرية أرضه الأم واستقلالها.

سأقول لك شيئاً واحداً... إن ولدك بطلٌ، ويمكنك أن تفتخري به وتعتزي. لقد ذاد عن بلاده بشرفٍ وصدق، وبرهن عن جدارته بأخته.

لقد منحتِ بلدك أغلى وأثمن ما تملكين ـ منحتِ ولدَيكِ.

في معركة كونيجسبرغ التي جرت في السادس من نيسان، كانت دبابة ألكسندر كوسمودميانسكي سبَّاقة إلى اقتحام قناة عرضها ثلاثون متراً وفتح النار على العدو، فتشتت بذلك شمل بطارية مدفعية، ونسف مستودعاً للذخيرة، وقتل قرابة ستين جندياً وضابطاً من الهتلريين.

وفي الثامن من نيسان كان أول من اقتحم حصن كونيجين لويزن، حيث أسرنا 350 جندياً مع 9 دبابات في حالة حسنة، و200 عربة ومستودعاً للبترول. وفي معمعان المعركة رُقِّيَ ألكسندر كوسمودميانسكي من آمر دبابة إلى آمر بطارية. ورغماً عن صغر سنّه، فقد قاد البطارية بنجاح تام، وقام بجميع واجبات القتال بصورة حسنة مثالية.

لقد قُتِلَ البارحة في معركة مركز فيير برودبيكسبروغ، إلى الغرب من كوننسبرغ، التي كنا قد احتللناها. وكان ولدك أوَّل من دخل فيير برودبيكسبروغ، مكتسحاً قرابة أربعين هتلرياً ومحطِّماً أربعة مدافع. وطوت قنبلة متفجِّرة عدوة حياة رفيقنا العزيز، ألكسندر أناتوليفيتش كوسمودميانسكي.

الحرب والموت شيئان غير منفصلين، لكنه من الصعب جداً أن نتقبّل الموت عشية نصرنا بالذات.

كوني شجاعة. مع خالص احترامي ومحبتي، آمر الحرس العقيد ليجيزا...».

* * *

طرتُ في الثلاثين من نيسان إلى فيلينوس، ومن هناك ركبت سيارة إلى كوننسبرغ، كان كل شيء مهدماً مهجوراً... فلا ترى بناءً قائماً... ولا ترى روحاً حية في تلك البقاع... اللهم سوى بعض الجرمانيين يمرون يدفعون أمامهم عربات يد أو عربات بعجلتين محملة ببضائع منزلية لا يجسرون على رفع رؤوسهم والتطلُّع في عيوننا...

ومن ثمّ لقينا سيلاً من المواطنين العائدين الآن، وقد أصبحوا أحراراً، إلى بيوتهم. كانوا يمتطون الجياد، أو يسيرون على الأقدام، وكلهم تنضح وجوههم بالسعادة والغبطة! كان كل شيء يعلن أن النصر غير بعيدٍ منا! إنه قريب! إنه رهن اليدا!...

لكم سألني شورا مرات ومرات:

ـ أماه، كيف يُصوّر لك خيالك يوم النصر؟ ومتى سيكون؟ في الربيع على الأرجح، في الربيع من دون شك! لكنه حتى إذا حدث في الشتاء، فلا بد للثلج أن يذوب وتزدهر الورود!

وها يوم النصر يقترب الآن... تلك كانت عشية يوم النصر، عشية السعادة... وكنت جالسة إلى جوار نعش ولدي. كان يضطجع فيه وكأنه ما يزال يتنفس الحياة، وجهه هادئ صاف. لم يخطر لي في بال أننا سنلتقي هكذا... ذلك أكثر من أن يتحمله قلب بشري...

وما كدت أرفع عينيَّ عن وجه شورا حتى صافحني وجه فتيٍّ... تطلعت إليه وقد غاب عن ذهني أين التقيت ذلك الوجه من قبل. كان من الصعب أن أفكر، أن أتذكر...

قال الفتى في هدوء:

ـ إنني فولوديا تيتوف.

فتذكرت على الفور أمسية نيسان يوم رجعت إلى البيت فوجدت شورا ورفاقَهُ غارقين في الحديث. وسمعت صوت ولدي مرة ثانية «لقد دعانا الجنرال نفسه على اللفائف... إننا ذاهبون إلى مدرسة دبابات أوليانوفسك...».

فسألت في جهدٍ عظيم:

ـ والآخرون؟

فأخبرني فولوديا أن يورا برونو وفولوديا يورييف قُتِلا. لقد قُتِلا، مثل شورا، قبل فترة قصيرة من النصر... كم من أبطال فتيان طواهم الموت قبل ذلك اليوم العظيم!

لست أستطيع الحديث عن ذينك اليومين اللذين قضيتهما في كونسبرغ... ولكني أذكر الحب والاحترام اللذين يتحدث بهما الجميع عن شورا...

سمعت بعضهم يقول:

ـ شجاع... متواضع... ويا له من رفيق! فتىً، لكنه قائد حقيقي... سوف لن أنساه أبداً...!

ومن ثمّ ـ كانت طريق العودة، صحبني ساشا فيسيكوف، مدفعيّ شورا. واعتنى بي، فكأنني مريضة، ورعاني وكأنه ولدي، وكان يعرف دائماً ما ينبغي له أن يفعل من دون سؤال.

وفي الخامس من أيار دفن شورا في مقبرة نوفوديفيشي، ونهض مقابل ضريح زويا ضريح آخر. فلقد ظلّا معاً، في الموت كما في الحياة.

كان ذلك قبل النصر الأخير بأربعة أيام.

وفي التاسع من أيار وقفت إلى نافذتي أراقب سيل الجماهير يمرّ في الشارع. الصغار والكبار جميعاً يلوحون وكأنهم عائلة واحدة، سعيدة مغتبطة. وكان النهار مشرقاً مشعاً!

أبداً لن يرى ولداي السماء الزرقاء والزهور، أبداً لن يستقبلا الربيع ويحيّيانه. لقد قدَّما حياتهما في سبيل أطفالٍ آخرين، في سبيل هؤلاء الذين يمرّون بي الآن، في هذه الساعة التي انتظرناها طويلاً.

يجب أن يكونوا سعداء

إني أحبّ المجيء إلى هنا، والمسير على طول ممرات المدرسة العزيزة المألوفة حيث تلقى ولداي العلم، والتي تحمل الآن اسم زويا... وإنني لأتطلع إلى الصفوف، وأرقى السلم إلى الطابق الثالث وأدنو من الأبواب حيث هذه الكتابة:

«بطلا الاتحاد السوفييتي زويا كوسمودميانسكايا وشورا كوسمودميانسكي قد درسا في هذا الصف»

ولأدخل تلك الغرفة، حيث ترمقني صورتا ولديّ من على الجدران. ثمة المقعد الثاني في الصف الأوسط ـ إن زويا اعتادت الجلوس فيه. إن فتاة أخرى تجلس فيه اليوم، وإن لها عيني زويا الصافيتين. وثمة ذلك المقعد في أقصى الغرفة في الصف التالي للأوسط ـ ذلك كان مقعد شورا. وإن الفتاة الجالسة هناك الآن لترنو إليّ. إنها تلبس معطفاً بنياً ذا ياقة بيضاء ومئزراً أسود، وإن لها لوجهاً رزيناً ينبئ عن تفكير عميق...

وأهبط الدرج إلى الأطفال الصغار. وأقتعد طبقة منخفضة في جوار صبية في الصف الأول وأفتح كتاب قراءتها. إن غلاف الكتاب يحمل صورة سنابل مذهبة، وسماء زرقاء، وأشجار حور ـ صورة محبوبة عن بلادنا المسالمة. ليبدو أنها تشمل كل ما يتحدث عنه. إن كل صفحة من ذلك الكتاب ترنيمة للعمل المسالم، لتربتنا الأم، لغاباتنا، ومياهنا، لشعبنا... إن بلادنا قد قوَّمت كتفيها، إنه البناء والإبداع، إنها الزراعة وسقي الفولاذ، إنه نهوض مدننا المحترقة وقرانا من بين الرماد... إن شعباً جديداً رائعاً يتثقف...

إن هذه الفتاة الصغيرة الجالسة قربي، ورفيقاتها جميعاً، سائر أطفال الأرض السوفييتية، يتعلمون الحكمة العظمى ـ ألا وهي أن يحبوا شعبهم، أن يحبوا وطنهم الأم... لقد تعلموا كيف يحترمون العمل، والصداقة بين الشعوب، أن يحترموا ويقدروا جميع الأشياء الجميلة التي خلقتها شعوب الأرض.

ـ يجب أن يكونوا سعداء! وسيكونون سعداء!

ما أكثر الدماء التي أُريقت، وما أكثر الحيوات التي قُدِّمت كي يكونوا سعداء، كيلا تكتسح حربٌ جديدة مستقبلهم وتحطمه!

أجل، لقد قُتل الكثيرون من الشباب الأنقياء الصادقين. قتلت زويا وقتل شورا، وقتل تلميذٌ آخر من تلامذة المدرسة رقم 201، إنه طيار ممتاز اسمه أوليج بالاشنوف، لقد مات ميتة بطل. وإن فانيا نوسينكوف، الذي تلا علينا مرة القصيدة عن ماتيه زالكا، قد قُتل. وإن المجادل اللجوج بيتيا سيمونوف قد قتل. ولقد فقد فولوديا يورييف ويورا بورنو حياتهما. وقتل الكاتب أركادي جايدار خلال الأشهر الأولى من الحرب. وقبيل فترة قصيرة فقط من يوم النصر حصد الموت بيوتر ليدوف، مراسل البرافدا الحربي... إن عدداً عديداً من الأحياء قد قتلوا، وإن عدداً عديداً من الخسارات الفادحة حلَّت بنا... ولكننا مهدنا الطريق إلى النصر والسعادة بمهارتهم، وبسالتهم، وموتهم، هؤلاء الذين تساقطوا في ذلك الصراع العظيم الوحشي.

وهؤلاء الذين يعيشون ـ إنهم يعملون، ويبنون، ويخلقون...

هذه امرأة شابة ذات وجه لطيف أنيس تتقدم عبر الممر لملاقاتي. إنها كاتيا أندرييفنا، لقد فعلت ما نوت أن تفعل: أضحت معلمة مدرسة تعلّم في مدرستها القديمة، المدرسة التي درست على مقاعدها مع زويا وشورا.

لقد غدا رفقاء ولديَّ الآن مهندسين، وأطباء، ومعلمين... وهم يتابعون العمل الذي قدَّم رفاقهم حياتهم على مذبحه.

إني أعبر الممشى المألوف... وهذا باب المكتبة مفتوح... إن رفوفاً إثر رفوف تمتدُّ على طول الجدران. تغصُّ جميعاً بالكتب، تغصُّ بعددٍ عظيم من الكتب.

وخاطبتني كاتيا بقولها:

ـ كنا نملك قبل الحرب عشرين ألفاً من المجلدات، ولدينا الآن أربعون ألفاً...

وخرجتُ...

كانت المدرسة محاطة بأشجار خضر هدباء... هنالك كانت الأشجار، الأشجار التي زرعها الصغار، وبدا لي أني أسمع صوت زويا يقول:

ـ إن شجرة زيزفوني هي الثالثة ـ تذكري، يا أميمة!

في قاعة بوفالو

نسيان 1949. باريس. قاعة بوفالو. اجتماع أنصار السلم...

أثناء مؤتمر باريس ظلّت «قوافل السلام» تجيء إلى القاعة كل يوم من جميع أنحاء فرنسا. كانت الجموع تشق طريقها على الأقدام وعلى الدراجات، وفي السيارات، وفي المراكب العابرة الأنهار، إلى باريس لتقول:

«لسوف ندافع عن السلم! لسنا نريد الحرب!».

وفي يوم الأحد، قبل انتهاء المؤتمر، تجمعت جماهير غفيرة في قاعة بوفالو وحواليها. وإلى الأعلى منها، إلى الأعلى من بحر الزهور رفرفت الحمامات البيض ـ رمز السلام والطمأنينة.

كان ثمة قوى مدهشة في ذلك الاحتفال غير الطبيعي للمناضلين من أجل السلم. كان ثمة عمال مناجم فرنسيين، وبحارة من مرسيليا، وعمال مناسج من ليون، وفلاحون من شمال فرنسا. ومرَّتْ من أمامنا قافلةٌ من الأمهات الفرنسيات، يحملن لوحة كبيرة خطَّ عليها:

«إن أمهات فرنسا لن يقدّمن أولادهن لحربٍ ضد الاتحاد السوفييتي!».

وكان أطفال هؤلاء الذين قتلوا في سجون الفاشيين يسيرون في الموكب يحملون في أياديهم لوحات تقول:

«نريد السلم! نريد الحياة».

وسمعت صوت رجل منفعل يقول:

ـ ستعيشون لأن الاتحاد السوفييت في العالم!

وسوف لن أنسى قافلة أخرى: أعضاء في حركة المقاومة ـ مسجونون سابقون في «معاقل الموت» الهتلرية الرهيبة. في ذلك النهار الجميل، بين الورود الربيعية الحلوة، بين البنفسج ونبات عود الصليب والأزهار، كانوا يسيرون في ثياب المحكوم عليهم المخطَّطة، هذه الثياب التي احتفظوا بها ذكرىً لشيء لن يُنسى أبداً. وكانت ملامحهم تنطق قائلة:

«تذكَّروا ما حدث! تذكروا العار، تذكروا الذلّ، تذكروا العذاب المضني والشقاء المرّ اللّذين حملتهما الفاشية لشعبنا! إن الفاشية تعني الحرب! تذكروا ما حدث، والحياة التي قاسينا شظَفَها! لنرجو أنها لن تحدث مرة ثانية!».

وعدتُ ففكَّرتُ من جديد:

«نعم، يجب على المرء أن يتذكَّر ويذكِّر الآخرين بقسوة الحياة التي عشنا!».

ولهذا الشيء، تغلَّبت على أحزاني، وحاولت كتابة هذا الكتاب. كلا، لم يمت هؤلاء الذين يضطجعون في رمس قبورهم! الأموات إنْ هم إلّا أولئك الذين نسوا أهوال الحرب. الذين يريدون إشعال نيران حرب جديدة. ليس لنا الحق في النسيان، بل لسنا نجسر على النسيان! فإذا ما كانت الإنسانية تذكر جحيم الفاشية الدموي، فإن هذه الإنسانية لن تسمح لنفسها بالوقوع في هذا الجحيم من جديد. لكن، من يستطيع أن يذكّر العالم بالواجب الملقى على عاتقه إنْ لم تستطع بلادي ذلك؟ أيُّ صوتٍ يرنّ في كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية، وفي قلوب البشر، أعلى من صوت شعبي؟

ما زلتُ أذكر أولئك الرجال الذين شدوا على يدي مصافحين عندما استقبلوني في المؤتمر، والذين كانت عيونهم تطفح عطفاً وتفهماً. ما زلت أذكر تلك المرأة الزنجية التي عانقتني وربتت على كتفي وكأنها تقول إنها حزينة لحزني، والمرأة الهندية التي ظلّت تهمس في أذني بكلمة «زويا... زويا...»، ولم تكن تلك الكلمة تحوي عطفاً لحزني فحسب، ولكنها كانت تحوي احتراماً لروح شعبي...

لقد ضحّى الاتحاد السوفييت لإنقاذ الإنسانية من العار، والعبودية، والجريمة، لقد ضحَّى لا بذهبه فحسب، بل بدمائه أيضاً. لقد ردَّت بلادي للإنسانية، بأعلى الأثمان، دم أبنائها وحياتهم ـ ردَّت لها الحقّ في التنفّس.

والآن، كما هي الحال من قبل، يرتبط كل ما هو جيد وجميل ومحبّ للحرية ارتباطاً لا انفصام فيه بأرضنا العظيمة، وباسم ستالين!

وأنا أعرف أن الملايين من القلوب الشجاعة الشريفة هي قوة عظيمة لا تقهر. هذه القوة التي لا تذكر أمامها تلك الحيوانات المرتزقة المتوحشة التي تهدّد العالم بحرب جديدة هائلة.

ورداً على نداء الأمهات، رداً على قوى الديمقراطية في العالم، جعل اليوم الأول من شهر حزيران يوماً للطفل العالمي. إن بسطاء الناس في كل مكان يناضلون في سبيل السلام ـ في سبيل الفرح والسعادة، في سبيل حياة أطفالهم. ألا فليرنّ صوت الشعب برنين أعظم ذوداً عن السلم، ذوداً عن الأطفال!

أجل، لقد كانت حقيقة عظيمة وعميقة في تلك الكلمات التي تفوّه بها عضو وفدنا بنبلٍ عظيمٍ من فوق منبر المؤتمر! ينبغي لكل إنسان اليوم أن يسأل نفسه: «ماذا فعلت للدفاع عن السلم؟». وإذا كان الجميع يدافعون عن السلم حقيقة، إذا اتحد جميع الناس الشرفاء ـ فسوف نصون السلم، ونحمي سعادة أولادنا، سعادة جميع الأمم.

1. الغلاف
2. زويا وشورا بطولة فتاة وثأر فتى
3. مقدّمة الطبعة العربية
4. المقدّمة
5. غابات الرجّاج(2)
6. حياة جديدة
7. في البيت من جديد
8. طفلتي
9. سنة مُرّة
10. ولدي
11. الجَدّة
12. الأخ والأخت
13. رؤية العالم
14. في سيبيريا
15. شتاء!
16. أثر لا يزول
17. فراقنا الأوّل
18. بعد عام
19. جميعاً، مرّة ثانية
20. عيد
21. أمسياتنا
22. على الدرب إلى المدرسة
23. تدشين الدار الجديدة
24. حزن

25. يتيمان
26. المدرسة الجديدة
27. الأساطير اليونانيّة
28. الكتب التي يحبّان
29. المعطف الجديد
30. الباخرة شيليوسكين
31. شقيقته الكبرى
32. سيرجي ميرونوفيتش كيروف
33. «خمّني من جاء لزيارتنا!»
34. رحلة إلى أرض العجائب
35. نار المخيّمات في الليل
36. يوميّات
37. «العصا الصغيرة البيضاء»
38. الذبابة
39. الفتاة في الثوب الزهريّ
40. الرهان
41. تانيا سولوماخا
42. إيرادهما الأول
43. فيرا سيرجيبفنا
44. «ممتاز» في الكيمياء
45. وحيدة مع نفسها
46. عهد القائد
47. المنزل في شارع ستاروبيتروفسكي
48. عشية رأس السنة
49. أيام كئيبة

50. في البيت من جديد
51. أركادي بتروفيتش
52. رفقاء المدرسة
53. أخضر هو لون الفتوة
54. الحفلة الراقصة
55. الثاني والعشرون من حزيران
56. أيام الحرب
57. الفراق
58. «كلماتي موجَّهة إليكم، يا رفاقي الأعزاء!»
59. القنابل الأولى
60. «ماذا فعلتم في سبيل الميدان؟»
61. وداعاً زويا
62. المفكرة
63. تانيا
64. في بيتريشيفو
65. كيف حدث ذلك
66. قصة كلافا
67. شورا
68. من سائر أنحاء الوطن
69. وداعاً، يا شورا!
70. أخبار من أوليانوفسك
71. مراسل حربي
72. خمس صور
73. «أريد أن أعيش!»
74. من أعماق قلبي

75. رسائل
76. موت بطل
77. يجب أن يكونوا سعداء
78. في قاعة بوفالو